عائشة والسياسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وإخوانه الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، وجميع الهداة إلى يوم الدين.

{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} [النمل: ١٩/٢٧].

بين يدي الكتاب

في طبعي هيام بالحرية والصراحة، وكثيراً ما أتنكب الطريق الأسلم في سبيل الجهر بما أرى أنه الحق في العقائد والأشخاص، متحملاً بصبر وطمأنينة ما أجرُّ على نفسي من عناء وعداء، وهذا بلاء حتم لا مفر منه لمن خلق حراً صريحاً، ولو حاول غير ذلك ما استطاع.

لقد أقدمت على نشر هذا الكتاب وأنا أدري ما في موضوعه من حرج؛ ومن راعى جانب الناس وحاذر أن يصدم ما نشؤوا عليه من أهواء قضى و لم يقل من الحق شيئاً. وبحثنا هذا شائك جد شائك، ما في ذلك ريب، وقد استعنت الله وسلكته على حرجه، بل لعلي لم أسلكه إلا لحرجه. وأحب أن يعلم القارئ أني شرعت فيه قبل عشر سنين كوامل، وأنا كغيري من المشتغلين بالتاريخ والأدب - أحمل آراء في بعض الحوادث، وأحكاماً على بعض الناس؛ فما زلت أوغل في بحثي وأتحرى الصغيرة والكبيرة، وأنظر في مبادئ الحوادث ثم في ذيولها البعيدة.... حتى غيّرت - على رغم هواي ومألفي - كثيراً من تلك الآراء وهذه الأحكام.

www.alkottob.com

وأبعد من ذلك: فقد تحررت - بحمد الله - بعد التفكير الهادئ من كثير من الآراء والمذاهب التاريخية التي يتعبد بها بعض الباحثين لعصرنا، أو يُزْهَوْنَ بالانتساب إليها وكثرة الترديد لمصطلحاتها الحديثة. يقهرون المنطق والواقع على الخضوع لها؛ فإن لم يخضعا كان الخطأ في المنطق والواقع لا في المذهب.

وليس مذهب من هذه المذاهب بحق مطرد. أبداً، فقد يوافق بعضه الحق حيناً ثم يجانبه. ووجدت خير معين لفهم التاريخ فهماً صحيحاً هو البصر بالنفس الإنسانية فحسب، فالإنسان ما زال كما كان ما تبدل جوهره في شيء، سواء أعاش في (رومية) القرن الأول أم في (لندن) القرن العشرين، وما يؤثر في نفس الرجل البادي يؤثر في نفس الحضري الراقي.

وعلى هذا فلست إذن متبعاً مذهباً ما، ولن أخضع الحوادث لتفسير ما فأكلف الأشياء غير طبائعها. فلا أقول بالعِلِّيَّةِ التاريخية المطردة، ولا أقر (الجبرية) في التاريخ، وأجد أبعد المذاهب عن الواقع وأنآها عن الحق والفطرة: مذهب التفسير المادي للتاريخ، وهو أحدث المذاهب حتى الآن، ويكاد لا يكون مذهب في روسية وعند من انجرّ من أذيالها وأذيال دعاتها المبثوثين؛ وإنما أعتقد أن هذا الكائن الاجتماعي الذي هو الإنسان لم يتغير من حيث غرائزه ودوافعه وكوابحه وميوله وأهواؤه... والنفس الإنسانية خالدة الصفات والميزات، فمن فهمها فقد فهم تاريخ كل الأمم في كل العصور.

وأعتقد أيضاً أن هذا التاريخ (الذي موضوعه الإنسان من حيث هو كائن اجتماعي) لا قانونَ آلي ينتظمه ولا أحكامَ مطردة يخضع لها: فلكل حادث أسباب عدة قريبة وبعيدة، فيها المادي والمعنوي، والظاهر والخفي، وقد يبرز من بينها جميعاً - في بعض الأحيان - سبب يعللون به الحادث ويجعلونه (السبب المباشر).

وعلى هذا فأبعد الناس عن فقه التاريخ وفهم النفس البشرية: أولئك الذين يقسرون الحوادث على التفسير المادي فقط، كأن النفوس البشرية آلات صم لا تعقيد في تركيبها ولا التواء، ولا تتحرك ولا تتنفسس إلا بوحي الأسعار وقوائم التجار وأسهم الشركات وأطنان البترول ومناجم الحديد... فلا روحية ولا عواطف ولا حساب ما لكرامة هذه النفس العجيبة، فإن كان هذا تفكيراً فأنا أشهد أن الله لم يخلق فهماً أكثر (سطحية) وتعامياً منه.

www.alkottob.com

هذا ما أحببت أن يعرفه عني قارئ كتابي أول شيء، رأيت حقاً علي بيانه بوضوح لا خفاء به ولا لبس، قياماً بالأمانة العلمية. وللقارئ أن يوافق أو يخالف، وأنا - بعد - بشر أخطئ وأصيب، وما أنا بشيء أفرحَ مني بخطأ ينبهني إليه مخلص حصيف فأرجعَ عنه.

* * *

هذا الكتاب صور حية من صدر الإسلام، فيه أعنف نشاط سياسي شهدته الجماعة الإسلامية، أجلوه كما شاهدته من خلال الحوادث على طبيعته، في إخلاص وأمانة وإفراغ وسع، ومن غير تزويق.

وسينعم القارئ بلون آخر غير النشاط السياسي: هو هذا الأدب العزيز من نثر وشعر وأراجيز، زخرت بها تلك الحوادث الجسام التي اكتوى بها العالم الإسلامي يومئذ، فنفث المصدورون من أبطال القتال وفرسان البلاغة أدباً حياً خالداً ما خلدت النفس، تقرؤه فتشارك قائليه شدائدهم وأهوالهم، وتجد في نفسك الحسرة التي وجدوها، وتعاني الآلام التي عانوا، وتكاد كبدك تتفطر ألماً لما كابدوا... وإذا أنت أيضاً تنفس عن صدرك بدموع حرار تسكبها غزاراً وأنت مغلوب على أمرك. ولا عجب في ذلك فليس في هذا الأدب الكثير الذي يطالعك في أثناء الحوادث مغرز إبرة لتكلف أو تزويق، إنه فيض الروح ووحي الحسرة وعصارة النفس.

* * *

وأحب أن أنبه هنا إلى خطأ يوقع كثيراً من الباحثين في القصور، ذلك أنهم يكتفون في بحوثهم في التاريخ العربي بالمصادر التاريخية فحسب، فتجيء بحوثهم على ظلع ما تكاد تستقل واقفة. وكم من حقائق تاريخية خلت منها مصادر التاريخ وزخرت بها كتب الأدب ودواوين الشعر، ولا غنى لكل باحث في تاريخ العرب عن اطلاع مستفيض على المكتبة العربية، وإن ما استفدته أنا من كتب اللغة والفقه والحديث والتفسير والأدب والأخبار... لا يقل عما أصبته في مطولات التاريخ، لا في هذا الكتاب وحده، بل في جميع كتبي السابقة. وأعجب من ذلك أن كتابي (الإسلام والمرأة) وهو المدخل التاريخي لهذا الكتاب ولكل دراسة قيمة عن المرأة العربية، قد غرف من مصدرين اثنين أساسيين هما القرآن والحديث، أما المصادر التاريخية فقد كانت هناك مصادرَ ثانوية.

www.alkottob.com

ولا بدّ من الإشارة إلى أني جعلت أكثر اعتمادي - بعد البحث في المصادر التاريخية - على تاريخ الطبري خاصة، فهو أقرب المصادر من الواقع، وصاحبه أكثر المؤرخين تحرياً وأمانة، وعليه اعتمد كل من أتى بعده من الثقات، وليس (الكامل) لابن الأثير إلا تاريخ الطبري منسقاً مختصراً منه الأسانيد واختلاف الروايات، وحسبك أن ابن خلدون فيلسوف المؤرخين نقل عنه حوادث الجمل ثم أدلى بهذه الشهادة القيمة:

«هذا أمر الجمل ملخصاً من كتاب أبي جعفر الطبري، اعتمدناه للوثوق به ولسلامته من الأهواء الموجودة في كتب ابن قتيبة وغيره من المؤرخين[1]».

الحق أني - منذ نعومة أظفاري - أولعت بهذا المؤرخ الجليل، وحرصت هنا كل الحرص على عبارته ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، لما تقدم، ولشيء آخر هو أن نثر الطبري من النثر الراقي البليغ الذي لا تطيب النفس بالتفريط فيه، يقرؤه المتعلم مشروح الصدر ناعماً بما فيه من متعة لا توصف، وهو إذ ينقل لك الرواية ينقلها بأمانة وتحرج، مسندة إلى رواتها، وبذلك يكون قد برئ من عهدتها وتركك إلى فهمك وحصافتك تأخذ ما تأخذ وتدع ما تدع، لا يضمن لك في عمله إلا أمانة النقل والبرء من العهدة، ثم أنت ومواهبك.

قد يقرأ هذا الكتاب قراء من طوائف شتى وميول مختلفة، وكل الذي أرجو: أن يقرؤوه بنفوس طيبة سمحة زايلها التعصب. فالتعصب عدو العلم، عدو الحق، عدو الخير، عدو الحرية... عدو لكل الهبات العلوية التي أكرم الله فيها الناس. وليعتقد المرء ما شاء في هذه الحوادث وأبطالها فليس عليه في عقيدته من بأس، ولكن البأس كل البأس في أن يوقن أن ما يعتقده هو الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن كان كذلك فقد جعل بينه وبين الحقّ والعلم حجاباً صفيقاً وأغلق دونهما الأبواب، ثم رمى عليها بالأقفال.

والخير أن يجعل المرء عقيدته في هذه المسائل - بعد بذل الجهد بإخلاص - مذهباً شخصياً يحتمل الخطأ، ثم لا يأخذ نفسه إلا بشيئين: الإخلاص في البحث وما يقضي به العقل من حكم بعد بذل الجهدِ، والتجرد من كل عصبية.

هذا وقد يضيق أقوام - كما ضاقوا من قبل - بتشددي في رفض بعض روايات مشهورة استفاضت على ألسنة الناس وأقلام الكتاب والمؤرخين، تُزعم نسبتها إلى النبي صلى الله عليه

---

[1] تاريخ ابن خلدون ٤٣٣٥/٢ (مطلعة النهضة سنة ١٣٥٥ هـ).

www.alkottob.com

وسلم أو إلى أحد أصحابه، ذاهبين إلى أننا لا حق لنا في امتحان المتن بعد صحة السند. وأرى أن التشدد في هؤلاء الضائقين أنفسهم: إذ منذا الذي حظر ما حظروا؟ وهل من الأمانة أن يغمض باحث عينيه عن وهن أظهره الله عليه في خبر؟ ونحن نعلم وهم يعلمون أن أهل الأهواء لم يتورعوا عن نصرة أهوائهم بأحاديث ينسبونها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أو يتسامحون في روايتها - من حيث يشعرون أو لا يشعرون - إرضاء لهواهم السياسي أو المذهبي أو العصبي. والمحدثون أنفسهم لم ينقلوا عن ذي هوى - مهما كان جليل القدر - حديثاً ينصر هواه، هم أنفسهم لم ينكروا نقد المتن، بل هم الذين شرعوه وشرعوا له قواعد عامة؛ إلا أن العناية انصرفت إلى نقد السند لأنه أقرب إلى (الآلية) حتى ضاع في عباب هذا النقد ما لهم من نقد للمتن، وهم على كل حال - والشواهد حاضرة - لم يتنكروا للعقل إذا رفض رواية تضافرت الشبه على توهينها. ومَنْ أكْثَرَ النظر في تواليفهم عرف ذلك من شأنهم، غير أنهم لم يفتحوا الباب على مصراعيه حذراً من عيث أطفال وأدعياء الفهم والعلم وذوي الأهواء، وحسناً فعلوا، ولقد كانوا في ذلك على حق مبين.

* * *

وبعد، فسيواجه القارئ من فوره صميم الموضوع، ولن يجد أمامه من تمهيد غير سطور في (المرأة والسياسة) و (في منزلة السيدة عائشة). إذ التوطئة والمقدمة كلهما في كتابي (الإسلام والمرأة) الذي بادرت بطبعه سنة ١٩٤٥، ولا غنى للقارئ عن استيعابه قبل قراءة بحثنا الآتي. وسيساير القارئ الحوادث هنا مسايرة زمنية ليرى مولد تلك المشاركة السياسية القوية العنيفة للسيدة عائشة: متى بُذرت بذورها الأولى وكيف نمت وترعرعت ثم اشتدت وتفاقمت حتى جرفت الهدوء والاطمئنان من حياة المسلمين السياسية، وحتى ذهبت بحياة الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان وعصفت بخلافة الإمام علي؟

عرضت ذلك على نسق خاص فصلته على حاجة موضوعنا فنظرت إلى الحوادث من الجهة (العائشية) وعلى هذا سردها، وظاهر أن النظر إلى الحوادث من الناحية العامة يقتضي سرداً آخر يفصل ما أجمل هنا، ويجمل ما فصل، ويثبت ما حذف، ويحذف بعض ما أثبت، مستفيداً في عرضي هذا من أحسن المزايا في مناهج القدماء والمحدثين.

www.alkottob.com

ولم أشأ أن أختم الكتاب بوفاة السيدة، لأني وجدتها استأنفت - بعد وفاتها - عمراً جديداً في حياة المسلمين العامة، فتتبعت آثارها السياسية في المجتمع الإسلامي بعد ذلك وكيف (تبلّوت) في عقائد الفرق الإسلامية بعد أن أثارت جدلاً وخلّفت معسكرات يحتد فيها الخلاف من حول عائشة، ثم يهدأ ليحتد من جديد، ولن تزال السيدة في هذه الحياة الثانية ما بقي المجتمع الإسلامي.

أخرجت في طول صحبتي للسيدة رضي الله عنها، كتباً عدة[٢] على هامش دراستي لها، وقد يسر الله وأعان فاستأنفت تأليف هذا الكتاب الذي بين يديك بعد أن ضاع التأليف الأول في حادث فيضان سنة ١٩٤٣، وفي مأمولي أن أجد وقتاً أعيد فيه تأليفاً ضاع أيضاً في حياتها العلمية والأدبية وما إليها.

والله هو الموفق وله الشكر وبه المستعان.

دمشق رمضان ١٣٦٥ هـ

آب ١٩٤٦م

سعيد الأفغاني

تمهيد

المرأة والسياسة

الحكم في هذه القضية لسنة الله في المرأة، وما فطرها عليه من خصائص غريزية (فسيولوجية) وعاطفية وفكرية، خصائص قاهرة لا يد للإنسان في تحويرها إلا حين يستطيع تحويراً في تركيب الدماغ وبنية خلاياه، أو حين يبدل في وظائف الأعضاء فيذوق بأذنه أو يسمع بقدمه.

إنها فوارق بين الرجل والمرأة أزلية أبدية، اقتضتها الحكمة الكونية العميقة التي تعنى دائماً بالتمييز الدقيق، عناية تتطلبها عمارة هذه العوالم القائمة على تقسيم الأعمال وتيسير كل من الكائنات إلى ما يلائمه وما خلق له. وكل مجتمع يحاول بناته إلغاء تلك الفوارق الواضحة بين أعمال الجنسين فمصيره إلى الاضطراب والفساد: لأن في ذلك ثورة على الطبيعة، وما كان ثورة

---

(٢) سيأتي بيانها قبل الباب الأول.

www.alkottob.com

على الطبيعة فمنه الضرر كل الضرر، ولا يرجى له دوام، وإن خيل لبعض الأفراد والجماعات (سطحية في تفكيرهم أو تعصباً لمذهبهم) إمكان الاستمرار عليه.

والطبيعة في هذا حكمها واحد لا يختلف باختلاف الأمم ولا باختلاف الأعصار والأمصار، ولا بتفاوت المجتمعات رقياً وانحطاطاً ولا بتباين الأفراد تربية وثقافة.

المرأة نظام الأسرة وسيدة البيت، فمهما احتلْت لتخرجها عما خلقت له من رعاية أطفال وبر أزواج وتدبير مترل... فإنما تحاول خرقاً لقانون طبيعي، إن أنت وفقت إلى إطالة هذا الشذوذ أزماناً فلن يخرجه العهد الطويل ولا العرف المنحرف عن أن يكون شذوذاً يقذي العين ويصدم الفؤاد.

فمن البدهي إذن أن تكون قيادة الجيوش وإدارة المصالح العامة وتدبير الممالك وسياسة الناس... فنَّ الرجال الخاصّ كما أن الأمومة وما إليها فن نسوي محض. ولئن حفظ التاريخ شواهد عديدة في قيام المرأة بشؤون السياسة والإدارة، إني لا أجد في هذه الشواهد كلها ما يمس هذه القاعدة، بل أقرر أنها كلها تؤيدها، ولأي مثقف كان أن يسرد ما في حفظه من ملكات أو قائدات أو زعيمات أو مدبرات ملك أو نائبات في المجالس... الخ ثم يستقري أحوالهن واحدة واحدة، ويمعن فيما حفَّ بهن، فسيدرك أن أكثرهن كن مسيئات بتصرفهن، عدن على بلادهن بأسوأ العواقب.

الحق أن الإدارة والسياسة تقتضيان بعداً في التفكير، ومنطقاً سديداً، وحساباً دقيقاً للعواقب، وصبراً مضنياً، وضبطاً للعواطف، وكبحاً للأهواء والنزوات... إلى صفات كثيرة كلها يعوز المرأة، بل يعوز أكثر الرجال، فلا عجب أن كان اضطراب الأمور وتدخل المرأة في السياسة قرينين في التاريخ لا يفترقان إلا حين يدبر الأمور للمرأة وزراء حصيفون من وراء ستار؛ ومع هذا فقلما خلت امرأة – مهما حف بها من فحول محنكين – من طامع فيها مستغل لضعفها. وما أكثر ما حفظ التاريخ من سير عروش كان الغرام هو الحاكم في ممالكها.

وهناك كلمة متداولة منذ القديم، لا شك في أنها عصارة التجارب على الزمن، وهي قولهم، «المرأة ريحانة وليست بقهرمانة».

ويعجبني في ذلك حكم ظريف أصدرته الكونتس أوف أكسفورد، قالت:

www.alkottob.com

«هل تستطيع أن ترى امرأة صائرة إلى منصب رئيس وزارة؟ إني لن أستطيع أن أتصور نكبة أعظم من وضع هذه الجزر البريطانية تحت قيادة إحدى النساء في شارع دواننج رقم ١٠»[١].

ولنتصور نحن - على نسق الكونتس - أحوال المشتغلين بالسياسة في الشرق صحفيين وأحزاباً ووزراء ونواباً ومن يتبع هؤلاء من محترفين ومرتزقة...، وما ينشأ من تزاحمهم وتكالبهم على المنافع من خصومات وعداء وجدل ومهاترات وتراشق بالتهم والسباب ثم مظاهرات فيها اشتباك والتحام، ثم ما ينجم عن ذلك من قتلى وجرحى ومشوهين ومسجونين... لنتصور ذلك وما إليه، ولنتصور معه أن النساء يشاركن فيه الرجال بين محترفات وتابعات وداخلات في الأحزاب ومسهمات في المهاترات الصحفية وما إليها؛ وأن منهن أيضاً نائبات وموظفات،وأن كلاً منهن تهاجم وتدافع، وتتلقى التهم والشناعات وترمي غيرها بأمثالها... وقد خلت منهن بيوتهن وأصبح الرجال والأطفال (رحلاً مشردين) في المطاعم والمقاهي، إذ شغلت السياسة والانتخابات من كن يقمن بإدارة بيوتهن... ولنرجع بعد هذا التصور إلى نفوسنا: أنجد فيها تعبيراً يفي بشناعة مجتمع كهذا؟ حنانيك أيها القارئ أعف نفسك وأعفني من فظاعة هذا التصور، وإني لأستغفر الله لي ولك من خاطر يجعل مكان أولئك المحترفين بناتنا وأخواتنا وأزواجنا وأمهاتنا: انصرَفن عن رعاية أسرهن فأخذن مكان ذلك وهذا ممن نرى من خواض المهاترات والتكالب على فتات السياسات. إن مثل هذا المجتمع خال من كل كرامة وحياء، ولن يكون منه لحياة الدعة والحنان والنبل والإنسانية أثر ما، هذا مجتمع خسر طعم السعادة منذ انهار فيه بناء الأسر ذو الجو المحبب العطر الجميل الحنون.

لقد سارت أمم غربية راقية في أوروبة وأمريكة خطوات فسيحة في تحميل النساء أعباء سياسية، فما أظفرها ذلك بطائل، بل كانت نتيجة التجربة أن ضج عقلاؤهم ومصلحوهم من تلك الأوضاع الشاذة على الفطر السليمة[٢].

---

[١] من كتابها (في السجلات) انظر العدد ٥٦٥ من مجلة الرسالة ص ٣٦٩. هذا وأقرب عبرة منا ما وقع في فرنسة في هذه الحرب العالمية الثانية من دسّ المرأةِ أنفها في السياسة العليا وذهاب فرنسة ضحية هذا (التدخل) حتى قال أندره موروا الأديب الفرنسي الأشهر: «إن الكونتس (دي بورت)... ستذهب في التاريخ (على أنها) المرأة التي خربت فرنسة... والنساء اللواتي على غرارها أدوات هدم لأن أدمغتهن التي تحوك الدسائس وشخصياتهن التي توقع الرجال لا تعرف حداً للاتزان...

«وهكذا أصبحت الكونتس (دي بورت) من قواد الطابور الخامس الفرنسي وأصبح صالونها مركز القيادة». - ترجمة الصاوي لكتب (مأساة فرنسة) لأندره موروا ص ١٠٣، ١٠٥.

www.alkottob.com

وليس تاريخ العرب ببدع من تواريخ الأمم، فالحكم واحد كما أسلفنا؛؛ فحيث رأيت انحطاطا في إدارتنا أو تقهقرا في سياستنا أو انحلالا في مجتمعنا، ففتش ثمة عن المرأة.

وكتابنا هذا فيه أكبر عبرة انطوى عليها تاريخنا في هذا الموضوع، و لم ينجنا من العاقبة الوخيمة: عاقبة دس النساء أنوفهن في السياسة أن كانت الزعيمة هنا متحلية بمزايا عبقرية قل أن يحوي مثلها رجال عديدون، و لم ينجنا كذلك رغبتها القوية المخلصة في الإصلاح وابتغاء الخير للمسلمين.

والعرب يتداولون منذ فجر الإسلام حكمة الرسول عليه الصلاة والسلام: «لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة»[٣]، وذلك جد معقول، إذ أسندوا الأمور إلى ضعيف غير ذي اختصاص.

* * *

فإذا أنت جاوزت السياسة إلى الجهاد في الإسلام، رأيت المسألة تختلف بين يديك، إذ تجد أنه ليس لأحد أن يحرم المرأة شرف الجهاد، وأنها هي والرجل سواء في المطالبة به: كل بحسب

---

[٢] أحدث ما قرأت في هذا الباب شكوى الدكتور (ألكسيس كاريل) حائز جائزة نوبل الطبية. فقد نشرت له مجلة المختار من ريدرز دايجست (في العدد ٣٦ من الطبعة العربية) بحثا عنوانه (لبن الأم حق طبيعي للطفل) هذه الأحكام التي وردت في كلامه عرضا، وهي مع ذلك - لقوتها في نفسه - تصور خير تصوير انحراف المجتمع عن الفطرة، وتؤيد - من قرب- ما ذهبنا إليه، قال:

«... فالأم في هذا العصر ليس لها من تعليمها ولا عاداتها ما يهيئها للأمومة ومقتضياتها.... ويرى كثير من الأمهات أن عملهن ومستقبلهن وشهواتهن الاجتماعية أهم من رعاية أطفالهن، ولا يدركن أن المرأة إنما خلقت للأمومة.

والأم في العصر الحديث فريسة في مخالب البيئة الاقتصادية والبيئة العقلية، فقد ضرب المجتمع صفحا عن قوانين علم الحياة، وبخاصة قانون النسل. فالبنات قد حرمن معرفة العمل الذي خلقن له وجهلن قدره في حياة البشر، بل صرن يتعلمن ما يتعلمه الصبيان، وصرن بمنزلة الذكور: لهن ما لهم في الحياة، وعليهن ما عليهم، فصار على المرأة أن تعول نفسها كما يفعل الرجل. فكيف يتأتى لعاملة في مصنع أو مكتب، أو لمدرسة أو محامية أو طبيبة أو تاجرة أو امرأة باحثة عن ملاذ الحياة أن ترضع طفلها ثلاثة أشهر أو أربعة هي الحد الأدنى للرضاعة؟» ص ٧٢، ٧٣.

هذه حسرة الرجل على اشتغال النساء عاملات أو مدرسات أو محاميات أو طبيبات..... وبعض هذه المشاغل كالطب والتدريس ضرورة اجتماعية ظاهرة، فماذا يقول وكم تبلغ شكواه ومرارته إذا بالغ النساء في الابتعاد عن الفطرة فاشتغلن نائبات أو حزبيات أوسياسيات؟؟

[٣] مسند أبي داوود الطيالسي ص ١١٨ الحديث ٨٧٨ (الجزء الثالث) وانظر مسند أحمد ٥/٤٣،٤٧. وفي صحيح البخاري أن أبا بكرة كان يقول: «ما نجوت من فتنة وقعة الجمل إلا لما تذكرت من قول رسول الله لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» وسترى أي فتنة نجا منها أبو بكرة!

www.alkottob.com

استعداده واختصاصه، فالرجل للقتال، والمرأة لتمريض الجرحى، والعناية بشؤون الجيش من نحو: إسقاء وإطعام، وغسل وخياطة-. ثم هي مع ذلك كله تحمس المقاتلين وتبصرهم العواقب السيئة التي تنتظرهم وحرمهم إذا هم تهاونوا في الدفاع وتحمل مثلهم السلاح وتقاتل عند الحاجة.

وللمرأة العربية في هذا الميدان الموقف المحمود الذي لا يجارى، كانت فيه مضرب الأمثال بشجاعتها وحسن بلائها وإخلاصها.

وعلى هذا درجت من قبل أيضا في جاهليتها، فكان إليها في الحروب التمريض والعناية بالجرحى وسقي الماء وتحميس المحاربين[٤].

ثم جاء الإسلام ففتحت عينها - لما أظلتها رايته - «على رجال غير الرجال، ومجتمع غير المجتمع، ودين غير الدين، فكأنها نشطت من عقال، فشمرت عن ساعدها وأخذت من هذا الدين الجديد نصيبها الأوفى، وكان شكرها لله عليه شكرا عمليا:

قاست في أوله ما قاسى الرجال من عذاب وهجرة واضطهاد، وأذى، ثم انتظمت في صفوف المقاتلين إعلاء لكلمة الحق، وذودا عن دين الله وعن رسوله، فقاسمت الرجل شرف الجهاد، وآبت بثوابه وكرامته، وليس بعد بذل الروح غاية في الشكران»[٥].

صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء في مغازيه، وأبلين معه البلاء الحسن، فكن نعم المعينات للمحاربين. يداوين جرحاهم[٦]، ويحملن إليهم الماء في القرب يسقينهم، ويتعهدن أطعمتهم، وملابسهم وقربهم، وكن أحيانا يمارسن القتال:

في طبقات ابن سعد: «شهدت أم عمارة بنت كعب أحدا مع زوجها غزية بن عمرو وابنيها، وخرجت معهم بشن لها في أول النهار تريد أن تسقي الجرحى، فقاتلت يومئذ بلاء حسنا، وجرحت اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف».

وتتابعت المواقف المأثورة للمرأة من بعد الرسول، وحفظ التاريخ لنا أسماء بطلات من مجاهدات الصحابة: كنسيبة وصفية. ولن ينسى أحد جهاد خولة بنت الأزور أخت ضرار وحسن بلائها في الروم، ولا موقف الخنساء في يوم القادسية، وكانت واحدة من كثيرات.

---

[٤] انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص٢٠.

[٥] عن كتابنا السابق ص ٣٧.

[٦] أقام الرسول خيمة في مسجده لرفيدة إحدى ممرضات الجيش وحمل إلى خيمتها سعد بن معاذ وهو مرتث (مثخن بالجراحة).

www.alkottob.com

وقد «قتلت أم حكيم يوم (مرج الصفر) سبعة بعمود الفسطاط الذي بات فيه خالد بن سعيد بن العاص معرسا بها[٧]».

وذكر الطبري عن أم كثير امرأة همام بن الحارث النخعي قالت:

«شهدنا القادسية مع سعد (بن أبي وقاص) مع أزواجنا، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا، وأخذنا الهراوي ثم أتينا القتلى: فما كان من المسلمين سقيناه ورفعناه، وما كان من المشركين أجهزنا عليه، وتبعنا الصبيان نوليهم ذلك ونصرفهم فيه»[٨].

وإذ كانت هذه الوقعة من الخطر بحيث أنها هي الفاصلة بين العرب والفرس، وأنها لها ما بعدها، استعدت لها القبائل بكل ما تطيق، حتى إن التاريخ ليذكر لقبيلتين من القبائل فخرا خالدا إذ أخرجتا نساءهما معهما، فكان في قبيلة النخع - على ما يذكر الطبري- سبعمائة امرأة لا أزواج لهن، وفي قبيلة بجيلة ألف امرأة، تزوجن جميعا في هذه الحرب. وكانت النخع تسمى: أصهار المهاجرين.

لقد شرع الرسول الاستعانة بالنساء في الجهاد، وأثابهن عليه من الغنائم، ودرج خلفاؤه من بعده على سنته؛ حتى إذا انقضى عهد الراشدين، وخف علم الناشئين بالسنة، شكك بعضهم في هذه الاستعانة، فكتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله: «هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو بالنساء، وهل كان يضرب لهن سهما؟». فكتب إليه ابن عباس:

«كتبت إلي تسألني: هل كان رسول الله يغزو بالنساء؟ وقد كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحذين (يعطين) من الغنيمة»[٩].

كل ما تقدم من استحباب خروج النساء ليشاركن الرجال شرف الجهاد، هو في حال الفتح والهجوم حين يكون الجهاد فرض كفاية على الرجال أنفسهم، فأما إذا انعكس الأمر وهاجم العدو بلاد المسلمين أو احتلها، فيحئنذ يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ذكرا كان أو أنثى، لا يستثنى من هذا الفرض صبي ولا امرأة ولا رجل، نص الفقهاء في هذه الحال على أنه

---

(٧) طبقات ابن سعد. كانت وقعة مرج الصفر في المحرم سنة أربع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب.

(٨) تاريخ الطبري ٨٢/٣ (مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٨هـ) وإلى هذه الطبعة نشير فيما يستقبلك من نقول عن الطبري.

(٩) تيسير الوصول ٢٣٥/١.

www.alkottob.com

يجب على المرأة أن تخرج إلى القتال بلا إذن زوجها[١٠]، وبذلك يصبح التكليف والوجوب بدرجة واحدة على الرجال والنساء والصبيان والأحرار والعبيد لا يستأذن أحد أحدا في تأدية هذا الواجب[١]

* * *

من شأن السياسة المزالق الخفية الخطرة، فهي على المرأة حرام صيانة للمجتمع من التخبط وسوء المنقلب، أما الجهاد فطريق لاحبة مضمونة الخير. فللمرأة أن تأخذ من هذا الشرف نصيبها الأوفى.

---

[١٠] انظر في ذلك: باب السير أو الجهاد في كتب الفقه مثلا: شرح الزيلعي على متن الكتر ٢٤١/٣ والحكم مشهور، لأن الإسلام لا يقر احتلالا لأجنبي بحال من الأحوال، ولا يرضى لأهله حياة ذليلة.

[١] انظر في ذلك: باب السير أو الجهاد في كتب الفقه مثلا: شرح الزيلعي على متن الكتر ٢٤١/٣ والحكم مشهور، لأن الإسلام لا يقر احتلالا لأجنبي بحال من الأحوال، ولا يرضى لأهله حياة ذليلة.

www.alkottob.com

سطور في التعريف بعائشة

ولدت بعد المبعث، ونشأت في بيت أبيها أبي بكر الصديق أعلم العرب بتاريخ قريش وأنسالها وأيامها، ثم هاجرت إلى المدينة، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي صغيرة. فترعرعت في مهبط الوحي ومنبع العلم، تغرف منه ما شاء لها ذكاؤها وعبقريتها، وتأثرت بهدي الرسول فنشأت مجتهدة في دينها وعبادتها، وكان الرسول حفيا بها يعلمها، ويعنى بها، ويخرج بها في مغازيه، وكانت أخبر الناس بتاريخ الرسول والمسلمين، كما كانت أعلم بجاهلية العرب. فلم ينتقل الرسول إلى جوار ربه حتى خلفها مرجعا وحجة يلجأ إليها الكبار والصغار متعلمين مستفتين.

كان الناس يرون «علم عائشة قد بلغ ذروة الإحاطة والنضج في كل ما اتصل بالدين من قرآن وحديث وتفسير وفقه... ومع حمل الأصحاب إلى الأمصار طائفة صالحة من الأحاديث والأحكام حتى كانوا ثمة مرجع طلاب العلم ورواة الحديث، بقيت المدينة - لأسباب أهمها وجود السيدة نفسها فيها - دار الحديث ومنبع العلم. فحين يشكل على أهل الأمصار أمر من الأمور، يكتبون إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحجاز يسألونهم عن حكم الله فيه، فكان هؤلاء إذا فاتهم علم شيء رجعوا إلى علماء بينهم اشتهروا بحمل العلم وفقهه كعبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وابن عباس.... ومقام السيدة بينهم مقام الأستاذ من تلاميذه، فكان عمر بن الخطاب يحيل عليها كل ما تعلق بأحكام النساء أو بأحوال النبي البيتية، لا يضارعها في هذا الاختصاص أحد من النساء على الإطلاق.

ويصل إلى مسمع السيدة عائشة عن أولئك الصحابة العلماء روايات وأحكام على غير وجهها، فتصحح لهم ما أخطؤوا فيه أو تبين ما خفي عليهم، حتى اشتهر ذلك عنها، فصار من شك في رواية أتى عائشة سائلا، وإن كان بعيدا كتب إليها يسألها[(١)]. ومن هنا طار لها ذلك الصيت في التمكن من العلم، ورجع إلى قولها كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وابنه وأبي هريرة

(١) انظر مثلا من ذلك في : مسند أحمد ٩/٦.

www.alkottob.com

وابن عباس وابن الزبير. وقد نقل عنها وحدها ربع الشريعة على ما يقول الحاكم في مستدركه»[٢].

هذه ثقافتها في بيت الرسول، أما ما حملته من بيت أبيها الصديق فإحاطة واسعة بالأخبار والأشعار وأيام العرب وأنسابها ومفاخرها حتى كانت تروي القصيدة ستين بيتا[٣]

ورسخت لها هذه المترلة في العالم الإسلامي حينئذ، وانفردت بها دون غيرها من النساء والرجال، حتى شاع فيها هذه الشهادات ننقل لك منها ما في مصدر واحد فقط وهو سير النبلاء للذهبي:

١- عن أبي بردة عن أبيه قال:

«ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علما»[٣].

٢- قال الزهري: «لو جمع علم الناس كلهم وأمهات المؤمنين لكانت عائشة أوسعهم علما»[٤].

٣- قال مسروق: «والله لقد رأيت أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض»[٥].

٤- قال عروة بن الزبير لعائشة:

«ياأمتاه لا أعجب من فقهك أقول: زوجة نبي الله وابنة أبي بكر، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول: ابنة أبي بكر وكان أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب: من أين هو؟ وما هو؟» فضربت عائشة على منكبه وقالت:

«أي عريه؛ إن رسول الله كان يسقم عند آخر عمره، وكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها له، فمن ثم»[٦].

٥- وكان عروة يقول:

---

[٢] من قولنا في مقدمة (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) للزركشي. وهو كتاب خاص في نقدها العلمي لكبار الصحابة.

[٣] انظر سير النبلاء الجزء الخاص بعائشة ص ٨٥.

[٤] المصدر السابق ص ٧٢.

[٥] ص ١٠٠.

[٦] ص ٧٦.

[٧] ص ٧٧.

www.alkottob.com

«لقد صحبت عائشة فما رأيت أحدا قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا ولا بكذا.... ولا بقضاء، ولا طب منها»[٦].

٦- روى الشعبي أنها كانت تقول: «رويت للبيد نحوا من ألف بيت»[٧].

وكان الشعبي هذا يذكرها فيتعجب من فقهها وعلمها ثم يقول: «ما ظنكم بأدب النبوة!!».

هذا، ومن تخرج بهذا الأدب الغزير الزاخر لم يستغرب أن يكون أبلغ أهل عصره. وسترى من بلاغتها في هذا الكتاب ما لا تقضي منه عجبا، ولست بحاجة إلى شهادة فيها بعد أن ترى أن هذه البلاغة وحدها (مع منزلة صاحبتها) أثارت الجموع، وجعلت الناس يتسابقون لإهدار دمائهم فقضت على خلافة عثمان، وزلزلت خلافة علي فلم يسترح بها قط.

وحسبك شهادة اثنين: معاوية والأحنف بن قيس زعيم البصرة وسيد بلغائها:

٧- دخل عليها معاوية - وهو خليفة - في أواخر أيامه فكلمها، فلما قام اتكأ على يد مولاها ذكوان فقال:

«والله ما سمعت قط أبلغ من عائشة ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم»[٨].

٨- وقال الأحنف بن قيس سيد تميم وأحد بلغاء العرب: «سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم... فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة»[٩].

٩- ولقد جمع الله فيها من المزايا ما جعل الناس يقولون بحق: «كانت رجلة العرب»[١٠].

وسترى أن هذه المزايا والمواهب النادرة خلقت منها (المرأة أمير المؤمنين) على حد تعبير أحد الظرفاء، ومارست بالفعل هذه المهمة في الجماهير فاستجابت لها حتى لو كانت رجلا لكانت خليفة، وكان يقال:

---

(٦) ص ٧٧.

(٧) ص ٩٧.

(٨) ص ٧٨- هذا وذكر ابن عساكر في تاريخه الكبير: أن معاوية سأل زيادا يوما: أي الناس أبلغ؟» فقال له: «أنت يا أمير المؤمنين». فقال له: «أعزم عليك». فقال له: «حيث عزمت علي فأبلغ الناس عائشة». فقال معاوية: ما فتحت بابا قط تريد أن تغلقه إلا أغلقته، ولا أغلقت بابا تريد أن تفتحه إلا فتحته». تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١٧/٥ وانظر ٢٣/٧.

(٩) سير النبلاء الجزء الخاص بعائشة ص ٨٩.

(١٠) الإمتاع والمؤانسة ١٩٩/٣.

www.alkottob.com

«لو كان لأبيها (الصديق) ذكر مثلها لما خرج الأمر (يعني الخلافة) منه»[١١].

* * *

«كانت السيدة إلى هذا زعيمة الآخذين بناصر المرأة والمنافحين عنها بلا منازع، وإليها كانت تتطلع أبصار المستضعفات لما تم لها من المكانة الكبيرة في العلم والأدب والدين، حتى تقطعت دون مقامها الأعناق، إذ إنها أستاذة لمشيخة الصحابة الأجلاء في كثير من أمور العلم والدين. ولبث الخلفاء الراشدون يرعون منزلتها ويشاورونها ويسألونها المسائل ويرجعون إلى رأيها، وهي واقفة بالمرصاد للرعاة وكبار الرعية: تصحح لهم كلما رأت خطأ في حديث يحدثون به أو حكم يصدرونه.

وإلى السيدة عائشة يرجع الفضل الأكبر – بعد رسول الله– في إعظام الناس المرأة الإعظام اللائق، حتى ظهر كثير من اللائي طمحن إلى اقتفاء أثرها في الشجاعة الأدبية والجرأة»[١٢].

وهي – بحكم زوجيتها للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم – واحدة من أمهات المؤمنين اللائي أنزل الله في إعظامهن قرآنا «يتلى في محاريب المسلمين منذ أربعة عشر قرنا إلى قيام الساعة، يسمعه المؤمن فيمتلىء صدره إجلالا لمن شاركن الرسول في ضرائه وسرائه، وصبرن معه على شظف العيش وكلب الزمان، وتحملن معه صروف الأذى، وخففن عنه ما يجد من آلام في سبيل الدعوة إلى الله.

ظلت بيوتهن مهابط الوحي والرحمة والهدى مدى حياته عليه الصلاة والسلام. فلما انتقل إلى جوار ربه بقيت هذه البيوت مثابة للناس يقصدونها: متعلمين مستفتين أو ملتجئين مستغيثين، فكانت تهدي الحائر، وتعلم الجاهل، وتحمي الملتجئ، وتنجد المستغيث. ولبث الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم: الخلفاء فمن دونهم يخضعون لأزواج الرسول خضوع الأبرار لأمهاتهم.

لقد رفعهن الله إلى مقام تندق دونه الرقاب، وأحاطن برعاية وتقديس أذعن لهن من أجلهما كل مسلم، فكن بذلك طبقة متميزة لا يفضلها إلا الأنبياء. وكان من رحمة الله بهذه الأمة أن طال عمرهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقلن لأمته كثيرا من سنته، وخاصة فيما لا يطلع

---

(١١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ١٩٩/٣.

(١٢) انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٥٠-٥٢.

www.alkottob.com

عليه إلا النساء؛ فمن طريقهن عرف المسلمون أحوال النبي المترلية، وعنهن رووا كثيرا من السنة ولولاهن لضاع، وبقيت بيوتهن بمترلة مدارس مفتحة الأبواب للرجال والنساء على السواء»[١٤].

ومن فضل الله وحكمته أنه جعل من أزواج صاحب الرسالة من تعيد سيرته المطهرة الهادية خمسين سنة تنشر تفاصيلها للناس: كأن الوحي لم ينقطع، وكأنهم من أنواره في شمس لا يلم بها أفول، ولا تحجبها ظلمة.

ومن رجع إلى أمات كتب الحديث ودواوين السنة وخاصة المسانيد منها، فرأى ما روي عن أمهات المؤمنين، هالته كثرته. لقد كانت بيوتهن مدارس لنشر الفقه والحديث والتفسير والسيرة، وتهافت الرواة من كل جانب، وتنافسوا في الأخذ عنهن كل التنافس، فإذا كان ما روي عن عائشة وحدها ربع الشريعة، فما روي عن مجموعهن شيء عظيم جد غزير[١٥].

وقد عقد ابن قيم الجوزية فائدة في المفاضلة بين عائشة وفاطمة قال لها: «لا ريب أن عائشة أعلم وأنفع للأمة، وأدت إلى الأمة من العلم ما لم يؤد غيرها. واحتاج إليها خاص الأمة وعامتها»[١٦] ثم نقل بعد قليل حكم شيخه ابن تيمية في المفاضلة بينها وبين السيدة خديجة حين قال: «وتأثير عائشة في آخر الإسلام وحمل الدين وتبليغه إلى الأمة وإدراكها من العلم ما لم تشركها فيه خديجة ولا غيرها»[١٦].

فإذا أضفت إلى هذه المكانة علما منقطع النظير، وأدبا وبلاغة سحرت بهما كل من سمعها، ثم اجتهادا في العبادة: صياما وصلاة وقراءة وصدقات... حتى إنها لتسرد الصوم، وتتصدق بسبعين ألف درهم، وتنسى أن تحجز لنفسها من هذه الألوف السبعين درهما واحدا تشتري به لحما تفطر عليه[١٧].

---

[١٤] المصدر السابق ص ٦١، ٦٢.

[١٥] انظر (الإسلام والمرأة) ص ٦١ن ٦٢، ١٠١.

[١٦] بدائع الفوائد ١٦١/٣، ١٦٣.

[١٦] بدائع الفوائد ١٦١/٣، ١٦٣.

[١٧] انظر في ذلك أخبارا عدة في ترجمتها من سير النبلاء ص ٨٢ حتى حمل كثرة سخائها ابن الزبير على أن يحاول الحجر عليها. انظر ص ٧٨، ٩٩.

www.alkottob.com

وتصدقت مرة أخرى بسبعين ألفا وإنها لترفع جانب درعها(١٨)... إذا أضفت هذا إلى ذالك عرفت: لماذا ينظر التاريخ إلى السيدة عائشة في علمها ودينها على أنها أنضج ثمرة أخرجها الإسلام في عالم المرأة.

* * *

وبعد، فلم أرد من هذه الكلمات استيفاء مزايا السيدة(١٩)، فلذلك كتاب أرجو أن يوفق الله إلى عمله، وإنما أردت بهذه السطور تمهيدا ضئيلا يدخل منه القارئ إلى الموضوع من فوره، إذ لا مندوحة له عن أن يلم بمنزلة هذه التي نتحدث عن ناحيتها السياسية، فذلك أعون على فهم هذه الآثار البعيدة التي سيراها.

هذا وليس للسيدة أثر سياسي ما في عهد الرسول وخلافة صاحبيه أبي بكر وعمر، فكتابنا - على هذا - سيبدأ في عرض مآتي السيدة منذ عهد عثمان بن عفان. فإليك إياها مرحلة مرحلة(٢٠).

---

(١٨) المصدر السابق ص ٧١.

(١٩) نشرنا في ذلك مخطوطين فريدين: (الإجابة) و (سير النبلاء ٢)، فارجع إليهما لتفردهما بنوادر ليست في المصادر الكبيرة من الأمات.

(٢٠) قضيت في دراسة السيدة عائشة نحوا من عشر سنوات، وقد وفقت خلالها إلى إصدار كتب أوصي القارئ بالرجوع إليها، فإنها صدرت جميعا في سبيل أن تكون دراسة المرأة عامة في صدر الإسلام، وعائشة خاصة دراسة مستفيضة واضحة المعالم، شاملة عميقة:

١- (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة: للإمام الزركشي. صدر سنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩م)م عن مخطوط فريد في العالم هو مسودة المؤلف نفسها في ٢٢٧ صفحة مع مقدمة واسعة وتعاليق وفهارس وافية. وهذا الكتاب سجل خالد لمجد المرأة العلمي في الإسلام.

٢- (في المفاضلة بين الصحابة: للإمام ابن حزم الظاهري. صدر سنة ١٣٥٩ هـ - ١٩٤٠م) عن مخطوط في دار الكتب الظاهرية، وعن مطبوع ضمن كتاب الفصل. وهذه الرسالة تنتهي إلى تفضيل السيدتين عائشة وخديجة على جميع الصحابة بلا استثناء، بعد مناقشة سديدة واحتجاج صائب استخدم فيهما ابن حزم قواعد مذهبه الظاهري وما آتاه الله من حجة ومنطق هما مضرب الأمثال في الإحكام - أخرجت الرسالة مع دراسة وافية عن الإمام ابن حزم وتعاليق وفهارس شاملة في ٤١٩ صفحة.

٣- (سير النبلاء) (جزء ثان): لمؤرخ الإسلام الإمام الذهبي - طبع سنة ١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م في ٨٨ صفحة). وهو جزء خاص بترجمة فريدة للسيدة عائشة (أما الجزء الأول فخاص بترجمة ابن حزم نفسه، صدر سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١ م في أربعين صفحة مع دراسة عن الذهبي صاحب سير النبلاء)، صدرا عن نسخة وحيدة في العالم بخزانة صاحب الجلالة إمام اليمن السابق يحيى حميد الدين.

www.alkottob.com

٤- (الإسلام والمرأة) يبحث بابه الأول في المرأة العربية في نشأة الإسلام، ويدرس بابه الثاني الطبقة المختارة في الإسـلام، وهـي طبقة (أمهات المؤمنين) دراسة بكرا. وهذا الكتاب أريد به أن يكون أساسا ومدخلا لكل دراسة نسوية في الإسـلام. فـهو لكتابنا هذا والذي سيليه إن شاء الله مقدمة ومفتاح لا بد منهما. طبع سنة ١٣٣٦٤هـ - ١٩٤٥ م في ١١٢ صفحـة - أعادت نشرها جميعا دار الفكر في بيروت، أما كتاب (الإجابة) فقد نشره المكتب الإسلامي في بيروت وقد احتلـت هـذه الكتب الأربعة عن السيدة عائشة أمكنة ملحوظة في المكتبة العربية الإسلامية.

www.alkottob.com

الباب الأول

في عهد عثمان

تمهيد

لم يتح للسيدة عائشة أن يكون لها أدنى أثر على عهد الخليفتين العظيمين أبي بكر وعمر، فإنهما كانا من الكفاية وحسن القوامة على أمور الرعية: بحيث ساقا الفحول المحنكين أولي الدهاء من الرجال، فما بالك بالنساء. لقد كان شأنها - شأن أخواتها من أمهات المؤمنين - مقتصرا على الرواية والتحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان أبو بكر وعمر وغيرهما من كبار الصحابة، كثيرا ما يسألونهن في دقاق المسائل وجلائلها، وعلى هذا اقتصر عمل عائشة لهذا العهد. وكان في ذكاء السيدة رحمها الله وفي علمها ما جعلها مقدمة على أزواج النبي عامة: يعرفن ذلك من حقها، ويرجعن أمورهن إليها... وكان الناس حين يفزعون إلى أزواج النبي لا يبدؤون إلا بها.... فكان لها فيهن مكان الزعيم.

فلما كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، سارت السيدة في الشطر الأول من خلافته سيرتها على زمن صاحبيه، تفتي وتحدث وتنشر العلم, لكنه لم يكد لين عثمان يجرئ الناس عليه، و لم تكد القالة تفشو ناقمة عليه بعض تصرفاته وتنتشر الأمور عليه آخر خلافته... لم يكد يكون ذلك حتى انقلب الحال، فرأينا السيدة عائشة تقود (حركة المعارضة العنيفة)، ورأينا عثمان يتبرم بموقفها كل التبرم... و لم تزل السيدة توغل في (تدخلها) السياسي حتى أدى الأمر إلى أن يستغل موقفها أولو الكيد والفساد، وآلت الأحداث إلى ما لم تكن تحب السيدة نفسها، وحتى خرج من يدها في النهاية إلى أيدي الغوغاء وقادتهم الخطرين ... فكانت - فيما بعد - أشد الناس ندما وحسرة وألما على ما فعلت.

* * *

www.alkottob.com

نجد إذن للسيدة في هذا العهد سيرة جديدة مرتجلة لم يكن لها ما يشبهها في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، إنها تبرز الآن بغتة في ميدان السياسة وتمارس شؤونها وتملي على الخليفة رأيها في عزل الولاة ونصبهم، وتصب احتجاجاتها بعنف شديد على تصرفاته، ثم يؤول بها الأمر إلى أن تنتزع معارضة شديدة خطرة، تتقاذفها الأغراض والدسائس - من حيث لا تشعر السيدة ولا تريد - حتى تنجلي عن أشأم يوم عرفه تاريخ المسلمين: ذلك يوم الدار، يوم قتل الغوغاء الخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

هي وعثمان:

ولعل من الخير قبل أن نعرض للخلاف الذي نجم بين السيدة والخليفة، أن نحاول معرفة البذور الأولى لهذا الخلاف:

لقد بحثت عن علائقهما قبل تولي عثمان الخلافة، فلم أصل - مع كثرة التحري - إلى سبب أستطيع أن أعزو إليه تغير قلب السيدة عليه؛ بل كانت العلائق بينهما قبل هذا التاريخ تخضع لإجلال واحترام من السيدة لعثمان، تقتفي بذلك أثر الرسول الكريم في صحبة عثمان ورعايته والاعتراف بجميل إيثاره وبذله، منذ عانى الإسلام شدته الأولى.

ومع هذا فأنا أسوق هنا ما يفصح لك عن هذا الشعور النبيل منها: روايات لو بذل أكبر محب لعثمان ما عنده من جهد وقوة في سبيل الدعاية له ما استطاع أن يبلغ من الناس ما تبلغه إشاعة هذه الروايات بينهم. إنها تجلو مقدار حب الرسول لعثمان وتعظيمه له واستحيائه منه... ترويها أحب أمهات المؤمنين إلى الرسول وأقربهن من قلبه وأنفذهن كلمة في الجماهير.

١- جاء رجل إلى عائشة فقال لها: «إن أحد بنيك يقرئك السلام ويسأل عن عثمان بن عفان فإن الناس قد شتموه..» فقالت:

«لعن الله من لعنه، فوالله لقد كنت قاعدة عند نبي الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله مسند ظهره إلي وإن جبريل ليوحي إليه القرآن وإنه ليقول له: «اكتب يا عثيم»؛ فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريما على الله ورسوله[1]».

[1] مسند أحمد ٦/٢٥٠. وقد أعاد الإمام أحمد هذا الحديث بتفصيل أوفى في الجزء نفسه ص ٢٦١، وفيه تقول السيدة زيادة على ما تقدم: «... ولقد زوجه ابنتيه إحداهما على إثر الأخرى...» وانظر الورقة ٩٩ من مخطوطة دار الكتب الظاهرية لتاريخ ابن عساكر (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١).

www.alkottob.com

٢- عن سعيد بن العاص: أن عائشة وعثمان حدثاه:

أن أبا بكر استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضجع على فراشه لابس مرط عائشة، فأذن لأبي بكر وهو كذلك، فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فاستأذن عمر فأذن له على تلك الحال فقضى إليه حاجته ثم انصرف، ثم جاء عثمان فاستأذن عليه فجلس، وقال لعائشة: «اجمعي عليك ثيابك» وقضى إليه حاجته ثم انصرف. فقالت عائشة: «يا رسول الله مالي لم أرك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:«إن عثمان رجل حيي، وإني أخشى إن أذنت له على تلك الحال ألا يبلغ إلي في حاجته».

وفي رواية أنه قال لعائشة: «ألا استحي ممن تستحي منه الملائكة؟!»[٢].

٣- روت عائشة:

استأذن عثمان على النبي فأذن له، فدخل، فناجاه النبي طويلا ثم قال: «يا عثمان إن الله عز وجل مقمصك قميصا فإن أرادك المنافقون على أن تخلعه فلا تخلعه لهم ولا كرامة» يقولها مرتين أو ثلاثا[٣].

روت السيدة أن الرسول دعا عثمان، فلما جاء قال: «تنحي» وجعل يساره ولون عثمان يتغير... فلما كان يوم الدار (يوم حصار عثمان في ذي الحجة سنة ٣٥) وحصر فيها قالوا:

---

[٢] مسند أحمد (٦/١٥٥ وانظر مخطوطة الظاهرية السابقة لتاريخ ابن عساكر الورقة ٩٦، وأنساب الأشراف للبلاذري ٥/١٠-المرط: كساء صوف أو خز.

[٣] لقد كانت في رواية السيدة لهذا الحديث - وهي أعنف خصوم عثمان - طرافة وحرص من سامعيها، حتى إن النعمان بن بشير راوي هذا الحديث عنها لم يملك أن يخفي استغرابه، فسأل السيدة بعد أن حدثت هذا الحديث: «يا أم المؤمنين! فأين كان هذا عنك؟؟!» أي يوم خاصمت عثمان فقالت: «نسيته والله فما ذكرته». فأخبرت بهذا الحديث معاوية بن أبي سفيان، فلم يرض بالذي أخبرته حتى كتب إلى أم المؤمنين أن «اكتبي إلي به» فكتبت إليه به كتابا. مسند أحمد ٦/٧٥ وانظر ص ١٤٩ من الجزء نفسه، وأنساب الأشراف ٥/١١، هذا وفي مسند أحمد ٦/١١٤ صيغة ثالثة حدثت بها السيدة مرة ولا تخلو من زيادة فائدة: قالت عائشة: «ما استعمع على رسول الله ﷺ إلا مرة: فإن عثمان جاءه في نحر الظهيرة فظننت أنه جاءه في أمر النساء، فحملتني الغيرة على أن أصغيت إليه، فسمعته يقول: «إن الله ملبسك قميصا تريدك أمتي على خلعه فلا تخلعه»... فما رأيت عثمان يبذل لهم «للغوغاء وأهل الشغب) كل ما سألوه... إلا خلعه، علمت أنه من عهد رسول الله الذي عهد إليه». وانظر الورقة ١٤٩ من مخطوطة ابن عساكر السابقة.

www.alkottob.com

«يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟» قال: «لا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم عهد إلي عـــــهدا وإني صابر نفسي عليه»[٤]..

٤- أتى عثمان مترل عائشة فسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: «ذهب يبتغي لأهله قوتا، فإنه ما أوقد في أبياته نار منذ سبعة أيام». فقال: «رحمك الله، أفلا تعلميني إذا كان مثل هذا!» ورجع فبعث بطعام وشاة إلى كل بيت؛ فلما رجع رسول الله صلـــى الله عليه وسلم قال: «ما هذا يا عائشة؟» قالت: «بعث به عثمان» فقال: «ابعثـــي منـــه إلى النسوة»: فقالت: «ما منهن امرأة إلا أتاها مثل هذا». فرفع يديه وقال: «اللهم لا تنســها لعثمان»[٥].

٥،٦- ولم أجد - فيما اطلعت عليه - لعثمان مما يخص السيدة عائشة من قريب أو بعيـــد شيئا يخرج عن معنى ما تقدم، إلا أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم حين تـــوفي «أردن أن يرسلن عثمان إلى أبي بكر يسألنه ميراثهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت لهـــن عائشة: «أوليس قد قال رسول الله: لا نورث، ما تركناه فهو صدقة»[٦].

وإلا أن عثمان كان يحج بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم على عهد عمر:

فقد رغبت أمهات المؤمنين في الحج، فاستأذن عمر فأبى أن يأذن لهن حتى أكثرن عليه فقـــال: «سآذن لكن بعد العام، وليس هذا من رأيي» فلما أردن الحج جهزهن وأرسل معهن عثمـــان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر من خلفهم ولا يسايرهن أحد، وقال: «فإذا نزلن فأنزلوهن شعبا ثم كونا على باب الشعب لا يدخلن عليـــهن أحد». ثم أمرهما إذا طفن بالبيت: ألا يطوف معهن أحد إلا النساء». فلما هلك عمر غلبـــن من بعده. ولو أن غيرهن طلب هذا الطلب ما لان عمر، ولكنه - رحمه الله - كان شـــديد التعظيم لقدرهن كبير الرعاية لحرمتهن.

---

(٤) مصادر الحاشية السابقة.

(٥) أنساب الأشراف ٥/٨.

(٦) مسند أحمد ٢٦٢/٦ والإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٥٧ رواية عن البخاري ومسلم.

www.alkottob.com

وسار على سيرة عمر فيهن، الخليفة بعده عثمان بن عفان، فقد «حج بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يصنع عمر، فكان عبد الرحمن ابن عوف في موضعه، وجعل في موضع نفسه سعيد بن زيد: هذا في مؤخر القطار وهذا في مقدمه»[٧].

[٧] عن كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٩٨ وانظر أيضا الرياض النضرة ٢٣/٢ والطبري ٤٢٧/٣ والقطار عدد من الإبل على نسق واحد.

www.alkottob.com

الفصل الأول

كيف ساءت العلاقات بينهما بعد الخلافة

أنت ترى إذن أن السيدة تنطوي على إجلال واحترام عميقين لعثمان على عهد الرسول والخليفتين من بعده، فلما وسدت الخلافة إلى عثمان دب دبيب الخلاف بينهما. وذلك أنه كان لتصرف عثمان مع بعض أجلاء الصحابة تصرفا غير رفيق من جهة، ولأخطاء عماله في شؤون إدارية من جهة أخرى، كان لكل ذلك أثر في حمل السيدة على الإنكار العنيف. و لم يلطف من هذا الإنكار ما كان يظهره عثمان في مناسبات شتى من إكرام لها وإجلال، حتى لقد كان يغضي أحيانا عما يخل بالواجب نحو عمله وعما يوهن سلطانه رعاية لها:

كان محمد بن أبي بكر (أخو عائشة) قد امتلأ قلبه غيظا من عثمان، فصار يشغب عليه وعلى عامله بمصر شغبا كثيرا، ويقال: إنه أتى ذنبا يوجب الحد، فأقام عليه عثمان الحد، فعظم الأمر عليه لما له من الشرف بأبيه أبي بكر[(1)] وسولت له نفسه الوقيعة في عثمان وسلطانه حتى ضاق به عامل مصر عبد الله بن أبي سرح فكتب إلى عثمان:

«إن محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة قد أنغلا علي المغرب وأفسداه».

فكتب إليه عثمان: «أما محمد بن أبي بكر فإني أدعه لأبي بكر الصديق وعائشة أم المؤمنين، وأما محمد بن أبي حذيفة فإنه ابني وابن أخي وأنا ربيته وهو فرخ قريش»[(2)].

أقول: وعلى رغم ما يكن عثمان ويظهر من احترام السيدة ورعايتها سارت الأمور سيرها المكروه بينهما، وكان كل أمر يسلم إلى أشد منه... حتى إن كلا منهما أرسل لسانه في الآخر على ملأ الناس. وأنا أسوق إليك مواقف عائشة في أمور بأعيانها أنكرتها على عثمان:

لعل أول ما غير قلب السيدة - من حيث لا تشعر - نقص عثمان من عطائها:

كان عمر بن الخطاب قد فضل عائشة على أخواتها أمهات المؤمنين في العطاء، لمكانها من رسول الله، ولما تؤدي من خير في نشر سنته أكثر منهن، ففرض لأمهات المؤمنين ستة آلاف،

---

(1) انظر منهاج السنة لابن تيمية ٢/٢٠٠.

(2) أنساب الأشراف ٥/٥٠- طلب محمد بن أبي حذيفة من عثمان عملا يتولاه، فلم يره عثمان أهلا لعمل، فاعتذر له، فاستأذن في الخروج يكسب لنفسه، فأذن له، فخرج مغاضبا لعثمان يؤلب عليه.

www.alkottob.com

وفرض لعائشة في اثني عشر ألفا[٣]، فلما ولي عثمان «نقصها مما كان يعطيها عمر بن الخطاب، وصيرها أسوة غيرها من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم... فإن عثمان ليخطب إذ دلت عائشة قميص رسول الله ونادت: «يا معشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته!!» فقال عثمان: «رب اصرف عني كيهن إن كيدهن عظيم[٣]» وظاهر أن عثمان لم يفعل إلا ما رآه – في اجتهاده الخاص – واجبا فلا لوم عليه.

ثم كانت السيدة تتأثر بعنف كلما بلغها عن عثمان خطأ يمس الصالح العام من قريب أو بعيد، فنصبت نفسها المحامي العام (ضد) الخليفة، والذائد عن كل من يناله من عثمان أقل أذى. وهي إذ تجادل عن أولئك المظلومين لا تجادل جدال المحامي اللبق الذي يحمل الناس بحكمته ورفقه على التسليم له، بل جدال المتحدي (العصبي) الحنق الذي يهيجه مس النسيم فيثور صاخبا على رؤوس الأشهاد:

١- يأتي وفد مصر يشكو عاملها عبد الله بن أبي سرح، فيكتب له عثمان كتابا يتهدده وينهاه، فيأبى ابن أبي سرح أن ينتهي، ويضرب رجلا من الوفد فيقتله، فيخرج من مصر سبع مئة رجل إلى المدينة فيتزلون المسجد يشكون إلى أصحاب رسول الله في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح فيكلمون عثمان بشدة، وترسل إليه السيدة عائشة قائلة:
«قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل، فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلا فأنصفهم من عاملك»[٤].

٢- كان مما أخذ الناس على عثمان عزله من ولاية الكوفة القائد المغوار صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرين بالجنة، وتوليته مكانة الوليد بن عقبة (أخا عثمان من الرضاعة) رجلا مستهترا، فكان من جراء تصرفات العامل الجديد: أن يأتي عثمان وفد من أهل الكوفة يطلبون عزل عاملهم، ويشهدون عليه بإتيان منكر يوجب الحد، فلا يقنع بشهادتهم ويظن بهم التزوير ويتوعدهم، فيأتي الشهود ملتجئين مستجيرين، فيخبرونها بما

---

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٧٥/٢.

(٣) تاريخ اليعقوبي ١٧٥/٢.

(٤) العقد الفريد ٨٠/٣ (المطبعة الأزهرية طبعة سنة ١٩٢٨).

www.alkottob.com

جرى بينهم وبين عثمان وأنه زجرهم وهددهم، فتنادي عائشة: «إن عثمان عطل الحدود وتوعد الشهود»[٥].

ويزيد البلاذري على ذلك رواية بعضهم: «أن عائشة أغلظت لعثمان وأغلظ لها وقال «وما أنت وهذا؟ إنما أمرت أن تقري في بيتك» فقال قوم مثل قوله، وقال آخرون: «ومن أولى بذلك منها؟» فاضطربوا بالنعال، وكان ذلك أول قتال بين المسلمين بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- ويطيب لي أن أثبت هنا رواية صاحب الأغاني ففيها تفاصيل تفصح عن غضب عثمان وتهديده، وأن السيدة - بعدما تقدم - أعادت القول في الموضوع نفسه، واستطاعت إهاجة عثمان حتى أخرجته عن حلمه. قال أبو الفرج الأصفهاني:

خرج رهط من أهل الكوفة في أمر الوليد (بن عقبة) فقال عثمان: «أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل؟ لئن أصبحت لأنكلن بكم». فاستجاروا بعائشة، وأصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتا وكلاما فيه بعض الغلظة فقال: «أما يجد مراق أهل العراق وفساقهم ملجأ إلا بيت عائشة؟!!» فسمعت، فرفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت: «تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل» فتسامع الناس، فجاؤوا حتى ملؤوا المسجد، فمن قائل: «أحسنت» ومن قائل: «ما للنساء ولهذا؟» حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال. ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له: «اتق الله ولا تعطل الحد، واعزل أخاك عنهم» فعزله عنهم[٦].

وهكذا أجارت السيدة أخيرا الشهود من انتقام الخليفة، وأثمر احتجاجها وإنكارها فعزل العامل المشتكى منه على كره من عثمان.

ومهما يكن فإن مما لا ينبغي أن ينسى أن كلمة عثمان «أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل» تؤرخ روح الشغب التي سيطرت في الأمصار. ومن اطلع على حركة الجماهير حينئذ وما يبثه أهل الدسائس من شر وفساد، عرف أن تصوير عثمان هذا حق كل الحق.

---

[٥] تاريخ اليعقوبي ٢/٢٠٣.

[٦] الأغاني ٤/١٧٨ (طلع الساسي).

www.alkottob.com

٤- عزل عثمان الوليد بن عقبة بسعيد بن العاص فاشتد على أهل الكوفة وكان أن أمر بضرب هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وتحريق داره، فشكوه إلى عثمان فأمر بالاقتصاص منه يضرب كما ضرب هاشما وتحرق داره بالمدينة كما حرق دار هاشم بالكوفة، فأشعل عمر بن سعد بن أبي وقاص ابن عم هاشم النار في دار سعيد، فأرسلت إليه عائشة أمرا خلاف أمر عثمان: بأن يكف، فكف(٧). وهذا تصرف مقبول رفيق ولو كانت معارضتها عثمان على هذا الأسلوب لكانت نعمت المعارضة، فقد سخرت جاهها في خير مجمع عليه، وكان عثمان أول الناس اغتباطا بها، لكن الأمر لم يبق على هذا الرفق.

٥- وينهض عثمان في أمر جليل النفع والخير بعد مشاورة الصحابة الأجلاء في جمع القرآن ويتم الله على يديه ما يتم، ويملي عليه الحزم والنظر البعيد أن يجمع المصاحف المختلفة في البلدان، فيحرقها جميعا بعد أن قابل بعضها ببعض على مجمع من القراء وفقهاء الصحابة، ويأخذ الناس جميعا بمصحف واحد، وكل هذا مما يحمد عليه أكبر الحمد، فقد أحكم الأمر وسدد الخطة وكان الصواب حليفه في كل خطواته.

كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قد أبى أن يبعث بمصحفه إلى المدينة، وأبى تسلميه عبد الله بن عامر حسب أمر الخليفة، فغضب عثمان وأمر بإشخاص ابن مسعود إليه. وإلى هنا عثمان على حق في جميع مآتيه، فليس لأحد - مهما جل - أن يشذ عن أمر عام دخل فيه المسلمون، وكان معقد الخير لهم عامة، ولكن عثمان تعتريه حجة تخرج به عن طوره:

فقد وافى ابن مسعود المدينة ودخل مسجدها وعثمان يخطب، فيزعم المؤرخون أنه حين أبصر ابن مسعود داخلا قال: «ألا إنه قد قدمت عليكم دويبة سوء»(٨)..

ويزيد البلاذري في روايته هذه الكلمة: «من يمشي على طعامه يقيء ويسلح»(٩). فيرد ابن مسعود: «لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم بيعة الرضوان» حينئذ لا تملك السيدة عائشة نفسها وهي غضبى لهذا الاستقبال السيئ يستقبل به عثمان على مسمع منها ومن الناس الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود، فتنادى من حجرتها:

---

(٧) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٣٥/٦.

(٨) تاريخ اليعقوبي ١٩٧/٢.

(٩) أنساب الأشراف ٤٨/٥ والمصدر السابق.

www.alkottob.com

«أي عثمان، أتقول هذا لصاحب رسول الله؟!» ويأمر عثمان بابن مسعود فيجر برجله حتى يكسر له ضلعان وتتكلم عائشة وتقول قولا كثيرا.

ولعل السيدة باستنكارها هذه المعاملة السيئة قد عبرت عن شعور كل المشاهدين في المسجد، ولقد مال عثمان في مؤاخذة ابن مسعود إلى عنف واحتقار لا يستحقهما، وعتب بلين فيه كل الغناء لمثل ابن مسعود.

٦- ثم وقع شر من هذا في شأن صحابي جليل آخر هو عمار بن ياسر:
كان عمار قد أنكر على عثمان حين حلى نساءه من بعض ما في بيت المال (ولعل ذلك كان على سبيل العارية ولكن الناس ألفوا طراز عمر في الحكم)،، فدعا عمارا فشتمه وضربه حتى غشي عليه – على ما يقول البلاذري – ثم أمر به فأخرج «فأتى منزل أم سلمة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصل الظهر والعصر والمغرب... فإذا أم سلمة قد غضبت لعمار، وبلغ عائشة ما صنع بعمار فغضبت وأخرجت شعرا من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثوبا من ثيابه، ونعلا من نعاله ثم قالت: «ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم وهذا شعره وثوبه ونعله لم تبل بعد!» فغضب عثمان غضبا شديدا حتى ما درى ما يقول، فالتج المسجد (اختلطت أصوات أهله) وقال الناس: «سبحان الله سبحان الله» وكان عمرو بن العاص بين الناس فجعل يكثر التعجب والتسبيح[١٠].

٧- تكررت مواقف عائشة هذه من عثمان، وأرغمته على تغيير عماله... حتى تأذى منها كثيرا، وحتى كان يخرج في بعض الأحايين عما ينبغي له من وقار واعتدال، وعما يليق به من حلم واحتمال، قال صاحب البدء والتاريخ:

«كان أشد الناس على عثمان طلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر وعائشة. وخذله المهاجرون والأنصار، وتكلمت عائشة في أمره، وأطلعت شعرة من شعرات رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعله، وثيابه، وقالت.. «ما أسرع ما نسيتم سنة نبيكم...» فقال عثمان في آل أبي قحافة (أسرة عائشة) ما قال، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول[١١] اهـ.

---

[١٠] الصفحة نفسها من أنساب الأشراف. وكان عمرو بن العاص غاضبا على عثمان أنه عزله من ولاية مصر، وكان يقول: «أليت على عثمان حتى الراعي في غنمه».

[١١] البدء والتاريخ ٥/٢٠٥.

www.alkottob.com

هذا ما كان من آثارها، ودع لنفسك أن تقدر ما يبلغ مثل ذلك من نفوس الناس وهم حينئذ أولو الحمية للإسلام وأقرب عهدا بالرسول وصاحبيه... كم يبلغ من نفوسهم الوجد على عثمان حين فرط حتى بلغ السيل الزبى ... حتى تغير عليه امرأة، ثم لا تكون تلك المرأة إلا أم المؤمنين عائشة أحب أزواج النبي إليه وأجلهن في أعين الناس. ترفع عليه في المسجد صوتها، وتبرز للمسلمين نعل الرسول مرة، وشعرة مرة، وثوبه مرة تنصبه – على زعم إحدى الروايات – في حجرتها وتقول للداخلين عليها: «هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته».

إن الأثر الذي أثرته السيدة في نفوس الناس لجد بليغ. ولست أغلو إذا قلت: إن هذا التغير في النفوس يكمن، ثم هو لا يزداد على الأيام إلا شدة ثم لا يزال يتعاظم وهو في خفائه حتى ينفس عن نفسه، والويل منه حينئذ. وهذا يفسر لنا بجلاء سبب تقاعس أهل المدينة – إلا نفرا قليلا – عن نصرة عثمان حين حزبه الأمر وتأزمت الأحوال، واغتاله الشاغبون من أهل الأمصار.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

احتجاج عثمان وتتابع الحوادث

عرفت شيئا مما نقم الناس على عثمان مما مرده إلى شكوى من عامل أو تأديب قاس لصحابي جليل تأديبا آره الناس في غير محله. وهناك أمور أهم من هذه مردها - كما اعتقدوا - إلى إحداث في الدين، أو تهاون بمصالح المسلمين، أو تبذير لأموالهم، وقد بلغت عثمان، ودافع عن نفسه فيها دفاع. وأرى واجبا علي قبل أن أورد لك احتجاج عثمان أن أنبهك إلى أن الذين روجوا هذه المعايب لم يكونوا يقصدون الإصلاح، فلم تكن ثورتهم على هذه المعايب، وإنما كانت على خلافة عثمان، ولولا أن تظن بي مبالغة أو غلوا لقلت :إنها ثورة على الإسلام نفسه. فأدعك الآن، فعن قريب تتبين لك الأمور.

لم تكن غايتهم الإصلاح وإنما الإفساد، يظهر ذلك لكل من أنعم النظر في مآتي هؤلاء الثائرين من الأمصار، ولن يعدم المدقق أن يلمس خبث طواياهم من بين السطور، أستغفر الله، بل من السطور نفسها.

لما توافى أهل الشغب إلى المدينة (وعلى رأسهم السبئيون) مظهرين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أرسل عثمان إليهم رجلين من غير بني أمية: مخزوميا وزهريا، ليعلما علم القوم على جليته، فلما اجتمعا بهم لم يشكوا في أنهما ناقمان على عثمان، لأنهما نالهما منه تأديب وعقوبة. فاطمأنوا إليهما وكاشفوهما جلية الأمر كما دبروه وهم لا يشكون في أنهما داخلان في أمرهم. أما الرجلان فقد أخلصا النصيحة لإمامهما وصبرا على الحق و لم يضطغنا على عثمان عقوبته.

فقال الرجلان: «من معكم على هذا الأمر (أي الثورة) من أهل المدينة؟»

قالوا: ثلاثة نفر

قالا: هل إلا؟

قالوا: لا

قالا: «فكيف تريدون أن تصنعوا؟»

www.alkottob.com

قالوا (تأمل): نريد أن نذكر لعثمان أشياء قد زرعناها في قلوب الناس، ثم نرجع إليهم فــترعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها و لم يتب، ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم، فنحيط به فنخلعـــه، فإن أبى قتلناه».

والغريب أن الأمر تم بعد سنة على ما رسموا، و لم ينفع عثمان علمه بالخطة إذ لم يأبه لها فيأخذ لها عدتها، فانظر إلى اللاعبين بالجماهير: إنهم يلعبون بأداة لا عقل لها ولا امتناع بها.

رجع الرجلان إلى عثمان بالخبر على حقيقته، فضحك (!!) وقال: «اللهم سلم هؤلاء فإنك إن لم تسلمهم شقوا)».

وظن عثمان أن ما بالقوم خطأ من الخطأ، يعالج ببيان الصواب والنصح، فأرسل إلى جمــــوع الكوفيين والبصريين من المعارضين ليوافوه بالمسجد، وأرسل من ينادي في الناس «الصلاة جامعة» فأقبل الناس، وتبادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. جلس أهل الأمصار حول المنـــبر وحولهم الصحابة الكرام، ثم صعد عثمان المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وأخبرهم خبر القوم، وقـــام الرجلان (فشهدا)، فأشاروا على عثمان بقتلهم فإنهم دعاة فتنة وشقاق، فرفض عثمان وقال: «بل نعفو ونقبل، ونبصرهم بجهدنا، ولا نحاد أحدا حتى يركب حدا أو يبدي كفرا» ثم طفق عثمـــان يذكر القضايا التي نقموها عليه ويردها واحدة واحدة، قال:

«إن هؤلاء ذكروا أمورا قد علموا منها مثل الذي علمتم، إلا أنهم زعموا أنهـــم يذكرونيـــها ليوجبوها علي عند من لا يعلم:

١- قالوا: (أتم الصلاة في السفر وكانت لا تتم).

إلا إني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت لهذين الأمرين[1]، أو كذلك هو؟

---

[1] كذلك هي في تاريخ الطبري (طبعة ليدن سنة ١٨٧٩م، وطبعتي مصر (طبعة الحسينية، وطبعة الاستقامة ســنة ١٣٥٨هـــــ). وليس لإشارة التثنية هنا مرجع إذ لم يذكر إلا أمرا واحدا. و لم نجد لهذه الخطبة نسخة ثانية في كل مصادر التاريخ المطبوعـــة، لكننا بالرجوع إلى مخطوطة ابن عساكر في دار الكتب الظاهرية (رقم ٣٣٧٥ تاريخ ١٠ ج ١١ الورقة ١٩/١٥٧)، وجدنـــا نص الخطبة في ترجمة عثمان، كما هي في الطبري، إلا أننا وجدنا في أخباره شرحا لهذين الأمرين: أما الأمر الأول وهو الـــذي أشير إليه في هذه الخطبة فقد أوضحه عثمان نفسه حين أنكر عليه الناس فقال: «يا أيها الناس إني تأهلت بمكة منـــذ قدمـــت وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من تأهل في بلد فليصل صلاة المقيم) أي أربع ركعات، انظـــر الورقـــة ١/١٤١.

www.alkottob.com

قال المستمعون: «اللهم نعم».

٢- وقالوا: (حميت حمى) وإني والله ما حميت (إلا ما)[٢] حمي قبلي، والله ما حموا شيئا لأحد، ما حموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعيه أحدا، واقتصروا لصدقات المسلمين يحموها[٣] لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع، ثم ما منعوا ولا نحوا[٤] منها أحدا إلا من ساق درهما[٥]، وما لي من بعير غير راحلتين، وما لي ثاغية ولا راغية[٦]. وإني قد وليت وأنا أكثر العرب بعيرا وشاء، فما لي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي، أكذلك هو؟

وأما الأمر الثاني فيوضحه خبر قبل هذا مؤداه أن قوما من الأعراب كثروا بمنى وظنوا أن الصلاة للمقيم ركعتان، فخشي عثمان أن يرجعوا إلى مياههم وبواديهم وهم على هذا الفهم الخاطئ: يصلون الرباعية ثنائية، فصلاها بهم أربعا «ليعلمهم أن الصلاة أربع» انظر الورقة نفسها ١٤١/١.

وفي كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان) وهو نسخة مصورة أصله بدار الكتاب المصرية بملك السادة (عبيد إخوان) ما يفيد أنه أتم الصلاة من أجل حجاج اليمن خشية أن يظنوا الصلاة ركعتين دائما – انظر ص ٢٧ منه.

وكانت هذه الخطبة – بطبيعة الأمر – بعد إنكار الناس عليه إتمامه الصلاة ورده هذا الإنكار ببيان السببين المذكورين، بزمن طويل، إذ إنه جمع في خطبته كل ما سبق أن أنكر عليه، فكان الأمران معهودين عند السامعين، وإن لم ترد إشارة إلى ثانيهما في خطبته.

على أن الجملة في مخطوطة ابن عساكر هذه خالية من (هذين الأمرين) ففيها: (فأتممت لهذا الأمر). وهو أوجه. وفي نسخة (التمهيد والبيان) : «فأتمت لهذا من الأمر».

ومؤلف (التمهيد والبيان) هو القاضي محمد بن يحيى الأشعري المالقي من ذرية أبي موسى الأشعري الصحابي الجليل من أجلاء قضاة غرناطة وخطبائها، وأعفهم وأعزفهم إلا عن علم نافع أو عمل صالح، «إلى أن فقد رحمه الله في مصاف المسلمين يوم المناجزة الكبرى بظاهر (طريف) شهيدا... ضحى الاثنين السابع من جمادى الأولى عام ٧٤١ هـ – ص ١٤١- ١٤٧ من تاريخ قضاة الأندلس للنباهي (طبعة دار الكاتب المصري في القاهرة سنة ١٩٤٨م) وانظر بروكلمان.

(٢) زيادة عن مخطوطة ابن عساكر، وقد خلت من الزيادة الضرورية جميع طبعات تاريخ الطبري.

(٣) في كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان): «مويها» وهو أوضح. والمويه:: تصغير ماء.

(٤) في مخطوطة ابن عساكر: «ولا نحن» وكذا في كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣، وهي أحسن.

(٥) كذا في طبعات تاريخ الطبري جميعا وليس لها معنى. وقد راجعت في سبيل الاهتداء إلى أصلها كل ما لدي من مصادر التاريخ والأخبار فلم أظفر بشيء. وفي دار الكتب الظاهرية مخطوطتان لتاريخ ابن عساكر: أما النسخة الأصلية التي أشرنا إليها آنفا ففيها: «إلا من شاودهما، وأما النسخة الثانية (رقم ١٠٥ تاريخ ج ٦) ففيها (ساودهما)، فإذا افترضنا أن التحريف عن (ساروهما) بمعنى واثبهما أو (ساورها) أو (ساودها) وصلنا إلى احتمال غير بعيد. أما أنا فلست بمطمئن، ورحم الله من انكشف له فدل عليها.

والذي في كتاب التمهيد والبيان ص ٩٣ (إلا من ساق دهما) فإن كان المعنى أنهم لا يردون عن الماء صاحب الشاة والشاتين ولا البعير والبعيرين، وإنما يردون صاحب العدد الكثير لقلة الماء، كان ما في (التمهيد والبيان) أبعث على الاطمئنان. فالدهم صفة للسود من الشاة والإبل والخيل، والأمر يحتاج إلى تأييد نص آخر.

www.alkottob.com

قالوا: «اللهم نعم».

٣- قالوا: (كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحدا[٧] ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد، وإنما أنا في ذلك تابع لهؤلاء؛ أكذلك هو؟

قالوا: «اللهم نعم».

٤- وقالوا: (إني قد رددت الحكم[٨] وقد سيره رسول الله صلى الله عله وسلم) والحكم مكي سيره رسول الله من مكة إلى الطائف، ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول الله سيره ورسول الله رده، أكذلك هو؟

قالوا: «اللهم نعم».

٥- وقالوا: (استعملت الأحداث): و لم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا؛ وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه[٩]، وهؤلاء أهل بلده[٩]. ولقد ولى من قبلي أحدث منهم، وقيل في ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لي في استعماله أسامة؛ أكذلك هو؟

قالوا: «اللهم نعم، يعيبون للناس ما لا يفسرون».

---

(٦) الثاغية: الشاة: والراغية: البعير.

(٧) إشارة إلى جمعه المصاحف لما بلغه اختلاف أهل الأمصار في قراءة بعض الكلمات، وأخذه الناس جميعا بمصحف واحد هو ما أجمع على صحته قراء الصحابة ومشيخة قريش. وكذلك هذا من أجل الأعمال النافعة لعثمان رضي الله عنه.

(٨) الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي، والد مروان بن الحكم وعم عثمان بن عفان:

أسلم يوم الفتح وسكن المدينة ثم كانت منه إساءات وأذى للرسول صلى الله عليه وسلم فنفاه من المدينة، ولما ولي أبو بكر كلمه جماعة في رده إلى المدينة فامتنع قائلا: ما كنت لحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم».

ولما أعاده عثمان إلى المدينة كثرت القالة عليه، فاعتذر عثمان بقوله: «قد كنت شفعت فيه فدعوني النبي صلالى الله عليه وسلم برده».

فلعل هذا ما قصد إليه عثمان بقوله (فرسول الله سيره ورسول الله رده) وإلا فلم أجد في مصدر: أن رسول الله رده في حياته ولا الخليفتان من بعده:

مات الحكم في خلافة عثمان سنة (٢٣هـ)، فضرب على قبره فسطاط في يوم ضائف، فتكلم الناس في ذلك منتقدين، فاحتج عثمان بقوله: «قد ضرب في عهد عمر على زينب بنت جحش فسطاط؛ فهل رأيتم عائبا عاب ذلك؟!» - انظر ترجمة الحكم في هذه المصادر: الإصابة أسد الغابة، طبقات ابن سعد.

(٩) يريد بـ (فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده): سلوا أهل البصرة عن عبد الله بن عامر. وليس في الكلام مرجع لهذين الضميرين ولكنهما معهودان عند الخطيب وسامعيه.

(٩) يريد بـ (فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده): سلوا أهل البصرة عن عبد الله بن عامر. وليس في الكلام مرجع لهذين الضميرين ولكنهما معهودان عند الخطيب وسامعيه.

www.alkottob.com

٦- وقالوا: (إني أعطيت ابن أبي سرح ما أفاء الله عليه): وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس فكان مئة ألف، وقد أنفل مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم، وليس ذلك لهم؛ أكذلك هو؟

قالوا: اللهم نعم.

٧- وقالوا: (إني أحب أهل بيتي وأعطيهم): فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور، بل أحمل الحقوق عليهم. وأما إعطاؤهم فإني أعطيهم من مالي ولا أستحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس، ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وأنا يومئذ شحيح حريص؛ أفحين أتيت على أسنان أهل بيتي وفني عمري وودعت الذي لي في أهلي: قال الملحدون ما قالوا؟!

وإني والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله، ولقد رددته عليهم وما قدم علي إلا الأخماس. ولا يحل لي منها شيء فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني، ولا تبلغت[10] من مال بفلس فما فوقه. وما أتبلغ منه؛ ما آكل إلا من مالي.

٨- وقالوا: (أعطيت الأرض رجالا): وإن هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت، فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله، ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له، فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب، فنقلت إليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني»[11] هـ.

لقد أثر هذا الخطاب المقنع أثره في نفوس السامعين إلا أهل الشغب من الأمصار فإنهم لم تكن إثارتهم هذه الأمور لوجه الله والإصلاح، إنهم أثاروها مكيدة وفتنة وتوصلا إلى أمر أضمروه، فإن لم تثمر ثمرها أثاروا غيرها.. فإن الفتنة هي هدفهم الأوحد.

أما غيرهم فقد اطمأنوا إلى حجج عثمان، وهي جميعها سديدة صائبة، وهو فيها جميعا محق مصيب. وأراد الناس عثمان على قتل هؤلاء المفسدين حسما للداء بعد أن تبين غشهم ودخلهم، وأبى عثمان إلا أن يعاملهم بالحسنى، فلان لهم وتركهم.

---

(١٠) في تاريخ الطبري ٣/٣٨٥ (مطبعة الاستقامة): (ولا يتفلت)، ولا معنى لها، والتصحيح عن مخطوطة ابن عساكر.

(١١) عقب الطبري على هذه الخطبة بقوله: (وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية، وجعل ولده كبعض من يعطي، فبدأ ببني أبي العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف، وأعطى بني عثمان مثل ذلك، وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب) ٣/٣٨٥ وانظر أخبار عثمان بن عفان في مخطوطة ابن عساكر السابقة.

www.alkottob.com

فائتمروا فيما بينهم أن يرجعوا هذا العام ليعودوا من قابل - على ما تقدم لك من خطتهم - فيحكموا أمر خلعه أو قتله.

* * *

وبعد فليس سرد الحوادث التي تتابعت منذ نقم الناس على عثمان ما نقموا إلى أن قتل، من منهج كتابنا. لقد اختططنا لأنفسنا أن نجلو الأحداث كما يراها الرائي من ناحية السيدة عائشة وما حولها، لا عامة مصغرة كما يراها الرائي من عل، فذلك بكتاب تاريخ عام أشبه. إلا أنه لا مندوحة لنا عن عرض سريع موجز للحوادث عامة، ثم نأخذ بالتفاصيل اللازمة من جهة السيدة عائشة. لقد قلبت مطولات التاريخ ثم اخترت عرضا أعجبني جدا لإمام دين ثقة، قريب العهد من الحوادث نفسها، ناقد بصير بموارد الأمور ومصادرها، ذلك هو سعيد بن المسيب يعرضها على الصورة التي قنع بصحتها واطمأن إليها على أسلوبه الذي ارتضاه، لقد آثرت عرضه على كل ما لدي - وما أكثره - فلنستمع إليه[١٢]:

«قال ابن شهاب الزهري»:

قلت لسعيد بن المسيب: «هل أنت مخبري: كيف قتل عثمان؟ وما كان شأن الناس وشأنه؟ و لم خذله أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟»

فقال: «قتل عثمان مظلوما، ومن قتله كان ظالما، ومن خذله كان معذورا».

قالت: «وكيف ذاك».

قال: «إن عثمان لما ولي كره ولايته أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن عثمان كان يحب قومه، فولي اثنتي عشرة سنة، وكان كثيرا ما يولي بني أمية ممن لم يكن له من رسول الله صلى الله عليه وسلم صحبة، وكان يجيء من امرأته ما يكره أصحاب محمد، فكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم.

فلما كان في الحجج الآخرة، استأثر بني عمه، فخرجوا، فولاهم وأمرهم بتقوى الله. وولى عبد الله بن أبي سرح مصر، فمكث عليها سنين، فجاء أهل مصر يشكونه ويتظلمون منه، ومن قبل ذلك كانت من عثمان هنات إلى عبد الله ابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر، فكانت هذيل وبنو زهرة في قلوبهم ما فيها لابن مسعود، وكانت بنو غفار وأحلافها ومن

---

[١٢] عن العقد الفريد. وبعض الحوادث التي يشير إليها هنا مسلسلة بإيجاز، مر بك تفصيلها آنفا.

www.alkottob.com

غضب لأبي ذر في قلوبها ما فيها، وكانت بنو مخزوم قد حنقت على عثمان بحال عمار بن ياسر.

وجاء أهل مصر يشكون من ابن أبي السرح، فكتب عثمان إليه كتابا يتهدده، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما نهاه عثمان عنه، وضرب رجلا ممن أتى عثمان فقلته. فخرج من أهل مصر سبع مئة رجل إلى المدينة فتزلوا المسجد وشكوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح، فقام طلحة بن عبيد الله فكلم عثمان بكلام شديد وأرسلت إليه عائشة:

«قد تقدمت إليك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت أن تعزله، فهذا قد قتل منهم رجلا، فأنصفهم من عاملك».

ودخل عليه علي وكان متكلم القوم فقال:

«إنما سألوك رجلا مكان رجل، وقد ادعوا قبله دما، فاعزله عنهم واقض بينهم وبينه فإنه قد وجب عليه حق فأنصفهم منه».

فقال عثمان لهم: «اختاروا رجلا أوله عليكم مكانه». فأشار الناس عليه بمحمد بن أبي بكر، فكتب عهده وولاه، وأخرج معه عدة من المهاجرين والأنصار ينظرون بين أهل مصر وابن أبي سرح. فخرج محمد ومن معه...

فلما كانوا على مسير ثلاثة أيام من المدينة إذ هم بغلام أسود على بعير يخبط الأرض خبطا كأنه رجل يطلب أو يطلب، فقال أصحاب محمد: «ما قصتك وما شأنك كأنك هارب أو طالب؟» فقال: «أنا غلام أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر». فقالوا: «هذا عامل مصر معنا». قال: «ليس هذا أريد».

وأخبر بأمره محمد بن أبي بكر فبعث في طلبه فأتي به، فقال له: «غلام من أنت؟» فأقبل مرة يقول: «غلام أمير المؤمنين» ومرة: «غلام مروان» حتى عرفه رجل منهم أنه لعثمان. فقال له محمد «إلى من أرسلت؟» قال: «إلى عامل مصر».. قال «بماذا؟» قال: «برسالة» قال: «معك كتاب؟» قال: «لا» ففتشوه فلم يوجد معه شيء إلا الإداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل، فحركوه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح، فجمع محمد من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فك الكتاب بمحضر منهم فإذا فيه:

www.alkottob.com

«إذا جاء محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم وأبطل كتابهم وقر على عملك حتى يأتيك رأيي، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأيي إن شاء الله».

فلما قرؤوا الكتاب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه ودفعوا الكتاب إلى رجل منهم، وقدموا المدينة فجمعوا عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم فكوا الكتاب بمحضر منهم وأخبروهم بقصة الغلام، وأقرؤوهم الكتاب، فلم يبق أحد في المدينة إلا حنق على عثمان، وازداد منهم من كان غاضبا لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر غضبا وحنقا، وقام أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فلحقوا بمنازلهم: ما منهم أحد إلا وهو مغتم بما قرؤوا في الكتاب.

وحاصر الناس عثمان، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر تيم وغيرهم، وأعانه طلحة بن عبيد الله على ذلك، وكانت عائشة تقرضه (تذمه) كثيرا.

فلما رأى ذلك علي بعث إلى طلحة والزبير وسعد وعمار ونفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم بدري، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، وقال له علي: «هذا الغلام غلامك؟» قال: «نعم» قال: «والبعير بعيرك؟» قال: «نعم» قال: «والخاتم خاتمك؟» قال: «نعم» قال: «فأنت كتبت الكتاب؟» قال: «لا» وحلف بالله: «ما كتبت الكتاب ولا أمرت به ولا وجهت الغلام إلى مصر قط».

أما الخط فعرفوا أنه خط مروان، وشكوا في أمر عثمان، وسألوه أن يدفع إليهم مروان فأبى، (وكان مروان عنده في الدار) فخرج أصحاب محمد غضابا وشكوا في أمر عثمان وعلموا أنه لا يحلف باطلا؛ إلا أن قوما قالوا:

«لا نبرئ عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان حتى نمتحنه ونعرف أمر هذا الكتاب، وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق؟ فإن يك عثمان كتبه عزلناه، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره» ولزموا بيوتهم وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه القتل.

www.alkottob.com

وحاصر الناس عثمان[١٣] ومنعوه الماء، فأشرف عليهم فقال: «أفيكم علي؟» قالوا: «لا» قال: «أفيكم سعد؟» قالوا: «لا» فسكت... ثم قال: ألا أحد يبلغ عليا فيسقينا ماء؟» فبلغ ذلك عليا فبعث إليه ثلاث قرب مملوءة ماء، فما كادت تصل إليه، وجرح من سببها عدد من موالي بين هاشم وبني أمية حتى وصل إليه الماء.

فبلغ عليا عثمان يراد قتله فقال: «إنما أردنا منه مروان، فأما قتل عثمان فلا». وقال للحسن والحسين: «اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحدا يصل إليه بمكروه. وبعث الزبير ولده، وبعث طلحة ولده على كره منه، وبعث عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناس أن يدخلوا على عثمان، وسألوه إخراج مروان... ورمى الناس عثمان بالسهام حتى خضب الحسن بن علي بالدماء على بابه، وأصاب مروان سهم في الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشج قنبر مولى علي... وخشي محمد بن أبي بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها، فأخذ بيدي رجلين فقال لهما: «إذا جاء بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين، كشف الناس عن عثمان وبطل ما نريد، ولكن مروا بنا حتى نتسور عليه الدار فنقلته من غير أن يعلم أحد».

فتسور محمد بن أبي بكر وصاحباه من دار من الأنصار ويقال من دار محمد بن حزم الأنصاري، فدلخوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة والمصحف في حجره، و لم يعلم بتسورهم أحد ممن كان معه لأنهم كانوا على البيوت، فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته فقال له عثمان: «أرسل لحيتي يابن أخي، فلو رآك أبوك لساءه مكانك» فتراخت يده من لحيته وغمز الرجلين فوجآه بمشاقص (نضال و سهام عليها نصال) معهما حتى قتلاه، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا، وخرجت امرأته تقول: «إن أمير المؤمنين قد قتل...».

فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبوحا، فأكبوا عليه يبكون. وبلغ عليا وطلحة والزبير وسعدا ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولا فاسترجعوا، وقال علي لابنيه: «كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟» ورفع يده فلطم الحسين وضرب صدر الحسن وشتم محمد بن طلحة ولعن عبد الله

---

[١٣] «ممن حاصر دار عثمان بنو زهرة لأجل حليفهم عبد الله بن مسعود وهذيل قومه، وبنو مخزوم ثأرا لحليفهم عمار، وغفار وأحلافها لأجل أبي ذر، وتيم بن مرة كانوا مع محمد بن أبي بكر...».

www.alkottob.com

بن الزبير... ثم خرج علي وهو غضبان يرى أن طلحة قد أعان عليه؛ فلقيه طلحة فقال: «مالك ياأبا الحسن ضربت الحسن والحسين....» فقال: «عليك وعليهما لعنة الله، يقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بدري و لم تقم بينة ولا حجة؟؟» فقال طلحة: «لو دفع مروان لم يقتل».

وخرج علي فأتى منزله وجاءه القوم يهرعون إليه: أصحاب محمد وغيرهم، يقولون: «أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» فقال علي: «ليس ذلك إلا لأهل بدر؛ فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة». فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتى عليا... فقالوا: «ما نرى أحدا أولى بها منك فمد يدك نبايعك»[١٤].. الخ.

---

[١٤] العقد الفريد ٣/٧٩-٨٢ (المطبعة الأزهرية - ١٩٢٨) وفيه: أن عليا لما دخل سأل امرأة عثمان: «من قتل عثمان؟» قالت: «لا أدري، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما وكان معهما محمد بن أبي بكر» وأخبرته بما صنع محمد، فدعا علي محمد بن أبي بكر فسأله عما ذكرت امرأة عثمان، فقال: «لم تكذب، وقد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله فذكر لي أبي فقمت وأنا تائب، والله ما قتلته ولا أمسكته» فقالت امرأة عثمان: «صدق ولكنه أدخلهما».

ويذكر الطبري أن الذين أرادوا قتله كان يدخل عليه الواحد بعد الواحد فيهم بقتله فتدركه خشية فيرجع «حتى ثار قتيرة وسودان بن حمران السكونيان والغافقي، فضربه الغافقي بحديدة معه وضرب المصحف (وكان عثمان فزع إليه يقرأ فيه) برجله، فاستدار المصحف فاستقر بين يديه، وسالت عليه الدماء، وجاء سودان ليضربه فأكبت عليه (زوجته) نائلة بنت الفرافضة، واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها، فأطن أصابع يدها وولت، فغمز أوراكها وقال: «إنها لكبيرة العجيزة» وضرب عثمان فقتله... وأرادوا حز رأسه فوقعت عليه نائلة ونساؤه وبناته فمنعهم وأقبل الأشقياء فانتهبوا ما في الدار وأخذوا ما وجدوا حتى تناولوا ما على النساء، وأخذ كلثوم بن تجيب ملاءة نائلة.... وهموا بجره من رجله لولا أن صاحت نساؤه وبناته، وكان ذلك في الثامن عشر من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين للهجرة. الطبري ٣/٤٢١-٤٢٣.

وإذا عرفت - إلى ذلك- أن القوم ارتكبوا منه بعد قتله مناكر أبشع مما تقدم، لم تستغرب ما سيمر بك من إخلاص المهاجرين والأنصار في الاستماتة يوم الجمل تأرا لعثمان، فقد قتلوه قتلة تفطر لها كل قلب،، ثم لم يكتفوا حتى عدا أحدهم وهو عمير بن ضابئ عليه ميتا وهو موضوع على باب فكسر ضلعا من أضلاعه، ثم منعوا دفنه في مقابر المسلمين، وأمر بعضهم بدفنه في مقابر اليهود، وكاد يتم ذلك لولا غضب قريش وخوف المعتدين، ثم دفن ليلا: خرج به أهله سراعا و لم يغسل و لم يصل عليه إلا أفراد قلائل ومع هذا وقف له ناس منهم فرموا الجنازة بالحجارة.

لقد بقيت كل نفس - بعد هذه الوحشية - مفجوعة ملتاعة على عثمان، فلم يكد المنادي - فيما بعد - ينادي بالثأر له حتى هبت الألوف تتقرب إلى الله يبذل دمائها للاقتصاص من أولئك القساة الذين ملؤوا الأرض فتنة وبلاء؛ أبق هذا في ذهنك فسترى فيه تفسيرا لكثير من وقائع الجمل فيما يأتي.

هذا وقد قتل غلمان ثلاثة من قاتليه الداخلين عليه: سودان بن حمران وقتيرة وكلثوم بن تجيب، ثم أصاب القتل كل من دخل على عثمان يوم الدار قتلوا في فتنة الجمل وما بعدها. وكان آخر من قتل منهم كميل بن زياد وعمير بن ضابئ قتلا بعد سبع وثلاثين سنة.

www.alkottob.com

ذكر ابن عساكر أن الحجاج بعد أن تغلب على ابن الزبير ولي الكوفة، فدخلها وخطب أهلها ثم نزل يأخذ البيعة من القبائل قبيلة قبيلة..... «حتى جاءت قبيلة النخع، فقال لهم: «منكم كميل بن زياد؟» قالوا: «نعم» قال: «فما فعل؟» قالوا: «أيها الأمير، شيخ كبير» قال: «لا بيعة لكم عندي ولا تقربوني حتى تأتوني به». فأتوا به منعوشا في سرير حتى وضعوه إلى جانب المنبر فقال: «ألا إنه لم يبق ممن دخل على عثمان الدار غير هذا» فدعا بنطع فضرب عنقه.

وأما عمير بن ضابئ فقد أتى الحجاج بعد خطبته التي دعاهم فيها إلى الخروج إلى قتال العدو،، يستعفيه وهو يرتعش كبرا فقال: «أيها الأمير إني من الضعف على ما ترى، ولي ابن هو أقوى على الأسفار مني، أفتقبله مني بديلا؟» فقال الحجاج: «نفعل أيها الشيخ» فذهب، فأخبر الحجاج بحقيقته - ولم يكن يعرفه - فرده وقال له: «أيها الشيخ، هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان بديلا يوم الدار؟ إن قتلك أيها الشيخ صلاح للمسلمين، يا حرسي اضرب عنقه» تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤/٥٣،٥٥.

ونقمة عمير هذا على عثمان أن عثمان أدب أباه صائبا البرجمي لقذفه المحصنات وهجوه الخليفة ومحاولته الفتك به - انظر الكامل للمبرد ١/ ٢٢٨.

www.alkottob.com

الفصل الثالث

في أبطال الفتنة الحقيقيين ونصيب عائشة منها

نعود بك إلى بعض ما سبق بالتفصيل والشرح والجلاء، لعلاقته ببيان ما يخص عائشة على التحقيق، مبينين لك ما استطعنا كشفه من سر خفي، كما ظهر لنا وأدانا إليه اجتهادنا الخاص وفقهنا للحوادث، بعد أن بذلنا جهدنا في الإمعان فيها ورد أعجازها على صدورها:

تنادى أهل الشغب والفساد من الأمصار الثلاثة الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة كأنهم حجاج، ودارت بينهم مكاتبات وأحكمت خطط لأمر فظيع قد بيته رؤساؤهم من أهل الدس والكيد للإسلام، وانتشر الأمر على عثمان وبطانته، وخرج من أيدي العقلاء، ولقد ذكر المؤرخون قدماء ومحدثين أسبابا كثيرة أطمعت الناس في عثمان، مرد أكثرها إلى لينه وحسن ظنه. وليس من خطة كتابنا هذا تفصيل الأمر لخروجه عن غرضه؛ وإنما الواجب بيان نصيب السيدة في توهين أمر عثمان. ولقد قدمنا بين يديك تفاصيل كافية في هذا الشأن، ولعلك - مثلنا - ترجع أكثرها إلى إخلاص في السيدة عائشة للصالح العام؛ لكنه إخلاص شابه اندفاع لم يكبح بما تقتضيه الحكمة وبعد النظر، بل خضع كل الخضوع لمزاجها العصبي العنيف، ولحوافز نفسية من حيث لا تشعر السيدة إلا أنها مدفوعة بقوة لا تقاوم إلى الإنكار.

لكن هذا كله لا يصل بنا إلى درجة التصديق بكل ما تقدمه لنا المصادر من أخبار، بل يحفزنا إلى التنبيه على سوء الغرض والتشيع الحزبي في كثير من هذه الأخبار، فإن فن الوضاعين يدور على خلق حوادث تشبه أساسا مشهورا بين الناس، فيبالغون ويزيدون ويبنون من الحبة قبابا كثيرة.

أقول هذا بين يدي شاهد أقدمه من هذه الشواهد الموضوعة التي تجد كثيرا منها في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:

مر بك آنفا أن عائشة أخرجت ثوب رسول الله وقالت: «هذا ثوب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته» وقع هذا مرة أو مرتين، إلا أن ابن أبي الحديد أو الذين روى عنهم يأبون إلا أن يجعلوا هذا دأب عائشة وهجيراها تستقبل به كل داخل عليها، قال:

www.alkottob.com

«أخرجت ثوبا من ثياب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصبته في منزلها وكانت تقول للداخلين عليها: «هذا ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبل وقد أبلى عثمان سنته»[1].

إن هذا التحوير ضئيل، ولكن المعنى الذي صار يؤديه واسع فظيع، وحسبك في دحضه أن هذا المصدر نفسه يروي عن علي بن أبي طالب خصم السيدة القوي القديم توزيع التبعة في أمر عثمان – وعلي صادق غير متهم على أحد – فلا يزيد على قوله: «.... وكان من عائشة فيه فلتة غضب....[2]» وهذا هو الموافق منطق الحوادث. فأين منه الرواية السابقة التي تجعل الحفيظة مسيطرة على عائشة ما تنفك عنها لحظة. إن من أعجب العجب اعتماد مؤلف روايتين؛ بينهما ما ترى من تفاوت.

وذكر هذا المصدر نفسه أنها أول من لقبت عثمان (نعثلا) ونعثل رجل يهودي طويل اللحية شبهوا عثمان به لطول لحيته، وأنها كانت تقول: «اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا»[3] ويزيد ابن أبي الحديد مسترسلا: أنها لما بلغها قتله قالت: «بعدا لنعثل وسحقا، أبعده الله، ذلك بما قدمت يداه[4]».

وهذه كلها لا أصل لها، يقطع ببعدها كل من أعمل الروية والدراية في نقد الأخبار ومقابلة بعضها ببعض، استفاضت هي وأمثالها في المصادر الشيعية وتسرب بعضها بطريقة العدوى إلى غيرها من المصادر، فالبلاذري مثلا يروي أن عبد الله بن عباس مر بعائشة وقد ولاه الموسم (موسم الحج بمكة) وهي بمنزل من منازل طريقها، فقالت عائشة: «يا بن عباس إن الله قد آتاك عقلا وفهما وبيانا فإياك أن ترد الناس عن هذا الطاغية»[5] وهذا دليل على أن الرواة منذ القديم يروجون ما ينصر هواهم من أخبار.

الحق أن العدوان على عثمان لم يخطر قط بخلد أحد من أهل المدينة أو غيرها إلا الموتورين وإلا نفرا من رؤوس المؤامرة من أهل الأمصار ممن دخلوا الإسلام دسيسة و لم يألوه كيدا وفسادا.

* * *

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢/٧٦.

(٢) المصدر السابق ٣/٢٩٠.

(٣) المصدر نفسه ٢/٧٦.

(٤) المصدر نفسه ٢/٧٦.

(٥) أنساب الأشراف ٥/٧٥.

www.alkottob.com

اشتد الأمر على عثمان وحوصر ومنع الماء، فاستنجد بعلي وطلحة والزبير وعائشة، وأمـهات المؤمنين، «فكان أولهم إنجادا له علي وأم حبيبة بنت أبي سفيان: جاءت على بغلة لهـا برحالـة مشتملة على إداوة فقيل: «أم المؤمنين أم حبيبة» فضربوا بوجه بغلتها فقالت: «إن وصايا بني أمية إلى الرجل فأحببت أن ألقاه فأسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل». قالوا: «كاذبـة» وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندت بأم حبيبة فتلقاها الناس وقد مالت رحلتها، فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل فذهبوا بها إلى بيتها.

وتجهزت عائشة خارجة إلى الحج هاربة، واستتبعت أخاها محمد بن أبي بكر فأبى ... وهـي ممتلئة غيظا على أهل مصر. وجاءها مروان بن الحكم فقال: «يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجـدر أن يراقبوا هذا الرجل» فقالت: «أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعـني؟ لا والله، ولا أعير، ولا أدري: إلا م يسلم أمر هؤلاء»(٦).

ويزيد البلاذري أن عثمان هو الذي أمر مروان وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد فأتياها وهـي تريد الحج فقالا لها: «لو أقمت فلعل الله يدفع بك عن هذا الرجل». وأنها أجابتهما «قد أوجبـت الحج على نفسي ووالله لا أفعل». ثم بدرت من مروان بادرة – على رواية البلاذري – إذ تمثل:

وحـرق قيـس علـي البـلا د، حـتى إذا اضطرمـت أحجمـا

فسمعته عائشة فغضبت، فأخرجهما الغضب إلى أن تقول مجيبة:

«يامروان، وددت والله أنه في غرارة من غراري هذه وأني طوقـت حملـه حـتى ألقيـه في البحر»(٧).

ونحن مع اعتقادنا – إن صحت الرواية – أن عائشة لا تعبر هنا عما في نفسها نحو عثمـان، لا نمنع أن تقول هذا الكلام إغاظة لمروان وحرصا على مساءته على سوء أدبه، وقد يخرج الغيـظ والحنق من النفوس أشد من هذا.

توجهت السيدة على الحج، وكان ما قدمت آخر ما جرى منها في شأن عثمان الذي سـقط مضرجا بدمائه بعد أيام....

---

(٦) الطبري ٤١٧/٣.

(٧) أنساب الأشراف ٧٥/٥– الغرارة: الكيس (الجوالق).

www.alkottob.com

* * *

رأيت من الخير قبل أن أنتقل إلى مآتي السيدة بعد عثمان أن أنبه إلى سبب هام أعزو إليه تبعة هذه المأساة مأساة عثمان التي ذهبت ضحيتها وحدة المسلمين فلم يجتمعوا بعدها قط. أودع أيام عثمان مقررا أن ما يذكره المؤرخون من التبعات على بعض الصحابة[٨] كعلي وطلحة والزبير وعائشة هو تبعات ثانوية في رأيي. أما الأسباب التي أرثت الشر وهاجت الاضطراب وأوقدت الفتنة وأججت النيران فهو مؤامرة واسعة منظمة محكمة، سهر عليها أبالسة خبيرون، وسددوا خطاها وتعهدوها في جميع الأقطار حتى آتت ثمرها. ولم تلق هذه المؤامرة من المؤرخين عامة ما تستحق من التحري والاهتمام.

---

[٨] أشد ما أثر في ذلك وأشهره كلمة بن أبي وقاص في توزيع التبعة، وقد سئل عمن قتل عثمان فقال: «قتله سيف سلته عائشة وشحذه طلحة وسمه علي»، أما الزبير فقد «أشار بيده وصمت لسانه».

وهذا الأثر الذي يقرره سعد: أثر غير مباشر بلا ريب. إنه رأى أنهم قصروا في حق عثمان، وأن منهم من أعلن نقده للخليفة فكان ذلك التقصير وهذا الإعلان مما جرأ الناس ووجه الأمور – دون قصد – وجهتها المعروفة، ولو لم يكن ذلك منهم لنقص عامل خطير قوى نفوس الثائرين على الشر. وإلا فلم يكن أحد من الصحابة ليرضى عن قتل عثمان. وعثمان نفسه قد كان منه ما يفسر كلمة سعد هذه:

ذكر ابن عبد ربه أن زيد بن ثابت رأى عليا مضجعا في المسجد فقال له: «يا أبا الحسن، إن الناس يرون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان». فجلس علي ثم قال: «والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلت في شيء من شأنهم». فأتى زيد عثمان فأخبره بقول علي، فتمثل عثمان:

وحرق قيس علي البلاد حتى إذا اضطرمت أحجما

العقد الفريد ٨٦/٣.

فهذا عثمان صرح أن عليا أحجم عنه لما اضطربت الأمور.

ثم كان علي يقسم على ذلك في أوقات مختلفة: قال على المنبر يوما: «والله لئن لم يدخل الجنة إلا من قتل عثمان ما دخلتها أبدا، ولئن لم يدخل النار إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبدا».

ويروون أنه أشرف يوما من قصر له بالكوفة فنظر إلى سفينة في دجلة فقال: «والذي أرسلها في بحره مسخرة بأمره: ما بدأت في حق عثمان بشيء».

وصدق علي، فقد كان لعثمان طول حياته من المحسنين الحافظين لحقه، الصابرين على الأذى في سبيله.

وتعجبني في ذلك كلمة (عميقة بعيدة الغور) لمحمد بن سيرين تدل على بصر في الحوادث وفقه لها، قال: «ما علمت أن عليا اتهم في دم عثمان حتى بويع، فلما بويع اتهمه الناس» العقد الفريد ٩٠/٣.

وكذلك بقية الاتهامات لطلحة والزبير وعائشة خالطتها المبالغات ودس الأمويون وذوو الأهواء من بعدهم ما يرضي أهواءهم.

www.alkottob.com

وأنا أجزم هنا أن الأسباب التي يذكرونها كلها والتبعات التي يوزعونها بين من ذكرت ومن لم أذكر... لن تقوى مجتمعة على أن تسامي هذا السبب الهام الذي أشرت إليه، بل أقطع أنها عناصر ثانوية لم تكن لتنتج شيئا لولا هذا الجو الذي هيأه عبد الله بن سبأ. وأبعد من هذا، إني أومن أشد الإيمان أنه لو لم يكن شيء قط من هذه المساعي والأسباب التي يذكرونها، لكان عمل ابن السوداء وحده كافيا في بلوغ النتيجة المشؤومة نفسها؛ وإليك البيان:

www.alkottob.com

ابن سبأ البطل الخفي المخيف

عبد الله بن سبأ يهودي من صنعاء أمه سوداء (ويلقبونه: ابن السوداء) تظاهر بالإسلام على عهد عثمان، ثم اندفع متنقلا في البلدان الإسلامية فبدأ بالحجاز فالبصرة فالكوفة، فدمشق، فمصر، يطوفها «ليلفت الناس عن طاعة الأئمة ويلقي بينهم الشر»[(1)] باذرا للضلالات والفساد في هذا المجتمع السليم، وهو رجل على غاية من الذكاء وصدق الفراسة والنظر البعيد والحيلة الواسعة، والنفاذ إلى نفسية الجماهير، أقطع أنه أحد أبطال جمعية سرية (تلمودية) غايتها تقويض الدولة الإسلامية والقضاء على الإسلام، وأكاد أزعم أن هذه الجمعية تعمل لحساب دولة الروم التي انتزع منها المسلمون لسنوات قريبة قطرين كبيرين واسعين غنيين: مصر والشام، عدا بلاد أخرى على البحر المتوسط.

والغريب الذي لم أقض منه عجبا أن نشاط هذا الرجل العجيب قد اتسع لتعهد ميادين مختلفة: الميدان الديني والميدان السياسية والميدان الحربي، فقد أراد نسف العقيدة الإسلامية من أساسها حين اختلق للمسلمين عقيدتين زائفتين: الرجعة والوصاية. وقد حفظ لنا الطبري بعض نصوص تعاليمه فمنها: لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمدا يرجع وقد قال الله: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} [القصص: ٢٨/٨٥] فمحمد أحق بالرجوع من عيسى[(2)] فقبل ذلك منه ووضع لهم الرجعة فذاعت في المجتمع. ثم قال لهم بعد ذلك.

«إنه كان ألف نبي، لكل نبي وصي، وكان علي وصي محمد... محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء»[(3)].

---

(1) ابن عساكر ٧/٤٢٨.

(2) تاريخ الطبري ٣/٣٧٨ – هذا وأرى من الواجب التنبيه هنا إلى قول علي نفسه لعبد الله بن سبأ في هذا الصدد: ويلك، ما أفضى إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء كتمه أحدا من الناس، ولقد سمعته يقول: «إن بين يدي الساعة ثلاثين كذابا وإنك لأحدهم» – ابن عساكر ٧/٤٣٠.

(3) الطبري ٣/٣٧٨.

www.alkottob.com

ثم انتقل خطوة بعد هذا التمهيد فجمع بين إفساد الميدان الديني وإفساد الميدان السياسي في إذاعة قوله: «فمن أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصي رسول الله وتناول أمر الأمة» ثم قال بعد ذلك لأتباعه:

«إن عثمان أخذها بغير حق، وهذا وصي رسول الله، فانهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر».

وهكذا دخلت تعاليم هذا المفسد الذكي قلوب الناس إذ تلطف لهم، فجاء من الجهة التي تحن قلوبهم وتهواها نفوسهم.

لقد طاف أقطار المسلمين قطرا قطرا، بدأ بالحجاز باثا ضلالاته كما تقدم، ثم انعطف إلى الشام، والشام يومئذ بيد بصير بأمره: معاوية بن أبي سفيان الذي فطن إلى خطره فأبعده، إلا أنه على حذره قد أصابه رشاش من إفساده. والطبري يزعم أن ابن السوداء « لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر». لكن الصحيح أنه قدر، وزرع، وحرك على معاوية صحابيا جليلا أذعن عامة الشاميين لأقواله، وضاق به ذرعا معاوية الداهية الحليم، واضطر إلى أن يطلب من الخليفة عثمان إخراجه من الشام، ذلك هو أبو ذر وحادثه مشهور، وهذا الطبري نفسه يتولى قص الحادث:

«لما ورد ابن السوداء الشام لقي أبا ذر فقال: «يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية يقول: (المال مال الله، ألا إن كل شيء لله!) كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين!!» فأتاه أبو ذر فقال: «ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟» قال معاوية: «يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله والمال مال الله والخلق خلقه والأمر أمره؟» قال: «فلا تقله»[٤]. ثم كان ما كان من تأليب أبي ذر الفقراء على الأغنياء وخوف معاوية على الشام منه ونفيه منها.

---

[٤] الطبري ٣/٣٣٥- هذا ويذكر ابن عساكر في تاريخه الكبير عن الشعبي: أن «أول من كذب على الله وعلى رسوله: عبد الله بن سبأ» وكان يطعن على أبي بكر وعمر. وضاق به علي أشد الضيق حتى قال: «ما لي وهذا الحميت الأسود». ولما ذاع وقعه في أبي بكر وعمر دعا به علي، ودعا بالسيف وهم بقتله؛ فشفع فيه أناس فقال: «والله لا يساكنني ببلد أنا فيه» فسيره إلى ساباط المدائن. فكان هناك من بعده الرافضة والقرامطة، وكان ألقى إليهم بألوهية علي بن أبي طالب. تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٤٣٠.

www.alkottob.com

إني لشديد الإعجاب بذكاء ابن السوداء وصدق فراسته وعمق دراسته للناس، لقد عرف من يختار من الشام، ولقد وفق التوفيق كله بهذه المقالة التي فصلها على مزاج أبي ذر، فلم يكد يلقيها إليه حتى طار بها أبو ذر مندفعا إلى معاوية، وهذا هو فن ابن السوداء الذي أنجح مساعيه: فهم جيد للناس وأمزجتهم ونفوسهم، و(استخبارات صادقة منظمة) انتفع بها أعظم الانتفاع في إحكام خطط الشر، واستغلال حسن لغفلة سواد المسلمين عن نياته، وخداع ماكر لهم عن دينهم وسلامة دولتهم. لقد جنى الروم من دسائس ابن السوداء خيرا كثيرا: إذا شغل القوى الإسلامية بعضها ببعض فكسر شوكتها وصرفها عن الاندفاع في الفتوح، وإن الذي استتبعت من شرور بعد ذلك آخذ بعضها برقاب بعض أفظع هولا وأشنع. ولو وقع ابن السوداء هذا لإنكلترة اليوم لاستغنت في إبادة عدوها عن جيوش وأساطيل ومنظمات تعج بالفنيين الخبراء.

والظاهر أن ابن السوداء سكر بهذا الظفر الذي لم يتوقعه في الشام، فأتى أبا الدرداء، ففطن هذا لمكره فقال: «من أنت؟ أظنك والله يهوديا» فأتى عبادة بن الصامت، فتعلق به وسلمه إلى معاوية قائلا: «هذا الذي بعث عليك أبا ذر»[٥].

* * *

«كان حكيم بن جبلة رجلا لصا، إذا قفل الجيوش خنس عنهم، فسعى في أرض فارس، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد في الأرض ويصيب ما شاء ثم يرجع. فشكاه أهل الذمة إلى عثمان، فكتب عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله: «أن احبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة حتى تأسنوا منه رشدا فحبسه فكان لا يستطيع أن يخرج منها».

على هذا الرجل المفسد الموتور الناقم على عثمان، نزل عبد الله بن سبأ لما أتى البصرة. وصار يجتمع إليه الناس ويبث إليهم تعاليمه ومقالاته بلباقة لا يصرح فيها بما ينم عن دخيلته، وفشا أمره وقبل الناس ما يقول وعظموه، وبلغ خبره الوالي عبد الله بن عامر «فسأله[٦]: ما أنت؟ فأخبره: (أنه رجل من أهل الكتاب رغب في الإسلام، ورغب في جوارك) فقال: (ما يبلغني ذلك، اخرج

[٥] الطبري ٣/٣٣٥.

[٦] الجزء نفسه ص ٣٦٨.

www.alkottob.com

عني) فخرج حتى أتى الكوفة، فأخرج منها، فاستقر بمصر وجعل يكاتبهم ويكاتبونه ويختلف الرجال بينهم».

هكذا صار ابن السوداء بما له (من استخبارات) يتسقط الناقمين واحدا واحدا ممن نالهم عقوبة أو تأديب من عامل أو خليفة، أو ممن له طموح إلى منفعة لم يصل إليها.. فجعلهم حزبه وبطانته وألف بينهم حتى صار له في كل بلد جماعة منظمة هي كالفروع لحزب خطر هدام.

ولما قدم ابن السوداء مصر اختبر نيات جماعاتها واستعداداتهم و«عجمهم واستخلاهم واستخلوه وعرض لهم بالكفر فأبعدوه»[٧] فسرعان ما راغ عن الكفر الصريح المكشوف لما رأى نفرة الجماعة منه، فرسم لهم خططا توسع الشقاق بين الأمة وتوقع بينهم العداوة فلانت لها نفوسهم وطمع فيهم «فبدأ يطعن على أميرهم عمرو بن العاص (قبل عزله) وقال: ما باله أكثركم عطاء ورزقا؟ ألا سنصيب رجلا من قريش يسوي بيننا» فهشت لهذه المقالة نفوسهم واستحلوها وبذلك أنجحت خطط هذا الخبيث ووجدت عقاربه مدبا تسمن فيه. فاستقر بمصر بؤرة الناقمين وألقى إلى جماعاته في الأقطار دستور العمل وخطة الدعاية التي تسبق الثورة وقد مر بك أن الطبري وابن عساكر حفظاها لنا في هذه الكلمات:

«انهضوا في هذا الأمر فحركوه وابدؤوا بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر». فبث دعاته وكاتب من استفسد في الأمصار وكاتبوه، ودعوا في السر إلى ما عليه رأيهم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون، فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة (العاصمة) وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون؛ فيقول أهل كل مصر: «إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء» إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فقالوا: «إنا لفي عافية مما فيه الناس»[٨].

---

[٧] تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٣٠/٧، ونحن مدينون لهذا المصدر بمعلومات قيمة.

[٨] الطبري ٣٧٩/٣- هذا ويعجبني من أحد رواة الطبري فهم جيد لفلسفة الحوادث: إنه يعزو كثرة الناقمين من الصعاليك، إلى عامل اقتصادي: هو ظفر أهل السابقة من المهاجرين والأنصار بالغنائم الوافرة والضياع العامرة، وحسد الصعاليك لهم حسدا خفيا لا يظهرونه لأنه «لا حجة لهم، والناس عليهم، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشيء أو أعرابي أو محرر، استحلى كلامهم

www.alkottob.com

وأحكمت هذه الجماعة مؤامراتها فأرسلت إلى الأمصار كتبا مزورة بما شاؤوا على لسان علي وطلحة والزبير وعائشة.

لقد ملأ ابن السوداء البلاد نقمة وثورة وفسادا وأصبحت الأقطار كلها هشيما يابسا ينتظـــــر شرارة واحدة كان إرسالها أهون شيء على جمعياته وأتباعه. وهكذا قضى على حكم (المدينـــــة) وحكومة (الراشدين) إلى يوم الدين.

فكانوا في زيادة والناس في نقصان حتى غلب الشر». ا هـــ ٣/٣٣٣- ومن هذه الكثرة وجد ابن الســـوداء وأعوانـــه مـــادة وقودهم، فما هبت الهيعة إلى الشر حتى كانوا جميعا على استعداد للفتنة.

www.alkottob.com

الفصل الرابع

في دفع اتهامات خاطئة للسيدة عائشة

رأيت من المفيد أن أعرض هنا لاتهامات انتشرت على ألسن تتهم عائشة وتحملها إصر قتل عثمان: اتهموها أنها كانت تصرح بأمر الناس بقتل عثمان وتتهمه بالكفر، وبأنها كانت تحرض على قتله بكتب كتبتها إلى الأمصار، وبأنها تريد من وراء ذلك البيعة لابن عمها طلحة بن عبيد الله،... ونحن ذاكرون لك هذه الأمور واحدا واحدا:

١-اتهموها بأنها كانت تقول: «اقتلوا نعثلا فقد كفر»[1]. ونعثل - كما مر بك - لقب نبزوا به عثمان. وإذا أردنا أن نعزو هذا القول - على فرض صحته وهو غير صحيح - إلى ساعة غضب واستثارة؛ فإن ابن أبي الحديد يحتاط للأمر ويقدم لنا رواية يحتاج تصديقها إلى شيء غير قليل من البله فينا أو في السيدة عائشة نفسها، إنه يعزو إليها أنها لما بلغها قتل عثمان قالت: «بعدا لنعثل وسحقا، أبعده الله، ذلك بما قدمت يداه[2]!».

وعلى فرض تجريدنا السيدة - جدلا - من النبل والإنسانية حتى تقف هذا الموقف الذي يفيض تشفيا وشماتة وإغاظة، لا نستطيع إلا أن نقطع بوضع الخبر وكذبه لأنه لا يأتلف وطبيعة الأشياء: إن أقل مقدار نفترضه من الذكاء في السيدة كاف للقطع بأنها لا يصدر عنها مثل هذا القول مهما كان معناه متمكنا في نفسها، فكيف والسيدة على ما أجمعوا من الاتزان والعقل والذكاء.

هذا وفي الطبري أيضا أن عبيد ابن أم كلاب وهو الذي روى الجملة الأولى: «اقتلوا نعثلا فقد كفر» لما أخبرها ببيعة علي، حاور السيدة في طلبها بدم عثمان قائلا: «و لم؟ إن أول من أمال حرفه لأنت» وأنشد:

---

[1] الطبري ٤٧٧/٣ - وانظر في تكذيب هذه الرواية احتجاجا قيما سديدا للإمام المحدث المجتهد الناقد ابن تيمية في منهاج السنة ١٨٨/٢.

[2] شرح نهج للبلاغة ٧٦/٢.

www.alkottob.com

فمنـــــك البـــــداء ومنـــــك الغـــــــير   ومنـــــك الريـــــاح ومنـــــك المطـــــــر
وأنــــت أمــــرت بقتـــــل الإمـــــــام   وقلـــــت لنـــــا: إنــــه قـــــد كفــــــر
فـــــهبنا (؟) أطعنـــــــاك في قتلـــــــه   وقاتلــــــه عندنـــــــــا في أمـــــــــر
و لم يســـقط الســـــقف مــــن فوقنـــا   و لم تنكســـف شمســـــنا والقمـــــــر[3]

٢- واتهموها بأنها كانت تحرض على عثمان وتكتب بذلك الكتب للأمصـــار: جاءهـــا الأشتر أحد رؤوس الشغب - وعثمان محصور - فقال لها: «يا أم المؤمنـــين مـــا تقولين في أمر هذا الرجل؟» وهذا سؤال أدركت السيدة ماذا يريد منه الأشتر وإن لم يصرح به، فأجفلت من مراده وأرسلت جوابا صريحا حاسما: «معـــاذ الله أن آمـــر بسفك دماء المسلمين وقتل إمامهم واستحلال حرمتهم» فقال الأشتر: «كتبتن إلينـك حتى إذا قامت الحرب على ساق أنشأتن تنهيننا؟!![4]».

هذا ولعلك لم تنس بعد أن من خطط ابن السوداء تزوير الكتب على ألسنة الناس تتميما لأمر أحكم الطريق إليه. وقد فطن بعض الناس إلى أمر ذلك التزوير، لكن هذه الفطنـــة جـــاءت متأخرة جدا.

ذكر البلاذري أن السيدة لما قالت حين قتل عثمان: «تركتموه كالثوب المنقى من الدنـــس ثم ذبحتموه كما يذبح الكبش...» أجابها مسروق: «هذا عملك: كتبت إلى النـــاس تأمرينـــهم بالخروج إليه»، حينئذ قالت السيدة وهي المصدقة فيما تقول:

«والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون: ما كتبت بسواد في بياض حتى جلست مجلســـي هذا».

قال الأعمش: «فكانوا يرون أنه كتب على لسانها»[5].

---

[3] الطبري ٤٧٧/٣، وسأعود إلى هذه الرواية بالنقد عند الكلام على موقف عائشة من بيعة علي.

[4] أنساب الأشراف ١٠١/٥.

[5] الجزء نفسه ص ١٠٣، وفي الأصل: «ما كتبت بسوداء في بياض...» - و لم يقتصر التزوير على السيدة عائشة، بـــل تنـــاول أجلاء الصحابة المجمع على نفوذ كلمتهم في الجماهير: ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد ٨٣/٣ أنه «لما قدم القـــواد (الذيـــن أجلبوا على عثمان) قالوا لعلي: «قم معنا إلى هذا الرجل» قال: «والله لا أقوم معكم». قالوا: «فلم كتبت إلينا؟» قـــا: «والله ما كتبت إليكم كتابا قط». فنظر القوم بعضهم إلى بعض» اهـــ.

www.alkottob.com

٣- وأطرف مما تقدم وأدخله في باب الاختلاق والوضع، زعمهم أنها كانت تبغي من تحريضها على قتل عثمان أن يتم الأمر لابن عمها طلحة بن عبيد الله فيبايع خليفة. ولدينا في ذلك حادثتان الأولى كانت قبل مقتل عثمان والثانية بعده.

تقدم لك (ص٥٧) أن عائشة رفضت البقاء في المدينة - وعثمان محصور - وقصدت مكة للحج، وأن عثمان ولى موسم الحج عبد الله بن عباس، فيذكر الطبري أن ابن عباس «خرج فمر بعائشة في الصلصل (موضع بقرب المدينة) فقالت: «يا بن عباس أنشدك الله فإنك قد أعطيت لسانا إزميلا (قاطعا) أن تخذل عن هذا الرجل (تعني عثمان) وأن تشكك فيه الناس، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار، وتحلبوا (سالوا) من البلدان لأمر قد حم، وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر».

قال ابن عباس: «يا أمه، لو حدث بالرجل حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا (يعني عليا)». فقالت: «إيها عنك، لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك»(٦).

إني مع عدم استبعادي أن يخطر على بال السيدة خاطر البيعة لابن عمها طلحة إن اعتزل عثمان أو قتل، مع ذلك أرى دلالة الوضع ظاهرة على هذا الخبر: في مجادلتها ابن عباس داهية بني هاشم وطمعها في أن يصرف الأمر عن ابن عمه علي إلى طلحة، وعائشة أبعد من ذلك فراسة وأقل خفة. ومهما يكن فليس في هذا الخبر دليل على أنها سعت في قتله حتى يصح لهم تعليل سعيها بإعداد الأمر لطلحة. إنها أرادت عثمان على تغيير عماله وإصلاح خطته، فأذعن عثمان لإرادتها وإرادة أجلاء الصحابة وأعطى من نفسه آخر أيامه كل ما سئل من إصلاح. ولعل السيدة - مهما بالغنا في سوء الظن - لم يكن يخطر لها حتى في أشد حنقها على عثمان، أكثر من رغبة في تغيير بطانته واتخاذ بطانة من أجلاء الصحابة كطلحة والزبير، أو أكثر من اعتزاله على أبعد تقدير. وهذا الخبر الذي تسرب إلى رواة الطبري لا أشك في أنه مصنوع ببعض إحكام، فمن أمعن في الحوادث التي حفت بهذا العهد وجالت في نفسه الخواطر، وجد في هذه الرواية حل المسألة فاستراح إليه.

(٦) الطبري ٣/٤٣٤.

www.alkottob.com

ومن شاء التفكهة فليقرأ أقصوصة ابن أبي الحديد، إنها أطرف وأكثر هلهلة، وإن فاتتك التسلية عند الطبري فانشدها أبدا عند ابن أبي الحديد. إنه يصور السيدة - عندما بلغها قتل عثمان - مخلوقا استخفته الشماتة والطرب، يخف ثم يخف، حتى يكاد يرقص في هذا المأتم فرحا مما خيل إليه من أيلولة الأمر إلى طلحة، وإليك المشهد:

«.. بلغها قتله فقالت: «بعدا لنعثل وسحقا، أبعده الله، ذلك بما قدمت يداه» وكانت تطمع أن يكون الأمر إلى طلحة وتقول: «إيه ذا الإصبع! إيه أبا شبل، إيه يا بن عم!... لكأني أنظر إلى إصبعه وهو يبايع... حثوا الإبل ودعدعوها، إيه ذا الإصبع، لله أبوك... أما إنهم وجدوا طلحة كفوا...»(٧).

وبعد هذا المشهد، يبلغها خبر البيعة لعلي، فينهار أملها وتيأس، وتقول «تعسوا تعسوا لا يردون الأمر في تيم أبدا». ا هـ.

وهذا موضوع لفق له بعض الناس من الأخبار ما يرضي أهواءهم الحزبية أو المذهبية، على نحو ما نرى اليوم من عمل الأحزاب السياسية ودعايات الحكومات. بل إن بعضهم كان يتعبد بوضع الروايات التي تنصر صاحبه وتدين خصمه. وما نسب إلى السيدة - في رواية ابن أبي الحديد - لا يصدر عن الأطفال،، بله من كان في عقل عائشة ودينها وحصافتها. ولعل واضع الخبر فاته أن يفصله على السيدة عائشة الذكية البليغة العالمة العاقلة، فتصور أمامه امرأة في مستشفى المجاذيب فقدت اتزانها جملة واحدة.

* * *

وبعد، فإذا أردت التأثير غير المباشر في فتنة عثمان فلعل أصح حكم وأصدقه في توزيع هذا التأثير ما مر بك من كلمة سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل:

«قتل عثمان سيف سلته عائشة، وشحذه طلحة، وسمه علي، وأشار الزبير بيده وصمت لسانه»(٨).

---

(٧) شرح نهج البلاغة ٢/٧٦ - كانت إصبع طلحة شلاء، فذلك ما عنته بقولها ذا الإصبع. وتيم قوم عائشة وطلحة.

(٨) العقد الفريد ٣/٨٤.

www.alkottob.com

فإن أنت أغفلت الأسباب الحقيقية في إيقاد الفتنة وأغفلت الدسائس الخفية التي اضطرمت في الجماهير، ونسيت أفاعيل ابن السوداء وخططه ومؤامراته وتنظيم جماعاته، و لم تر عينك إلا هؤلاء الأربعة في المدينة فإن الأمر حينئذ في توزيع التبعة لا يعدو ما قال سعد.

ولعل سعدا يعبر عن رأي كثير ممن يعطفون على عثمان وهم معذورون، فإن حقيقة المؤامرة لم تنكشف بعض الانكشاف إلا بعد عشرات السنين إن لم أقل بعد مئات السنين. ومن هؤلاء: الأمويون حزب عثمان ومعاوية من بعده، إنهم يرتاحون كل الارتياح إلى هذا الحكم الذي نطق به سعد، بل ليس لهم رأي - فيما أظن - غيره، ولقد أفصح عن رأيهم خير إفصاح سعيد بن العاص أحد أقطابهم المحنكين: فقد لقي مروان وأصحابه ممن اعتزموا النهوض مع عائشة إلى البصرة للمطالبة بدم عثمان، لقيهم بذات عرق فقال له: «أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل؟ اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم، لا تقتلوا أنفسكم...» فقالوا: «بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا»[٩] وسترى - فيما بعد - أنهم كذلك فعلوا: قتلوا طلحة والزبير وودوا لو تقتل عائشة[١٠].

أما إذا لم تستطع إغفال (المؤثرات المباشرة) و(الأسباب الحقيقية) و(العوامل الخفية)... فسترى كل ما يعزي إلى هؤلاء الأربعة آثارا ثانوية غير مباشرة لا تعدو غضب النصيح من محبوب يعصيه.

ولقد تقدم لك نفي السيدة إرسال الكتب إلى الأمصار، وعرفت أن هناك مزورين مختصين اضطلعوا بهذا الأمر ونجحوا في إحكام مؤامراتهم وإخفائها، وعرفت أنها لم تأمر قط بقتل عثمان و لم تشترك في ذلك اشتراكا ما قط.... فزد على ذلك أنها لم يخطر لها خاطر قتله على بال البتة، حتى هذه الكلمات وذلك الغضب الذي بدر منها نحو عثمان، اعتقدت أنها عوقبت عليها، قالت:

---

[٩] الطبري ٤٧٢/٣ وابن خلدون ١٥٥/٢. ورواية ابن عساكر لجواب مروان أوضح فقد جاء فيها قوله: «لا، بل نضرب بعضهم ببعض فمن قتل كان الظفر فيه، ويبقى الباقي فنطلبه وهو واهن ضعيف». فرجع سعيد والمغيرة ومن معهما من قومهما فأقاما حتى مضى الجمل وصفين أيضا. انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٣٦/٦.

[١٠] أفصح عن هذه الرغبة عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة للسيدة نفسها، وستقرأ كلمة المغيرة بعد أسطر، أما عمرو فقد جاء في الكامل للمبرد (ص ١٥١ طبعة ليدن) أن عمروا قال لعائشة رحمها الله «لوددت أنك كنت قتلت يوم الجمل». قالت: «و لم، لا أباك؟» فقال: «تموتين بأجلك وتدخلين الجنة، ونجعلك أكبر التشنيع على علي» - وعمرو أكيس من أن يقول لها: «ونصيب بذلك ثأر عثمان منك».

www.alkottob.com

«ليتني كنت نسيا منسيا قبل أمر عثمان: فوالله ما أحبت شيئا إلا ومنيت بمثله، حتى لو أحببت أن يقتل لقتلت»[١١].

وأوضح من هذه الرواية، رواية ابن عبد ربه، فقد ذكر أن المغيرة بن شعبة دخل عليها فقالت له: «يا أبا عبد الله، لو رأيتني يوم الجمل قد أنفذت النصل هودجي حتى وصل بعضها إلى جلدي» قال لها المغيرة: «وددت والله أن بعضها كان قتلك» قالت: «يرحمك الله لم تقول هذا؟» قال: «لعلها تكون كفارة في سعيك على عثمان». قالت: «أما والله لئن قلت ذلك: لما علم الله أني أردت قتله، ولكن علم الله أني أردت أن يقاتل فقوتلت، وأردت أن يرمى فرميت، وأردت أن يعصى فعصيت، ولو علم مني أني أردت قتله لقتلت»[١٢].

ثم كانت شديدة الحزن والغضب لقتله، صادقة في ذلك كل الصدق. ولقد غضبت على أخيها محمد بن أبي بكر لسعيه على عثمان، وسمته (مذمما)، وظلت تدعو من كبد حرى على أخيها وبقية الساعين في قتله دعاء حارا لا تشك في صدوره عن عاطفة صادقة في التياعها. كان تقول:

«قتل الله مذمما (أخاها) بسعيه على عثمان، وأهرق دم ابن بديل على ضلالته، وساق إلى أعين بن تميم هوانا في بيته، ورمى الأشتر بسهم من سهامه لا يشوي»... قالوا: «فوالله ما منهم إلا أدركته دعوة عائشة»[١٣].

وليس أدل على ترفع السيدة عن مخاطر القتل من هذه الدعوات الحارة البليغة.

فلا يقعن في وهم أحد إذن، أن السيدة ودت قتل عثمان أو توقعته، وهذه الأقوال الصادرة عنها - وهي الصادقة عندنا - في الألم على عثمان كاف بعضها في إبعاد الشبهة عنها. وغاية ما يؤخذ عليها عدا مواقفها العنيفة التي مرت بك، أنها تركت عثمان محصورا (حين بلغ الحزام

---

[١١] أنساب الأشراف ٥/١٠١.

[١٢] العقد الفريد ٣/٨٤.

[١٣] أنساب الأشراف ٥/١٠٢ والعقد الفريد ٣/٨٤ - أشوى السهم: أخطأ المقتل وأصاب الأطراف. وفي كتاب (التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان) (مخطوط): «كان محمد بن أبي بكر يدعي (مذمما) لقبته بذلك عائشة لسوء صنيعه، فلقي عقوبة ذلك في الدنيا من القتل والحرق وعند الله تجتمع الخصوم» ص ٢٠٧ - يشير إلى قتله وإحراقه في جيفة حمار من قبل معاوية بن حديج في مصر لما أوقع عمرو بن العاص والي مصر لمعاوية بجيش علي وأنصاره.

www.alkottob.com

الطبيين، وحين طمع فيه من لا يدفع عن نفسه)[١٤] - كما وصف هو نفسه في بعض الروايات - في أشد الحصار وأحر الظمأ وخلصت إلى مكة.

وقد كان راسلها عثمان في أمر الماء وطلب نجدها ونجدة أمهات المؤمنين فأرسلن إحداهن أم حبيبة - على ما علمت - فكادت تقتل، وجاءها مروان حنقا يقول: «يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل».

كان طلب مروان - على وجاهة اعتذار السيدة أيضا - في محله، وكان مقامها - لو هي أقامت - ربما نفع عثمان ورد عنه، لكنها رحمها الله استسلمت لموجدها، واكتفت أن استتبعت أخاها محمدا أكبر المحرضين على عثمان، معها إلى مكة فأبى.

الحق أن أثرها في هذه الفاجعة المشؤومة كان - من حيث لا تريد - بليغا غير ضئيل. لقد عارضت عائشة عثمان كما عارضه غيرها؛ أما دمه فهي أبعد الناس عن أن تكون شركت فيه بقول أو فعل، بل إن مجرد فكرة القتل لم تكن تخطر لها على بال قط. وللخصومات السياسية والمذهبية أياد طولى في اختلاق الأخبار. ومن هذه الأخبار ما لا يتماسك لأول نظرة، ومنها ما يتهافت بعد إعمال العقل وفقه الحوادث، ومنها ما يخفى أمر وقعه حتى على الخبير.

---

(١٤) من الكتاب البليغ الذي أرسل به عثمان وهو محصور إلى علي على ما زعموا، وهذا نصه على رواية الحصري:

«أما بعد، فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين، وطمع في من لا يدفع عن نفسه، ولم يعجزك كلئيم، ولم يغلبك كمغلب، فأقبل إلي، معي كنت أم علي، على أي أمريك أحببت:

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلي وإلا فأدركني ولما أمزق

زهر الآداب ٧٥/١ المطبعة الرحمانية - الطبعة الثانية والكامل للمبرد (ص١١ طبعة ليدن).

الزبى: الزوابي - الظبي: حلمة الضرع (رأس الثدي). وبلوغ السيل الزبى وتجاوز الحزام أثداء الدابة المركوبة: كنايتان عن اشتداد الأمر، المغلب: الذي يغلبه الناس كثيرا - والبيت لشأس العبدي، ومن أجله لقب بـ (الممزق).

www.alkottob.com

الباب الثاني

مواقفها في عهد علي حتى يوم الجمل

بويع علي بالخلافة وإن الأمور لملتوية معتاصة، وإن كلمة الناس لمنتشرة، وإن أهواءهم لشتى. ولقد استقبل رضي الله عنه عهد خلافته بأيام سود، وفتن كقطع الليل المظلم، فاقتحم الغمرات، وعقد العزم على أن يجلوها غمرة غمرة، وكان لله في ذلك قضاء سبق، فلم يجد علي بين يوم مبايعته ويوم مقتله ساعة خلا فيها من فتنة تثار، وخوارج تنتقض، ومشكلات تتوالد، وخصوم يتكاثرون؛ إن متاعبه وهمومه وما حمل نفسه من أعباء... أخذته حتى عن نفسه التي بين جنبيه. وكان أمر عائشة رضي الله عنها أهم ما لقي من فتوق، ولولاه لكان أمر علي أوثق، والكلمة عليه أجمع، ولآلت الأمور إلى غير مآلها المعروف.

www.alkottob.com

الفصل الأول

في طبيعة علائقهما الماضية

قبل الخوض فيما وقع بين عائشة وعلي في خلافته يحسن بنا الإشارة إلى طبيعة العلائق الماضية بينهما قبل الخلافة، فنحن خاضعون في تصرفاتنا لهذا الحاكم القاهر المسمى بـ (الماضي) نختزن منه ذكرياتنا ومفارحنا وآلامنا، وتسيرنا هذه المفارح والآلام والذكريات فيما نستقبل من أعمال: رضينا أم أبينا، من حيث نشعر ولا نشعر.

وهنا نجد الأمر مختلفا كل الاختلاف عما كان بين عائشة وعثمان قبل خلافته: فلئن كانت عائشة منطوية لعثمان على خير ومحبة وتوقير... وبالجملة على الرضا، إنها لعلى خلاف ذلك مع علي، إنها لم تكن تطيب نفسها له بخير، وفي الوسع أن نقول: إن الجفاء هو الذي ساد علائقهما قبل الخلافة في الأعم الأغلب.

لنرجع ثلاثين سنة قبل أن بويع لعلي بالخلافة، فسنجد ثمة نقطة التحول التي فرضت على عائشة اتجاهها الذي اتجهته مع علي و لم تستطع الإفلات منه، ولا من عاطفتها العنيفة التي لم يخفف تتابع الأيام والسنين من حدتها. فلنمعن في هذه الأمور التاليات:

١- لم يجتمع أزواج النبي صلى الله عليه وسلم على شيء اجتماعهن على الغيرة الشديدة من السيدة عائشة، لما خصها به النبي من محبة إذ خلت من قلبه في المترلة التي لا تسامى، والغيرة بين الضرائر أمر فطري مألوف قل أن تتتره عنه امرأة. وكان علي وزوجه السيدة فاطمة بنت الرسول يحاولان حمل الرسول صلى الله عليه وسلم على التخفيف من حبه لعائشة، ويسفران لبقية أزواجه بما يرضيهن ويغضب عائشة، وأظن أن مثل هذه السفارة مما لا تغفره أنثى البتة.

ذكر الرواة أن الغيرة اشتعلت يوما في صدر أم سلمة لمشهد لمست فيه شدة حب النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة، فأخذتها الغيرة وجعلت تسب عائشة وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينهاها فتأبى، وعاين النبي غليانا في صدر عائشة على هذا العدوان، فرأى من الحكمة أن ينفس

www.alkottob.com

عنه القصاص العادل، فأمر عائشة بسبها كما سبتها. فانطلقت أم سلمة إلى علي وفاطمة - وكانا يخصانها بعطف ورعاية، وبقيت أم سلمة في حزب علي حتى ماتت - فقالت: إن عائشة سبتها، «وقالت لكم وقالت لكم» فكره ذلك علي وقال لفاطمة: «اذهبي إلى النبي فقولي: إن عائشة قالت لنا وقالت لنا...» فأتته فذكرت ذلك له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنها حبة أبيك ورب الكعبة».

وكأن هذا الدرس لم يرق لعلي، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أما كفاك الآن: قالت لنا عائشة وقالت لنا، حتى أتتك فاطمة فقلت لها: إنها حبة أبيك ورب الكعبة؟»[1].

ولعل مثل هذه السفارة قد تكررت[2]، فحفظت عائشة ذلك كله لعلي وفاطمة.

وينبغي ألا ننسى ونحن نذكر ما يقع مثله عادة بين الأحماء، أن نشير إلى أمر آخر مهم، كانت السيدة نفسها هي التي تغار. ذلك أنها على شدة حظوتها عند الرسول وكثير محبته لها، لم ترزق منه الولد، وكان عليه الصلاة والسلام كبير الشغف والفرح بأولاد بنته فاطمة، كثير الرعاية لهم والحدب عليهم، وكانت تشهد عائشة من مباسطته لهم العجب العجاب، فتشتعل الغيرة في صدرها من الحسن والحسين وتمتد حتى تغار من أبويهما علي وفاطمة، وهذا - وإن كان مبعثه الفطرة، ومستفيضا في كل الأسر - مما لا يجوز إهماله عند محاولتنا الرجوع في الخصومة بينهما إلى آثارها البعيدة الأولى.

٢- لئن كان من القريب الممكن أن نعتذر لعلي في هذه البوادر التي يكون مثلها في كل أسرة والتي رددنا أمرها إلى ما يكون عادة بين الزوج والأحماء، إن الذي لا نستطيع الاعتذار له: هو موقف علي من عائشة في حادث الإفك: لقد وقف منها علي - مع علمه ببراءتها - موقفا غاية في القسوة، أفصح أبلغ إفصاح عما في نفسه نحوها من تأثر. وإن مع عائشة الحق كل الحق في ألا تنسى تلك البادرة التي كادت تعصف بروحها عصفا لولا أن لطف الله بنبيه وبها فأنزل عليه براءتها تتلى في القرآن حتى يوم الناس هذا.

---

(١) انظر السمط الثمين ص ٣٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧، ٣٨، ٤٠ وسير النبلاء ٢/ ٢٣.

www.alkottob.com

روج المنافقون والموتورون من اليهود من أهل المدينة أمر الإفك، شفاء لما يمزق قلوبهم من غيظ على نصرة الإسلام ودخول المدينة في حكمه. وتحمل الرسول أذيتهم بصبر بالغ وحكمة واسعة، ولم يكن يخفى عليه طهر عائشة وبراءتها ونيات المرجفين، ولكنه أمل أن ينزل الله عليه في أمرهم وحيا، فلما استبطأ الوحي دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد يستأمرهما في فراق أهله، فأتيك فأما أسامة فأثنى خيرا وأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله فقال: «يارسول الله، أهلك ولا نعلم إلا خيرا» وهذا الجواب هو الجواب الوحيد الذي توحي به البديهة والروية معا. ولكن عليا ذهب مذهبا غريبا إذ أشار على النبي أن يطلق عائشة فقال له: «لم يضيق الله عليك، والنساء غيرها كثير، واسأل الجارية تصدقك»، ولم يكتف بذلك، بل قام إلى الجارية فضربها - على ما يقول الطبري(٣)- ضربا شديدا وهو يقول: «اصدقي رسول الله» فتقول الجارية: «والله ما أعلم إلا خيرا.... الخ»(٤).

ولعل عليا ظن هذا الرأي خيرا للرسول مهما جر على عائشة من سوء وظلم، ولكن إنعام النظر يوحي بأن رأي علي لو عمل به لأعقب عواقب جد وخيمة: تحطيم حياة عائشة البريئة، وفجيعة قلب النبي بأحب الناس إليه، وحزنه طول حياته كلما ذكر هذا الحادث وأين لأحد أن ينساه إذن. الحق أن من لطف الله بالنبي وآله - كما قلنا في الجزء المخصوص بعائشة من سير النبلاء(٥)- أن صرف رسوله عن رأي علي.

ومع أني لست أشك في أن عليا صدر في هذا الرأي عن غيرة بالغة على النبي وبيته، مع ذلك أقرر أن المأمول من علي غير هذا، وهو المعروف بسموه عن كل هوى وهو القاهر لنفسه الضابط لنزواتها وتمويهها، ولكن الله الذي استأثر بالكمال سلط الضعف على خلقه من حيث لا يشعرون.

وأظنك تذهب معي إلى أن النتيجة المحتمة لموقف علي هذا من عائشة، أن يسود الجفاء علائقهما مدى الحياة، وأن موقفا مثله لا ينسى ولا ينتزع أثره من القلب مهما جاهد المرء نفسه.

---

(٣) ٢/٢٦٧.

(٤) وتزيد بعض الروايات - ولا آخذ بها - أنه قال: «إن هي إلا شسع نعلك». - شرح نهج البلاغة ٢/٤٥٨. وهذا التعبير عن المرأة بشسع النعل تعبير جاهلي أنزه عليا عنه.

(٥) ص ٤٣، ٤٩.

www.alkottob.com

ولم تنس عائشة – مع كل جهودها المبذولة في كبح عاطفتها – بادرة علي هذه حتى واراها التراب.

ولقد تفاقم في نفسها أثره مع السنين، ووجهها – من حيث لا نشعر – وجهة كان فيها للمسلمين أذى بالغ، وهي ترى أن فيها الخير لهم كل الخير. نعم، لقد كانت الأيام لا تزيده إلا نموا في نفسها حتى رأيناها مندفعة بقوة لا تغالب نحو حرب الجمل بعد ثلاثين سنة من هذا الحادث:

إن الأمور صغيرها مما يهيج له الكبير

٣- ذكر ابن أبي الحديد حادثا بينهما لم أره في مصدر آخر، وأنا أشك فيه كل الشك لبعده عن تربيتها ولأنه في نفسه غير طبيعي:

لما خرجت على علي في خلافته، جعلت أم سلمة تذكرها بهذا الحديث وإليك نصفى على ما في شرح نهج البلاغة:

قالت لها أم سلمة: «أتذكرين يوم أقبل عليه السلام ونحن معه، حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال، خلا بعلي يناجيه فأطال، فأردت أن تهجمي عليهما فنهيتك، فعصيتني فهجمت عليهما فما لبثت أن رجعت باكية فقلت: ما شأنك؟» فقلت: «إني هجمت عليهما وهما يتناجيان فقلت لعلي: ليس لي من رسول الله إلا يوم من تسعة أيام، أفما تدعني يا بن أبي طالب ويومي؟) فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي وهو غضبان محمر الوجه فقال: ارجعي وراءك، والله لا يبغضه أحد من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس إلا وهو خارج من الإيمان». فرجعت نادمة ساخطة؟».

قالت: «نعم، أذكر ذلك..»[٦] ا هـ.

وظاهر أن بيت القصيد من وضع هذا الحديث هو تقرير الكفر على مبغض علي.

٤- لما بويع أبوها أبو بكر الصديق تلكأ علي في داره وامتنع هو وبنو هاشم، حتى إذا انقضت على البيعة ستة أشهر وماتت السيدة فاطمة زوجه أقبل يبايع[٧].

---

[٦] شرح نهج البلاغة ٢/٧٨؟ هذا وقوله (من أهل بيتي ولا من غيرهم من الناس) لا يشبه البلاغة النبوية وحذفها أقوى وأوقع.

www.alkottob.com

ومن طبيعة الأشياء أن تضطغن عائشة على من تخلف عن بيعة أبيها ورأى أنه أحق بالخلافة منه وألا تطيب له نفسها بخير.

ولابأس أن تضيف إلى ذلك قضية (فدك) الأرض التي كانت خالصة للنبي صلى الله عليه وسلم حياته: يأكل منها وينفق على آله وأضيافه مدة عمره، فما فضل فعلى فقراء المسلمين، فلما قبض الرسول وآل الأمر إلى أبي بكر الصديق جاءت فاطمة تطلب من أبي بكر ميراثها، فاعتذر أبو بكر بحكم النبي المشهور: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة». وأبى أن يحكم في هذه القضية بغير حكم رسول الله. فلم يقنع ذلك السيدة فاطمة وغاضبته، وكذلك لم يقتنع علي ولا العباس. على حين أنك تذكر أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن طلبن ميراثهن من رسول الله، فلما احتجت عائشة بالحديث الذي احتج به أبو بكر كففن وأذعن. فكان خلاف علي وفاطمة في أمر فدك موضع استياء من السيدة عائشة. وقد عاد علي إلى النغمة نفسها في خلافة عمر فلم يستفد[8].

٥- إشارات عارضة استخرجتها من مواطنها لأنها عظيمة الدلالة على رأيها في علي وعاطفتها نحوه، أوردها تباعا قبل الشروع في الكلام على مقدمات حرب الجمل، إذ إنها ستكون المفتاح لما بعدها، والمصباح ينير طريق الباحث فيما يستقبل من أحداث:

أما الأولى فقد رواها عطاء بن يسار قال:

جاء رجل فوقع في علي وفي عمار رضي الله عنهما عند عائشة، فقالت: «أما علي فلست قائلة لك فيه شيئا، وأما عمار فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يخير بين أمرين إلا اختار أرشدهما[9]».

---

[7] ذكر الطبري (٢/٤٤٨): أن فاطمة والعباس أتيا أبا بكر يطلبان ميراثهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما حينئذ يطلبان أرضه من فدك وسهمه من خيبر فقال لهما أبو بكر: «أما إني سمعت رسول الله يقول: «لا نورث، ما تركنا صدقة، إنما يأكل آل محمد هذا المال» وإني والله لا أدع أمرا رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته». فهجرته فاطمة فلم تكلمه في ذلك حتى ماتت، فدفنها علي ليلا، و لم يؤذن بها أبا بكر. وكان لعلي وجه من الناس حياة فاطمة، فلما توفيت فاطمة انصرفت وجوه الناس عن علي، فلما رأى علي انصراف وجوه الناس عنه ضرع إلى مصالحة أبي بكر. اهـ. وانظر أيضا غزوة خيبر في صحيح البخاري ومسلم ١٣٩/٥ (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٠ هـ).

[8] انظر المصدرين السابقين وكتاب الأموال لابن سلام ص ١١.

[9] مسند أحمد ١١٣/٦.

www.alkottob.com

وأما الثانية فلهجتها في نفي الوصاية:

سئلت: «أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي؟» فقالت:

«لقد كان رأسه في حجري فدعا بالطست فبال فيها، فلقد انخنث (انعطف) في حجري وما شعرت به، فمتى أوصى إلى علي؟[١٠]».

وأما الثالثة وفيها البلاغ ولقد نبه إليها داهية بني هاشم عبد الله بن عباس فإليك حديثها عن الطبري:

روي عن عائشة أنها قالت: «لما اشتد بالرسول وجعه «دعاه نساءه فاستأذن أن يمرض في بيتي، فأذن له، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر، تخط قدماه الأرض عاصبا رأسه حتى دخل بيتي». قال راوي الحديث. فحدثت بهذا الحديث عنها عبد الله بن عباس فقال: «هل تدري من الرجل الآخر؟» قلت: «لا» قال: «علي بن أبي طالب، ولكنها لا تقدر على أن تذكره بخير وهي تستطيع[١١]».

وحتى بعد انقضاء حرب الجمل وانتهاء الأمر بينهما على خير وتبادل ثناء، لم يزل ما بنفسها نحوه، فقد ذكروا أنه لما انتهى إلى عائشة قتل علي قالت متمثلة:

«فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالإياب المسافر

فمن قتله؟» فقيل «رجل من مراد» فقالت:

«فإن يك نائيا فلقد نعاه   غلام ليس في فيه التراب»

فذكروا أن زينب بنت أبي سلمة كانت حاضرة فقالت: «ألعلي تقولين هذا؟» فقالت: «إني أنسى، فإذا نسيت فذكروني[١٢]».

---

[١٠] طبقات ابن سعد ٤٩/٨ والإجابة ص ٨٦، ١٧٢.

[١١] تاريخ الطبري ٤٣٣/٢ – لكن ابن عبد ربه روى عن السيدة تقريظا لعلي موفيا على الغاية في الثناء قالت وقد ذكر يوما عندها: «ما رأيت رجلا أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا امرأة كانت أحب إليه من امرأته». (تريد السيدة فاطمة) العقد الفريد ٩٤/٣.

[١٢] الطبري ١١٥/٤.

www.alkottob.com

وأنا أجد هذا الخبر مفصحا عن طويتها نحو علي خير إفصاح، وشارحا ما قدمت لك من أنهـا تخضع من حيث لا تريد لتوجيه عاطفتها (اللاشعورية)، ولست أشك أنها كانت حينئذ شـــاردة وأن عقلها الباطن هو الذي تمثل بهذين البيتين قبل أن تنبه إلى ما فيهما من بعد عن الجميل.

وحسبك هذا في بيان طبيعة ما يكنه كل منهما نحو الآخر، فلنشرع فيما نحن بسبيله من مآتيها في خلافة علي.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

موقفها من بيعة علي والحالة العامة

نعو الآن – بعد هذه المقدمة التي لا بد منها – إلى سوق الحوادث متسلسلة على نسقها الذي جاءت عليه[1]: عرفت أن السيدة تركت المدينة وعثمان محصور والأزمة أشد ما تكون تأزما وأرب إشرافا على النتيجة المحتومة الفاجعة، وعرفت أيضا والأزمة أشد ما تكون تأزما وأقرب إشرافا على النتيجة المحتومة الفاجعة، وعرفت أيضا أن مروان ضرع إلى السيدة أن تظل بالمدينة لعل بقاءها يمنع عن عثمان شرة الغوغاء؛ ولعلها عن نصحتهم أن يستجيبوا لها فيراقبوا الله في الخليفة الشيخ، وأنها أبت وخرجت حاجة؛ فلما قضت حجها لبثت بمكة تنتظر عمرة المحرم.

وكان عثمان قد قتل، وبويع علي لخمس بقين من ذي الحجة، وتوارد بين القتل والبيعة أناس هاربون من الغوغاء إلى مكة، وأكثرهم من بني أمية رهط عثمان، فاستخبرتهم عائشة عما وقع، فأخبروها أن الأمر أمر الغوغاء، وأنهم عرضوا الخلافة فلم يجبهم إليها أحد[2]. وأدرك السيدة هنا حزن صادق على عثمان، ولعلها أيقنت في نفسها أن نصح الأمراء لا يكون على رؤوس الأشهاد، وأن ذلك مفسدة للعامة لا يخلو من المضرة مهما كانت نية الناصح خالصة، فقالت وفي قولها إشارة لما جال في خاطرها:

«ولكن أكياس، هذا غب ما كان يدور بينكم من عتاب الاستصلاح».

فلما قضت عمرتها خرجت متوجهة نحو المدينة، فلما انتهت إلى (سرف) لقيها رجل من أخوالها من بني ليث وكانت السيدة واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبيد بن أبي سلمة ويعرف بأمه أم كلاب، قادما من المدينة، فقالت: «مهيم» فأصم ودمدم[3]، فقالت: «ويحك علينا أم لنا؟» فقال: «لا ندري، قتل عثمان وبقوا ثمانيا» فاستعجلت قائلة «ثم صنعوا ماذا؟» قال: «أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على علي، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز». فقالت: «ليت أن

---

[1] معظم اعتمادنا فيما نسوق على الطبري.

[2] تفصيل ذلك في الطبري ٣/٤٥٤.

[3] المصدر السابق ٣/٤٦٨ مهيم كلمة استفهام من معانيها: ما وراءك؟ الدمدمة: الغضب.

www.alkottob.com

هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك!» ثم قالت: «ردوني ردوني»، قتـــل والله عثمـــان مظلوما، والله لأطلبن بدمه. فقال لها ابن أم كلاب: «و لم؟» فوالله إن أول من أمال حرفه لأنـت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر[٤]». قالت: «إنهم استتابوه، ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول».

فقال لها ابن أم كلاب:

فمنـــك البـــداء ومنـــــك الغـــــير ومنـــك الريـــاح ومنـــك المطـــــر
وأنـــت أمـــرت بقتــــل الإمـــــام وقلـــت لنـــا: إنــه قـــد كفــــر
فـــــهبنا[٥] اطعنـــــاك في قتلـــــه وقالتـــه عندنـــــــا مـــــن أمـــــر
و لم يســـقط الســـقف مـــن فوقنـــا و لم ينكســـف شمســــنا والقمــــر
وقـــد بـــايع النـــــاس ذا تـــــدرإ يزيـــل الشـــبا ويقيـــم الصعـــــر[٦]
ويلبــــس للحـــــرب أثوابهـــــــا وما من وفى مثل من قــــد غـــدر[٧]

وانصرفت السيدة راجعة إلى مكة وهي لا تقول شيئا ولا يخرج منها شيء[٨] حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت فيه واجتمع الناس إليها فخطبتهم بهذه الخطبة:

«أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعـــوا أن عـــاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس: الإرب واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبلـــه، ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها، فتابعهم ونزع لهـــم عنها استصلاحا لهم؛ فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا وبادروا بالعدوان ونبا فعلـــهم عـــن قولهم: فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلدالحرام، وأخذوا المال الحرام، واستحلوا الشهر الحـرام. والله لإصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهـــم

(٤) مر بك دحض هذه الفرية عن السيدة ص ٥٦.

(٥) هناك رواية ثانية فيها: (ونحن) مكان (فهبنا).

(٦) رجل ذو تدرإ: مدافع ذو عز ومنعة – الشبا: العلو، الحد– الصعر: إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاونا وكبرا.

(٧) يقع في خلدي أن هذه الأبيات مصنوعة لنصرة هوى سياسي فزيدت في هذا الخبر أيضا.

(٨) جمعنا روايتين للطبري ٤٦٨/٣، ٤٧٧، ويزيد صاحب (الإمامة والسياسة ص ٤٢) أن طلحة لما لقيها بمكة وأخبرها بما جـــرى قائلا: «بايعوا عليا ثم أتوني فأكرهوني وليبوني حتى بايعت». قالت: «وما لعلي يستولي على رقابنا؟ لا أدخل المدينـــة ولعلـــي فيها سلطان» ا هـــ.

www.alkottob.com

غيرهم، ويشرد من بعدهم. والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كمـــا يخلـــص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه؛ إذ ما صوه كما يماص الثوب بالماء[٩]...».

كانت هذه الخطبة إعلانا واضحا للثورة على خلافة علي، وعدم الاعتداد ببيعته، فلننظر أمـــر الذين استجابوا لها وموقفهم من علي، ولنختر من رؤوس الناس: طلحة والزبير وبعض رؤوس بني أمية الخليفة الشهيد عثمان بن عفان:

* * *

فأما طلحة فقد طمحت نفسه للخلافة مذ كان أحد الستة أهل الشورى الذين أوصى عمر أن يكون الخليفة بعده أحدهم، فلما صار الأمر لعثمان وكثر الناقمون عليه كان طلحة في طليعتــهم، فلما حصل الثوار في المدينة تهيأ ليكون الخليفة بعد اعتزال عثمان أو قتله، فبادر وعثمان محصـــور

---

(٩) الطبري ٤٦٨/٣ – الإرب: الغائلة والنكر واستعمال الدهاء – خلجوا: تحركوا وطعنوا – التنكيل به: عقوبته عقوبة تحـــذر غيره عن مثل فعله – الموص: الغسل اللين والدلك باليد..

هذا ويروي أبو حيان التوحيدي هذه الرواية الغريبة حقا:

لما قتل عثمان خرجت عائشة والناس مجتمعون، وعلي فيهم (؟!) فقالت: «أقتل أمير المؤمنين عثمان؟» قالوا: «نعم»، قالت: «أما والله لقد كنتم إلى تسديد الحق وتأكيده أحوج منكم إلى ما نهضتم إليه من طاعة من خالف عليه، ولكن كلمـــا زادكـــم الله صحة في دينه ازددتم تثاقلا عن نصرته طمعا في دنياكم. أما والله لهدم النعمة أيسر من بنيالها، وما الزيـــادة إليكـــم بالشـــكر بأسرع من زوال النعمة عنكم بالكفر. أما لئن كان فني أكله، واخترم أجله، إنه لصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وآلـــه مرتين، وما علمنا (خلقا) تزوج ابنتي نبي غيره، ولو غير أيديكم قرعت صفاته لوجد عند تلظي الحرب متجـــردا، ولســـيوف النصر متقلدا، ولكنها فتنة قدحت بأيدي الظلمة.

أما والله لقد حاط الإسلام وأكده، وعضد الدين وأيده، ولقد هدم الله به صياصي أهل الشرك، ووقم (أذل) أركـــان الكفـــر. لله المصيبة به ما أفجعها، والفجيعة به ما أوجعها، صدع الله مقتله صفاة الدين، وثلمت مصيبته ذورة الإسلام؛ تبا لقاتله، أعاذنـــا الله وإياكم من التلبس بدمه والرضا بقتله» ا هـ الإمتاع والمؤانسة ١٩٩/٣.

وهذا الكلام كله مصنوع، أريد به محاكاة أسلوب عائشة في خطبها المحفوظة في أبيها، ولا أطيل عليـــك بتفنيـــده، فحســـبك أن عائشة خرجت من المدينة قبل قتل عثمان ثم لم ترجع إليها إلا بعه وقعة الجمل، و لم تخطب قط بجمع فيهم علي بن أبي طـــالب، وإذن لم تجمع المدينة بينها وبين علي بعد خروجها أيام عثمان قط... وكل هذا مر بك. وقد أورد هذه الخطبة مـــع بعـــض الزيادة أحمد بن طاهر المعروف بطيفور المتوفى سنة (٢٨٠ هـ) في كتابه بلاغات النساء ص ١٤-١٥، وقـــال في آخرهـــا: «وعلي عليه السلام جالس في القوم، فلما قضت كلامها قام وهو يقول: «أرسل الله على قتلته شهابا ثاقبا وعذابا واصبا».

وقد كنت على ظن أن الخطبة من صنع أبي حيان التوحيدي وهو رجل بليغ يولع بمحاكاة الأساليب والوضـــع علـــى أصحابهـــا استطالة ببلاغته، يعرف ذلك عنه ذوو البصر بالكلام وبفقه التاريخ، ولكني لما رأيت ابن أبي طاهر يوردها مع الزيـــادة وقـــد توفي قبل أبي حيان بنحو (١٢٠) سنة أيقنت أنها أقدم صنعا.

www.alkottob.com

وقد قارب أمره التمام، فاتخذ على بيوت الأموال والخزائن - على ما يروي الطبري[١٠] - مفاتيح وحراسا، وكثر لذلك إقبال الناس عليه وازدحامهم على بابه كأنه خليفة. وكان هذا التصرف من طلحة أشد إيلاما لقلب عثمان، فأرسل إلى علي بن أبي طالب فأتاه فاستغاث به وذكره حق الإخاء والقرابة والصهر والعهد والميثاق، وأيسر من هذا كاف في استجابة مروءة علي، فنهض لإغاثة عثمان ووعده خيرا وقال: «سيأتيك الخبر».

ثم خرج فدخل المسجد فرأى أمامه أسامة بن زيد جالسا فدعاه فاعتمد على يده فخرج يمشي إلى طلحة، فلما دخلوا الدار وجدوها غاصة بالناس يموجون فيها فقال علي:

«يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟» فقال: «يا أبا حسن، أبعد ما مس الحزام الطبيين؟»[١١] فانصرف علي و لم يجب بشيء.

وقصد إلى بيت المال فقال: «افتحوا هذا الباب» فلم يقدر على المفاتيح، فقال: «اكسروه» فكسر باب بيت المال فقال: «أخرجوا المال» فجعل يعطي الناس[١٢].

وطار الخبر في أسواق المدينة حتى بلغ الذين في دار طلحة، فجعلوا يتسللون إليه حتى تركوا طلحة في داره وحيدا ينظر والحسرة تأكله.

وبلغ الخبر عثمان فشفى ما في نفسه على طلحة وسر سرورا كبيرا. وأراد طلحة بعد ما سقط في يده أن يعتذر، فاستأذن على عثمان، فلما دخل عليه قال: «يا أمير المؤمنين أستغفر الله وأتوب إليه، أردت أمرا فحال الله بيني وبينه» فقال عثمان:

«إنك والله ما جئت تائبا، ولكنك جئت مغلوبا،،،، الله حسيبك يا طلحة»[١٣].

ولما بويع لعلي تلكأ طلحة عن البيعة، فأرسل حزبه أهل البصرة الأشتر النخعي إليه في نفر منهم ليبايع عليا،، غيظا منهم وحنقا إذ لم ينهض بأمر نفسه كما ينبغي حتى غلبهم أهل مصر

---

[١٠] ٣/٤٥٣.

[١١] الصفحة نفسها - ومس الحزام الطبيين: كناية عن اشتداد الأمر وخروجه من يده - انظر شرحها في الحاشية ص ٧٣.

[١٢] المصدر السابق.

[١٣] الطبري ٣/٤٥١.

www.alkottob.com

ونصبوا (مرشحهم) عليا، فجاؤوا يقودونه بالسيف وقال: «إنما أبايع كرها» وجعل الأشتر يتله تلا عنيفا وسل سيفه وهو يقول: «والله لتبايعن أو لأضربن بين عينيك» فصعد المنبر فبايع. وبعد أيام طلب من علي أن يوليه البصرة وأشار إلى أنه والزبير بايعاه على أنهما شريكاه في الأمر، فاعتذر علي عن توليته بأنه يريد أن يستعين برأيه فيما يعرض له من مشكل.

وأما الزبير: فكان أمره في كل ذلك قريبا من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه: انتقد عثمان ما شاء له النقد، ونقم عليه، ورضي أن يثور الناس به ثم كان الثائرون من أهل الكوفة يصدرون عن رأيه، وأهواؤهم معه، وهم يريدون إن وقع بعثمان حادث إن تؤول إليه الخلافة، فلما لم ينهض للأمر النهوض المطلوب نقم عليه حزبه أيضا، وجاؤوا به ليبايع كرها فبايع، ثم عرض لعلي أن يوليه الكوفة[١٤] فاعتذر بحاجته إليه وإلى طلحة أن يتحمل بهما على أمره.

وأما بنو أمية: فقد أصبحوا مغلوبين من حين قوي أمر الثائرين، فلما وقعت الواقعة بعثمان ثم بويع علي وهم أشد ما يكونون كراهة لولايته، اختفوا، وجعلوا يتسللون هرابا إلى مكة: استعدادا لإحباط أمر علي أو للحاق بمعاوية في الشام، ومعهم الرجال والأموال إذ كان أغلبهم ولاة لعثمان، فلما تركوا ولاياتهم تحملوا بما استطاعوا أخذه من الأموال والظهر والسلاح.

فأنت ترى أن عائشة طالبت بدم عثمان، وسترى أنها اندفعت في هذه السبيل على رغم تحذير المحذرين ونصح أمهات المؤمنين اندفاع الأتي الجارف... حتى جمعت الجموع وأحاط بها كل طامع وكل ذي ثأر عند أصحاب علي وكل كاره لخلافته؛ مع آخرين خرجوا معها بعقيدة مخلصة بريئة: مغيرين منكرين مطالبين بإقامة الحدود. وخرجت بهذه الجماهير من الحجاز حتى وافت العراق، فلم يكن من محيص دون القتال ومؤرثو الشر منتشرون متكاثرون في جماعتها وجماعة علي.

* * *

تفرق الناس في أمر علي فرقا، أبعدها أثرا تلك التي كرهت ولايته سرا وأعلنت وجوب الثأر لعثمان من الغوغاء. وهذا إعلان فيه من التعجيز أكثر مما فيه من القصد الصحيح، وكان رأي

---

[١٤] الصفحة السابقة.

www.alkottob.com

علي في هذه القضية رأيا سديدا ملموسا صوابه، قد ألم المؤرخ الطبري بالوجوه المختلفة فيها وموقف الأعلام منها فقال:

«اجتمع إلى علي بعد ما دخل طلحة والزبير عدة من الصحابة فقالوا: «يا علي إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم» فقال لهم: «يا إخوتاه، إني لست أجهل ما تعلمون، ولكني كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا... فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟» قالوا: «لا» قال: «فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله... إن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق.... فاهدؤوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا».

واشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج.... وإنما هيجه على ذلك هرب بني أمية.

وتفرق القوم: بعضهم يقول: «والله لئن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار، لترك هذا إلى ما قال علي أمثل». وبعضهم يقول: «نقضي الذي علينا ولا نؤخره، والله إن عليا لمستغن برأيه وأمره عنا، ولا نراه إلا سيكون على قريش أشد من غيره». فذكر ذلك لعلي فقام فحمد الله وأثنى عليه، وذكر فضلهم وحاجته إليهم ونظره لهم وقيامه دونهم، وأنه ليس له من سلطانهم إلا ذلك والأجر من الله عز وجل عليه»[١٥].

ثم أمر علي أن يرجع كل عبد إلى مواليه ونادى في الناس: «أيها الناس أخرجوا عنكم الأعراب»، ونادى في الأعراب: «يا معشر الأعراب الحقوا بمياهكم». وهو يريد بذلك أن ينفرد الوالغون في دم عثمان من السبئية، فلا يجدون مددا لهم من الغوغاء، فيستطيع حينئذ أن يثأر منهم. ولكنهم كانوا أفطن لمراده، فرفضوا الخروج وتبعتهم الأعراب.

---

(١٥) الطبري ٣/٤٥٨،٤٥٩.

www.alkottob.com

ولما دخل عليه بعد ذلك طلحة والزبير وعدة من أصحاب النبي فيهم الذين يحرجونه بطلب الثأر من القتلة، قال لهم علي: «دونكم ثأركم فاقتلوه». فأظهروا عجزهم عن ذلك فأعلمهم أنهم بعد اليوم أعجز وتمثل:

ولو أن قومي طاوعتني سراقم أمرقم أمرا يديخ الأعاديا

فانبرى طلحة يقول: «دعني فلآت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا في خيل»[١٦]. فعلم علي ما يجول في نفوسهما فأجابهما: «حتى أنظر في ذلك».

فمما تقدم عرفت أن عليا محيط بهذه القضية من جميع وجوهها، وأنه مطلع على تفرق الناس فيها ووجهة نظر كل فرقة، وأن حكمه فيها على غاية من الحصافة والسداد، كما لم يخف عليه شيء من النوازع المكتومة في نفوس طلحة والزبير وغيرهما.

* * *

وليكون تصويرنا الحالة السياسية كاملا نرى من اللازم الإشارة إلى مجمل ما كان من موقف الأمصار من بيعة علي وطاعته، ثم نعود إلى حديث طلحة والزبير وعائشة وأشياعهم:

بادر علي إلى عزل عمال عثمان والاستبدال بهم، وكان رأي ابن عمه عبد الله ابن عباس وإقرارهم إلى أن تستقر الحال وتأتي عليا بيعة الأمصار كافة، ثم يكون أهون الأمور تغيير العمل. أما اجتهاد علي فقد كان اجتهادا (قضائيا) لا إداريا سياسيا، ومن هنا تزعزع أمره، إنه يرى أن هؤلاء العمال غير صالحين؛ ومن فسادهم وجورهم كانت هذه الشكاوى والثورات التي انتهت بأكبر فاجعة في التاريخ العربي، وإن بقاءهم ولو لحظة إقرار للظلم والفساد يحاسب الله عليه، وإلا ففيم نقموا على عثمان؟

لم تفد إشارة النصحاء: ابن عباس والمغيرة وغيرهما شيئا، و لم تصرف عليا عن رأي اعتزمه على رغم التحذير الذي حذره. ففرق عماله على الأمصار: أرسل سهل بن حنيف إلى الشام بدلا من معاوية وكان عرض ولاية الشام على ابن عباس فأبى، وأرسل عبيد الله بن عباس إلى اليمن، وعثمان بن حنيف إلى البصرة، وعمارة بن شهاب إلى الكوفة. وكان أشار عليه عبد الله بن عباس

---

(١٦) الطبري ٣/٤٥٨،٤٥٩.

www.alkottob.com

أن يولي البصرة والكوفة طلحة والزبير، وبذلك يكفى أمرهما وأمر هذه الشكايات التي يبثونها في مجالس قريش بعد أن أظهر علي أنه غير موليهما شيئا، وكان الزبير لا يشك أنه موليه العراق وطلحة موقن بولاية اليمن، فلم يجب علي ابن عباس توجسا منهما، وكان احتجاج علي على ابن عباس قوله:

«ويحك، إن العراقيين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان؛ ولو كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام. ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي»[١٧]».

سار عمال علي إلى أمصارهم، فأما والي الشام سهل بن حنيف فما كاد يبلغ تبوك حتى ردته خيل الشام قائلة: «إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك، وإن كان غيره بعثك فارجع» فرجع إلى علي. وأما والي اليمن عبيد الله بن عباس فسار إلى اليمن فوجد واليها السابق يعلي بن أمية[١٨] قد خرج منها بالحامية والأموال إلى مكة. وأما والي البصرة عثمان بن حنيف فدخل البصرة دون شغب. وأما والي مصر فقد دخل مصر بالحيلة وبقي أهلها شيعا بعضهم معه وبعضهم اعتزل.

وأهم عليا أمر الشام قبل غيره، فأرسل عقب رجوع عامله عنها رسولا إلى معاوية ليبايع فلم يرد معاوية جوابا وماطل الرسول حتى شهر صفر، ثم دعا برجل من عبس فدفع إليه طومارا مختوما عنوانه (من معاوية إلى علي) وأوصاه أن يدخل المدينة قابضا على الطومار من أسفله، وأوصاه بقول يقوله، ثم سرح معه رسول علي...

فقدما المدينة في أول شهر ربيع الأول، فلما دخلاها رفع العبسي الطومار كما أمره معاوية، وقرأه الناس فعلموا منه أن معاوية غير مبايع. ودخل العبسي على علي فسلمه الطومار، ففض خاتمه علي فرآه فارغا لا كتاب فيه فسأل الرسول: «ما وراءك؟» قال: «أآمن أنا»؟ قال: «نعم

---

(١٧) تاريخ الخلفاء الراشدين لبعد الوهاب النجار ص ٣٨٥.

(١٨) ويقال له أيضا: (يعلي ابن منية) ومنية اسم أمه، صحابي أسلم وشهد مع رسول الله تبوك، وكان يقول: «غزوت مع رسول الله جيش العسرة، وهو من أوثق أعمالي في نفسي» - طبقات ابن سعد ٥/٣٣٧، والذي يعنينا من أمره هنا أن أبا بكر استعمله على حلوان في الردة، ثم عمل لعمر على بعض اليمن فحمى لنفسه حمى فعزله عمر، ثم عمل لعثمان على صنعاء اليمن وحج سنة قتل عثمان... الإصابة الترجمة ٩٣٦٠).

www.alkottob.com

فإن الرسل آمنة لا تقتل» قال: «ورائي أني تركت قوما لا يرضون إلا بالقود (القصاص) قال: «ممن» قال: «من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق[١٩]». فقال علي: «أمني يطلبون دم عثمان؟ ألست موتورا كثرة عثمان؟ اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان. نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله». وصرف العبسي، فعاد يسأله: «وأنا آمن؟» قال: «وأنت آمن» فلما خرج العبسي صاحت به السبئية: «هذا الكلب وافد الكلاب، اقتلوه» فنادى «يال مضر، يال قيس، الخيل والنبل، أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا: كم الفحولة والرتاب..»، وتهافتوا يريدون أذاه فمنعته مضر وهم يقولون له: «اسكت» فيقول: «لا والله، لا يفلح هؤلاء أبدا فلقد أتاهم ما يوعدون» فيقولون: «اسكت» فيقول: «لقد حل بهم ما يحذرون، انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم[٢٠]». فما أمسى السبئية حتى عرف الذل فيهم. ولا ريب أن هذه الأقوال هي التي أوصله معاوية بإعلانها وكأنه تنبأ بما سيقع له. وكان هذا أول الذل وقع على قتلة عثمان.

لما أعلن معاوية خلافه على علي، أشار نصحاء علي بالأناة والكف، وكان ابنه الحسن قد نصحه بالقعود وترك الناس وشأنهم، فلم يضغ إليه. وكانت الجماهير في قلق من أمر معاوية لا يعلمون ماذا سيقضي فيه علي؟ أيلجأ إلى الرفق أم إلى السيف، فدسوا إليه أحد ثقاته المنقطعين إليه: زياد بن حنظلة «فدخل[٢١] عليه فجلس إليه ساعة ثم قال له علي»:

«تيسر يا زياد»

فقال: «لأي شيء يا أمير المؤمنين».؟

قال: نغزو الشام.

قال زياد: الرفق والأناة أمثل:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

---

[١٩] وفي العقد الفريد (٣/٨٨) أنه لما قرئ كتاب نائلة زوج عثمان تصف كيف قتل، حلف رجال من أهل الشام: ألا يمسوا غسلا حتى يقتلوا عليا أو تفنى أرواحهم.

[٢٠] الطبري ٣/٤٦٤.

[٢١] الجزء نفسه ص ٤٦٥.

www.alkottob.com

فتمثل علي وكأنه لا يريده:

متى تجمع القلب الذكـــــي وصارمـــا وأنفـــا حميـــا تجتنبـــــك المظـــــالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه فقالوا: «ما وراءك؟» فقال: «السيف يا قوم»، فعـــرف الناس عزيمته، ولم يكن ينتظر من علي غير هذا.

استعد علي للقتال وعبأ جيشه فدفع اللواء إلى ابنه محمد بن الحنفية وولى عبد الله بن عبـــــاس على ميمنته، وجعل على الميسرة قائدا واستدعى أبا ليلى بن عمر ابن الجراح ابن أخي (أبي عبيـدة بن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة) وقائد فتح الشام، وواليها، وأمين هذه الأمة....)، فجعله على المقدمة واستخلف على المدينة قثم بن العباس وأخذ في التهيؤ.

وفي هذه الحال أتاه طلحة والزبير يريدان اللحاق بمكة فقالا: «يا أمير المؤمنين ائـــذن لنـــا إلى العمرة فإن تقم إلى انقضائها رجعنا إليك وإن تسر نتبعك، فنظر إليهما وقال: «نعـــم، والله مـــا العمرة تريدان، امضيا إلى شأنكما» فمضيا.

www.alkottob.com

الفصل الثالث

عائشة في طريقها إلى البصرة

الائتمار على الخروج إلى البصرة:

ذلك إجمال يصور لك الحالة تصويرا شاملا، والآن نعود بك إلى أمر عائشة فقد تركناها (ص ٨٥) تخطب الجماهير في مكة أول خطبها المثيرة تحضهم على الأخذ بثأر عثمان قبل كل شيء.

كان وقع الخطبة على أسماع بني أمية وسائر الساخطين إمارة علي بردا وسلاما، أو كوقع المطر في الأرض الجدبة؛ فلما فرغت من خطبتها كان أول من استجاب لها عبد الله بن عامر الحضرمي والي عثمان على مكة فقام وقالت: «هأنذا لها أول طالب». وكان هذا سألها لما رجعت من طريق المدينة: «ما ردك يا أم المؤمنين؟» قال: «ردني أن عثمان قتل مظلوما، وأن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام».

وأجابها بنو أمية بالحجاز وكانوا قد استتروا فرفعوا رؤوسهم، ثم لما قدم طلحة والزبير مكة - على ما سبق آنفا - سألت عائشة: «ما وراءكما؟» فقالا: «وراءنا أنا تحملنا هرابا من المدينة من غوغاء وأعراب، وفارقنا قوما حيارى لا يعرفون حقا ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم». فقالت: «فائتمروا أمرا ثم انهضوا إلى الغوغاء» وتمثلت:

ولو أن قومي طاوعتهم سراتهم لأنقذتهم من الحبال أو الخبل[(١)]

وجلس القوم يأتمرون: أين يقصدون بجموعهم؟

أما عائشة فكانت تريد أن يذهبوا إلى المدينة فيقضوا على أمر الغوغاء والأعراب ويثأروا هناك من قتلة عثمان الذين عجلوا الأمر لعلي بن أبي طالب. وبذلك تقوض خلافته قبل أن يثبت لها ركن.

---

(١) الجزء السابق ص ٤٦٩.

www.alkottob.com

وقال قائل: «نقصد الشام» فلم يرض بنو أمية ذلك لأنهم يعدون الشام في حوزتهم وإليها ملجؤهم أخيرا إن نزلت بهم نازلة. ثم الأمر مستتب لهم فيها بمعاوية فلا يريدون له إفسادا، وهم من هذه اللحظة يضعون حجر الأساس للخلافة الأموية أو للملك الأموي على الأصح، بسعيهم في ضرب علي طلحة والزبير والمدنيين والعراقيين: بعضهم ببعض. لذلك،، نهض متكلمهم عبد الله بن عامر فقال: «قد كفاكم الشام من يستمر حوزته». وبهذا أبعدوا عن الشام ومعاوية كل شغب. فسألوا عبد الله هذا وكان – على ما علمت – والي البصرة لعثمان: «فأين نقصد؟» فقال: «البصرة فإن لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى». فقالوا: «قبحك الله، فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفي بك فنسد على هؤلاء القوم المذاهب؟»».

وهذا دليل آخر على أن الأمويين يصدرون عن رأي واحد إلى هدف واحد منذ الساعة، فقد نقموا على ابن عامر إخلاءه البصرة لما عزله علي، وكان عليه أن يبقى فيها ولا يبايع لعلي ويتربص كما فعل معاوية، وهذا مفهوم بصراحة في جوابهم له.

ثم أجمع رأيهم على ترك المدينة إذ لا طاقة لهم بمن فيها، وقصد البصرة لأن أهل هذين المصرين البصرة والكوفة هواهم في طلحة والزبير. فلما اتفقوا على البصرة اعتذروا لعائشة عن قصد المدينة وقالوا: «يا أم المؤمنين دعي المدينة فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها، واشخصي معنا إلى البصرة فإنا نأتي بلدا مضيعا، وسيحتجبون علينا فيه ببيعة علي بن أبي طالب فتنهضينهم، كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين؛ فإن أصلح الله الأمر كان الذي تريدين، وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الأمر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد[٢]».

وجاد بنو أمية لهذا الخروج بالأموال دون حساب، فإن والي اليمن يعلي بن أمية لما عزله علي عنها قدم بالأموال فكان معه ست مئة بعير وست مئة ألف درهم، فعسكر بالأبطح وجعل هذه الأموال وقفا على فساد أمر علي. وكذلك ابن عامر فقد كان يجر الدنيا جرا، ونادى المنادي:

«إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة، فمن كان يريد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان و لم يكن عنده مركب و لم يكن له جهاز... فهذا جهاز وهذه نفقة».

---

[٢] الطبري ٣/٤٧٠.

www.alkottob.com

فحملوا ست مئة رجل على ست مئة ناقة سوى من كان له مركب، وكانوا جميعا ألفا. وأعان يعلي بن أمية وحده بأربع مئة ألف وحمل سبعين رجلا من قريش، وقدم عبد الله بن عامر مالا كثيرا، فلما فصلوا من مكة بلغ عددهم - على ما يقول الطبري - ثلاثة آلاف(٣).

نصح أم سلمة لعائشة:

لعلك ما زلت تذكر أن أم المؤمنين أم سلمة كان ميلها إلى علي بن أبي طالب، به وكانت تتقوى منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن عليا كان يشد أزرها فيما كان ينجم بينها وبين عائشة مما يكون عادة من المنافسة بين الضرائر (ص٧٧)، وبقيت أم سلمة حافظة لود علي مدى حياتها رضي الله عنها تتعصب له وتحطب في حبله.

فلما اعتزمت عائشة الخروج على علي، لم تألها أم سلمة نصحا و لم تقصر في الخير لعلي، حتى إذا لم يجد النصح، وحبط مسعاها (السياسي) أرسلت ابنها يحارب مع علي فكان ذلك غاية ما تملك من نصرة دعوته، وقدمته لعلي بهذه الكلمات:

«يا أمير المؤمنين، لولا أن أعصي الله عز وجل وأنك لا تقبله مني لخرجت معك؛ وهذا ابني عمر، والله لهو أعز علي من نفسي: يخرج معك فيشهد مشاهدك». فخرج فلم يزل معه(٤).

كل هذا واقع لا شك فيه، فلقد بذلت جهدها وما تملك من نصر لعلي. لكن الشك يعروني فيما ينقل ابن أبي الحديد من أقوال يعزوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم تذكر بها أم سلمة عائشة فتذكرها هذه ومع تذكرها تمضي في خروجها!! والمعروف عن عائشة وتدينها أن أقل من هذه الروايات - لو صحت - كاف في ردعها. مع هذا فمن الواجب أن أنقل لك ما روى ابن أبي الحديد:

قالت أم سلمة لعائشة:

إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان وتقولين فيه أخبث القول، وما كان اسمه عندك إلا نعثلا، وإنك لتعرفين مترلته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أفأذكرك؟» قالت: «نعم».

---

(٣) ص ٤٧١.

(٤) الصفحة السابقة - واستعمل علي ابنها عمر هذا على البحرين ثم عزله.

www.alkottob.com

قالت أم سلمة: «أتذكرين يوم أقبل[٥]... إلخ» قالت: «نعم أذكر ذلك». قـــالت: «وأذكـــرك أيضا: كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عله وسلم، وأنت تغسلين رأسه وأنا أحيـــس لـــه حيسا[٦] وكان الحيس يعجبه، فرفع رأسه وقال: «يا ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبـــب، تنبحها كلاب الحوءب، فتكون ناكبة عن الصراط؟» فرفعت يدي من الحيس فقلت: «أعوذ بالله وبرسوله من ذلك» ثم ضرب على ظهري وقال: «إياك أن تكوينها يابنت أبي أمية[٧] إيـــاك أن تكوينها يا حميراء، أما أنا فقد أنذرتك». قالت: «نعم أذكر هـــذا». فقـــالت: «وأذكـــرك.... (وذكرت مسألة استخلافه لعلي وهي ما أجمع الثقات على رده)»: قالت عائشة: «أذكر ذلك». فقالت حينئذ أم سلمة: «فأي خروج تخرجين بعد هذا؟» فقالت: إنما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله». فقالت أم سلمة: «أنت ورأيك[٨]».

وأقرر هنا أن بعض هذا - لو صح وقوعه - كاف في إقلاع السيدة عـــن خروجـــها، وفي حملها على الرجوع إلى بيتها وسنتكم على حديث الحوءب هذا.

أما الرواية التي لا تحمل من الشك مثل ما تحمل الرواية المتقدمة فهي النصيحة المشهورة الـــتي تذكرها كتب الأخبار وكتب الأدب وكتب اللغة معا، وإليك إياها:

أتت أم سلمة عائشة لما أرادت الخروج إلى البصرة فقالت لها:

«إنك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته، وحجابك مضروب على حرمته، وقـــد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه، وسكن عقيراك فلا تصحريها. الله من وراء هذه الأمة؛ لـــو أراد رسول الله أن يعهد إليك عهدا علت، بل نهاك رسول الله عن الفرطة في البلاد. إن عمود الإسلام لا يثأب بالنساء إن مال، ولا يرأب بهن أن صدع. حماديات النساء غض الإطراق وخفر الأعراض وقصر الوهازة. ما كنت قائلة أن رسول الله عارضك ببعض الفلوات: ناصة قلوصا من منـــهل إلى آخر؟ إن بعين الله مهواك، وعلى رسول تردين وقد وجهت سدافته وتركت عهيداه.

---

[٥] مرت هذه الفقرة وتعليقنا عيها ص ٨٠.

[٦] الحيس: الخلط، وهو طعام يتخذ من تمر يخلط بسمن وأقط.

[٧] أم سلمة.

[٨] شرح نهج البلاغة ٢/٧٨.

www.alkottob.com

لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي «ادخلي الفردوس» لاستحييت أن ألقى محمدا هاتكة حجابا قد ضربه علي. اجعلي حصنك بيتك، ووقاعة الستر قبرك حتى تلقينه وأنت على تلك: أطوع ما تكونين لله ما لزمته، وأنصر ما تكونين للدين ما جلست.

لو ذكرتك قولا تعرفينه لنهشت نهش الرقشاء المطرق[(٩)]».

فقالت عائشة:

«ما أقبلني لوعظك، وليس الأمر كما تظنين، ولنعم المسير مسير فزعت إلي فئتان متناجزتان. إن أقعد ففي غير حرج، وإن أخرج فإلى ما لا بد لي من الازدياد منه ا هـ».

وهذا كلام - على تكلفه وتصنعه - يجوز أن يدور بين أم سلمة وعائشة، وهو أشبه بالواقع وأقل حظا من الشك، ووجود كبير من مفرداته في معاجم اللغة: تشرح ويشار إلى أنها في كلام

---

(٩) الفائق للزمخشري ٢٩٠/١، والعقد الفريد ٩٦/٣، وشرح نهج البلاغة ٧٩/٢ وقد عزاها هذا إلى ابن قتيبة في كتابه المصنف في غريب الحديث في باب أم سلمة. وابن قتيبة عل ما مر بك حشا كتبه بالأهواء التي تحاماها ثقات المؤرخين كابن خلدون (انظر ص ٨ من هذا الكتاب).

الشرح: السدة الباب (فإذا نابه أذى فقد ناب رسول الله). ندح: فتح ووسع. العقيري: مصغر عقر الدار (قال ابن قتيبة: لم أسمع بعقيري إلا في هذا الحديث) والمعنى: لا تبارحي بيتك الذي أمرت بلزومه. أصحر خرج إلى الصحراء. علت: من العول وهو الميل عن الحق. الفرطة: التقدم والسبق. يتأب: يقوم إذا مال.. يرأب: يلأم. صدع: شق. حماداك: قصاراك وغاية أمرك. غض الأطراف (هكذا في رواية ابن قتيبة، وقد رواها كذلك الزمخشري ثم ردها إلى ما صحفت عنه وهو: غض الإطراق أي يغضضن أبصارهن مطرقات). الخفر: الستر والحفظ. الوهازة: الخطوة ومشية المستحييات. النص: الدفع في السير.. القلوص: الفتية من الإبل السدافة (وفي رواية السجافة): الستر، وتوجيهها، هتكها. العهيدي: العهد.. الوقاعة: الموقع على الأرض. النهش: العض. الرقشاء: الأفعى المنقطة. المطرقة: من صفات الأفعى والسبع.

هذا وينفرد اليعقوبي في تاريخه (٢٠٩/٢) برواية تذهب إلى أن عائشة لما حرضها طلحة والزبير أتت أم سلمة تستشيرها قائلة: «إن ابن عمي وزوج أختي (طلحة والزبير) أعلماني أن عثمان قتل مظلوما وأن أكثر الناس لم يرض ببيعة علي، وأن جماعة من بالبصرة قد خالفوا، فلو خرجت بنا لعل الله أن يصلح أمر أمة محمد على أيدينا».

فقالت لها أم سلمة: «إن عماد الدين لا يقام بالنساء، حماديات النساء غض الأبصار وخفض الأطراف وجر الذيول، إن الله وضع عني وعنك هذا. ما أنت قائلة لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضك بأطراف الفلوات: هاتكة حجابا قد ضربه عليك!» فيروي اليعقوبي أن عائشة رجعت عن قصدها وأن مناديها نادى: «ألا إن أم المؤمنين مقيمة فأقيموا». ثم أتاها طلحة والزبير وأزالاها عن رأيها وحملاها على الخروج ا هـ.

www.alkottob.com

أم سلمة لعائشة.... باعث على بعض الاطمئنان، وإن كنت لا أمنع جواز الزيادة في الرواية، وإني من الجملة الأخيرة في قول أم سلمة - خاصة - لفي بعض الشك[١٠].

يوم النحيب:

وهكذا أزمع القوم الرحيل وانشقت - لأمر يريد الله تمامه - عصا المسلمين، وخرجوا يبغي بعضهم لبعض الأذية والنكال، منهم من خرج حمية ونصرة لما يزعم أنه مصلحة المسلمين، ومنهم من خرج دسيسة وغشا، لأمر يخفيه ويظهر غيره.

كان أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قد تأخرن يردن الرجوع مع السيدة عائشة إلى المدينة، فلما صرفها طلحة والزبير وبنو أمية عنها إلى البصرة عزمن على الرجوع إلى المدينة، إلا حفصة فإنها قالت: «رأيي لرأي عائشة تبع» وأرادت أن تخرج مع عائشة إلى البصرة، فإنهما كانتا حزبا واحدا منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن أخاها عبد الله بن عمر منعها وطلب إليها أن تقعد كما قعد أخواتها أمهات المؤمنين، فقعدت وأرسلت إلى عائشة تعتذر قائلة: «إن عبد الله حال بيني وبين الخروج». فقالت عائشة: «يغفر الله لعبد الله»[١١].

---

(١٠) أورد كلام أم سلمة هذا ابن أبي طاهر في كتابه (بلاغات النساء) عقب كلامها أيضا في نصيحتها لعثمان وجوابه لها ثم قال: «زعم لي ابن أبي سعد: (أنه صح عنده أن العتابي كلثوم بن عمرو صنع هذين الحديثين) وقد كتبتهما على ما فيهما» انظر ص ١١ وما قبلها في (بلاغات النساء) - وما أشبه هذا بالحق! فتأمل.

(١١) الطبري ٤٧٠/٣.

وزعم صاحب الإمامة والسياسة (٩٩/١ مطبعة النيل سنة ١٩٠٤) أنه لما استقام أمر أصحاب الجمل واجتمعت كلمتهم على المسير قال طلحة للزبير: «إنه ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن تشخص عبد الله بن عمر». فأتياه فقالا: «يا أبا عبد الرحمن، إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس، فاشخص معنا فإن لك بها إسوة، فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها» فقال ابن عمر: «أيها الشيخان أتريدان أن تخرجاني ثم تلقياني بين مخالب ابن أب طالب؟!... إن الناس إنما يخدعون بالدينار والدرهم، وإني قد تركت هذا الأمر عيانا في عافية أنالها» فانصرفنا عنه ا هـ.

والظاهر أن وجود ابن عمر في هذه الفتنة من أكبر ما اشتهى أربابها والنافخون فيها، فقد كان بعد هذا الرفض من ابن عمر أن «غدا مروان على طلحة والزبير فقال لهما: «عاودا ابن عمر فلعله ينيب» فعاوداه فتكلم طلحة فقال: «يا أبا عبد الرحمن، إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه، فلما حضر العذر قضينا بالحق وأخذنا بالحظ! إن عليا يرى إنفاذ بيعته، وإن معاوية لا يرى أن يبايع، وإنا نرى أن نردها شورى، فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور وإلا فهي الهلكة»، الإمامة والسياسة ١٠٣/١.

فكان من احتجاج عبد الله بن عمر على طلحة والزبير قوله لهما: «واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها، وأنتما: المدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليا إلا هو خير منه. وأما الشورى قد والله كانت فقدم

www.alkottob.com

ثم خرجت الجماهير من مكة يملأ قلوب كثير منهم الأسف على مغادرتها، والحزن قد شملهم شمل المودعين، ونظر عبد الله بن الزبير إلى البيت مودعا متحسرا فقال: «ما رأيت مثلك بركة طالب خير ولا هارب من شر»[١٢].

* * *

ثم خرجت عائشة بعد خروج طلحة والزبير، فتبعها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق[١٣] «فلم ير يوم أكثر باكيا على الإسلام أو باكيا له من ذلك اليوم. وكان يسمى: يوم النحيب»[١٤].

لما تنامت الجموع المستجيبة لأمر عائشة وطلحة والزبير، خرجوا في نحو ثلاثة آلاف، ولم يدخر هؤلاء الزعماء طاقة في استفزاز أكبر عدد ممكن، وكان معهم أكثر الأمويين إلا من كسره الخوف منهم؛ وأرجو منذ الآن أن تنتبه إلى (الدور المحكم) الذي يقوم به هؤلاء، فإن يكن بعض الناس أظهر الثأر لعثمان وأبطن شيئا آخر فإن الأمويين هم المنفردون فقط بالصدور عن خطة مرسومة لبلوغ هدف محدد كتموه وأظهروا الغضب لعثمان.

ولما ودع الناس بعضهم بعضا على ما مر بك ورجع أمهات المؤمنين من ذات عرق، لقي سعيد بن العاص (أحد سروات الأمويين) مروان بن الحكم وأصحابه فقال لهم: «أين تذهبون وثأركم على أعجاز الإبل؟ (يريد طلحة والزبير وعائشة)، اقتلوهم ثم ارجعوا إلى بيوتكم لا تقتلوا أنفسكم». قال مروان: «بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا».

وأخرتما، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها، فاكفياني أنفسكما» فانصرفا. لكن مروان يلح ويشير على طلحة والزبير أن يسعينا عليه بأخته حفصة، فأتيا حفصة فقالت: «لو أطاعني أطاع عائشة، دعاه...» فتركاه وتوجها إلى البصرة.

لقد كان ابن عمر - سواء أصحت هذه الروايات أو لم تصح - من الرجاحة وبعد الغور ونفاذ البصيرة أكثر مما قدر طلحة والزبير، ولم يكن يعرف ميزته هذه أحد مثل أبيه عمر.

فقد كان يقدر ولده حق قدره، ولأمر ما جعله أحد الستة أصحاب الشورى على حداثته وجلالتهم.

[١٢] هكذا في الطبري ٤٧١/٣ والذي في تهذيب تاريخ ابن عساكر (٤٠٩/٧): أن الزبير نفسه لما سار من مكة إلى البصرة، التفت إلى البيت بعد ما ودع وتوجه يريد الركوب فأقبل على ابنه عبد الله هذا وقال: «أما والله ما رأيت مثله لطالب رغبة أو خائف رهبة».

[١٣] ذات عرق: موضع يهل منه أهل العراق بالحج وهو الحد بين نجد وتهامة - معجم البلدان.

[١٤] الطبري ٤٧٨/٣.

www.alkottob.com

ويجعل صاحب (الإمامة والسياسة) هذا اللقاء في أوطاس من خيبر حيث كان سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة. ويروى أن سعيدا أشرف على الناس وقال لعائشة: «أين تريدين يا أم المؤمنين؟» فقالت: «أريد البصرة» قال: «وما تصنعين بالبصرة؟» قالت: «أطلب بدم عثمان». قال: «فهؤلاء قتلة عثمان معك». ثم أقبل على مروان فقال له: «وأنت أين تريد أيضا؟» قال: «البصرة» قال: «وما تصنع بها؟» قال: «أطلب قتلة عثمان» قال: فهؤلاء قتلة عثمان معك، إن هذين الرجلين (يريد طلحة والزبير) قتلا عثمان، وهما يريدان الأمر لأنفسهما، فلما غلبا عليه قالا: نغسل الدم بالدم، والحوبة بالتوبة».

ثم قال المغيرة بن شعبة: «أيها الناس، إن كنتم خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيرا لكم، وإن كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان، وإن كنتم نقمتم علي علي فبينوا ما نقمتم عليه؛ أنشدكم الله: فتنتين في عام واحد؟!!» فأبوا إلا أن يمضوا بالناس. ثم لحق سعيد بن العاص باليمن، ولحق المغيرة بالطائف فلم يشهدا شيئا من حرب الجمل وصفين[١٥].

لكن سعيدا أراد أن يسهم في عمل الأمويين المزدوج وهو إلقاء الشر وإضعاف كل جماعة غير جماعتهم، وقد عزم على ألا يخرج فلا أقل من مسعى من الدعاية، فخلا بطلحة والزبير فقال: «إن ظفرتما فلمن تجعلان الأمر؟ أصدقاني» قالا: «لأحدنا، أينا اختاره الناس». قال: «بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه». قالا: «ندع شيوخ المهاجرين ونجعلهم لأبنائهم؟!» قال سعيد: «لا أراني أسعى لأخرجها من بني عبد مناف» فرجع ورجع معه غيره. وكان المغيرة بن شعبة وهو أحد دهاة العرب حاضرا فقال: «الرأي ما رأى سعيد». ثم نادى: «من كان ها هنا من ثقيف فليرجع» وكذلك كان. وهذا أول وهن وقع في هذا العسكر، وتكفل مروان بالباقي على ما سيأتي.

فصل القوم من مكة، فلما بعدوا حان وقت صلاة، فأذن مروان ثم وقف على طلحة والزبير فقال: «على أيكما أسلم بالإمرة وأؤذن بالصلاة؟» فقال عبد الله بن الزبير: «على أبي عبد الله الزبير» وقال محمد بن طلحة: «على أبي محمد طلحة» وكاد يظفر كيده في الإفساد لولا أن أرسلت عائشة إلى مروان تقول له: مالك؟ أتريد أن تفرق أمرنا؟ ليصل ابن أختي» فكان يصلي

---

(١٥) الإمامة والسياسة.

www.alkottob.com

بهم عبد الله بن الزبير[١٦]. وكان التعقيب المنتظر على هذا الحادث لمعاذ بن عبيد الله الذي قال: «والله لو ظفرنا لافتتنا: ما خلى الزبير بين طلحة والأمر (يعني الخلافة) ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر».

* * *

الجمل والحوءب[١٧].

حملت عائشة على جمل شديد قوي اسمه (عسكر)، اشتراه لها يعلي ابن أمية بثمانين دينارا وبه سميت هذه الفتنة كلها بيوم (الجمل)، نسبة إلى هذا الجمل الذي حملوا عليه هودج عائشة. ولرواة الأخبار في هذا الجمل وفي ماء مروا به في الطريق اسمه (الحوءب) قصة محفوظة طريفة نحن ذاكروها لك على لسان صاحب الجمل نفسه وكان دليل القوم في أول الطريق:

حدث العربي صاحب الجمل قال:

«بينما أنا أسير على جمل إذ عرض لي راكب فقال:

يا صاحب الجمل، تبيع جملك؟

قلت: نعم

قال: بكم؟

قلت: بألف درهم.

قال: أمجنون أنت؟ جمل يباع بألف درهم؟

قلت: نعم، جملي هذا.

قال: وممم ذلك؟

---

[١٦] رشحت عائشة بعد ذلك للصلاة عبد الرحمن بن عتاب فكان يصلي بالناس، وكان - على رواية الطبري - عدلا بينهم.

[١٧] الحوءب: ماء في طريق الذاهب من المدينة إلى البصرة.

وفي كتاب فصيح ثعلب: أنه ماء من مياه العرب على طريق البصرة، وأنشد لدكين بن سعيد:

ما هي إلا شربة بالحوءب فصعدي من بعدها وصوبي

www.alkottob.com

قلت: ما طلبت عليه أحدا قط إلا أدركته، ولا طلبني وأنا عليه إلا فته.

قال: لو تعلم لمن نريده لأحسنت بيعنا.

قلت: لمن تريده؟

قال: لأمك.

قلت: لقد تركت أمي في بيتها قاعدة لا تريد براحا.

قال: إنما أريده لأم المؤمنين عائشة.

قلت: فهو لك، فخذه بغير ثمن.

قال: لا ولكن ارجع معنا إلى الرحل فلنعطك ناقة مهرية ونزيدك دراهم.

قال العربي: فرجعت فأعطوني ناقة مهرية وزادوني أربع مئة أو ست مئة[١٨]. فقال لي: «يا أخا عرينة، هل لك دلالة بالطريق؟» قلت: «نعم، أنا من أدل الناس» قال: «فسر معنا فسرت معهم فلا أمر على واد ولا ماء إلا سألوني عنه حتى طرقنا ماء الحوءب فنبحتنا كلابها، قالوا: «أي ماء هذا؟» قلت: «ماء الحوءب» فصرخت عائشة بأعلى صوتها ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته ثم قالت: «أنا والله صاحبة كلاب الحوءب طروقا، ردوني ردوني ردوني». فأناخت وأناخوا حولها، وهم على ذلك وهي تأبى... حتى كانت الساعة التي أناخوا فيها من الغد، فجاءها ابن الزبير قال: «النجاء النجاء... فقد أدرككم والله علي بن أب طالب». فارتحلوا وشتموني فانصرفت[١٩].

---

[١٨] أما ابن أبي الحديد فإنه لم يعدم في ذلك حديثا ينسبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قصة غريبة يصعب تصديقها لأنها تظهر السيدة عائشة هذه المخلوقة الذكية بمظهر المغفلة، لكن ذلك لا يمنع ابن أبي الحديد من إثباتها مهما يكن فيها من تهافت، أليس فيها حديث يزعم نسبته إلى الرسول يشير إلى هذا الجمل «عسكر»؟ قال:

لما عزمت عائشة على الخروج إلى البصرة طلبوا لها بعيرا أيدا يحمل هودجها، فجاءهم يعلي بن أمية ببعيره المسمى عسكر، وكان عظيم الخلق شديدا، فلما رأته أعجبها وأنشأ الجمال يحدثها بقوته وشدته ويقول في أثناء كلامه: «عسكر»؛ فلما سمعت هذه اللفظة استرجعت وقالت: «ردوه، لا حاجة لي به»، وذكرت حيث سئلت: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لها هذا الاسم (!!) ونهاها عن ركوبه!!»، وأمرت أن يطلب لها بعير غيره، فلم يوجد ما يشبهه، فغير لها بجلال غير جلاله، وقيل لها: «قد أصبنا لك أعظم منه خلقا وأشد قوة» وأتيت به فرضيت!!» اهـ. شرح نهج البلاغة ٢/٨٠.

[١٩] الطبري ٣/٤٧٥- ولحديث العربي هذا بقية نعود إليها حين نتحدث عن خروج علي.

www.alkottob.com

لكن المؤرخ المسعودي وابن أبي الحديد يجعلان لخبر الحوءب خاتمة روائية طريفة ويصلان الحديث على الصورة الآتية:

«... فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك فقالت: «ردوني إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا حاجة لي في المسير» فقال ابن الزبير: «بالله ما هذا الحوءب، ولقد غلط فيما أخبرك به». وكان طلحة في ساقة الناس، فلحقها فأقسم إن ذلك ليس بالحوئب. وشهد معه خمسون رجلا (!!) ممن كان معهم، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الإسلام!!»[٢٠] ا هـ وما شاء الله كان.

وبعد فما هذا الحديث الذي زعمت الروايات أن عائشة تذكرته عند ماء (الحوءب)؟ لقد مر بك ص ٩٧ رواية ابن أبي الحديد وشكنا فيها، وأكثر روايات ابن أبي الحديد والمسعودي في هذا الموضوع يصعب قبولها على الناقد لأمرين اثنين: الأول عصبية الرجلين لعلي وتشيعهما له تشيعا ظاهرا لا خفاء به، ولو اطلع عليه علي نفسه لكان أشد الناس له إنكارا؛ والعصبية حجاب ثقيل، كثيرا ما صرف صاحبه عن الرؤية الصحيحة، وكثيرا ما حمله - من حيث يشعر ولا يشعر - على الإغضاء عن عيوب الروايات إذا كان فيها ما ينصر إمامه أو أحد أتباعه، أو يناهض خصومه من قريب أو بعيد، ولعله يجد ذلك من أعظم القرب إلى الله، والغاية دائما - عندهم - تبرر الوسيلة.

وأما الأمر الثاني فهو تهافت ظاهر في الخبر نفسه يستبعد معه التصديق. والأمران مجتمعان هنا: فتغيير جلال الجمل (عسكر) غير كاف في الضحك على السيدة عائشة، ولا أثر له البتة في تغيير (السمات الفارقة) في نظر أغفل الناس فكيف بأذكاهم: وكذلك حشد الشهود يشهدون حالفين بالله: إن هذا الماء ليس بالحوءب بعد أن أيقنت السيدة أنه الحوءب وهمت بالرجوع، غير معف على هذا اليقين، وأقوى من ذلك كله أن طلحة الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين لن يرتكب هذا التزوير الذي زعمه - كذبا - رواة المسعودي أو المسعودي نفسه.

---

[٢٠] مروج الذهب ٥/٢ والإمامة والسياسة ٥٦/١ وشرح نهج البلاغة ٤٩٧/٢ - وأحب للقارئ أن يقرأ في مروج الذهب ٦/٢ عنتريا معراجيا لموكب علي بن أبي طالب ليرى كيف يكتب التاريخ هذا المؤرخ الحزبي بأسلوب هو بالدعايات ألصق منه بالتاريخ.

www.alkottob.com

هذا من حيث النقد الداخلي للخبر (نقد المتن)، أما النقد الخارجي (نقد السند) فإن علينا أن نستفيد من قواعد المحدثين القويمة في هذا الشأن، وأنا أستغرب الاستغراب كله ممن يدرسون (قواعد التحديث) المسماة (مصطلح الحديث) ويحفظونها للبركة ولا يمارسونها البتة. ولست أدري أي فائدة لهم إذن من دراسة هذا المصطلح إذا كانوا لا ينتوون العمل به.

لقد قرر بعض علماء الحديث - والمحدثون في الحضارة العربية هم أئمة المؤرخين وبناة التاريخ على القواعد الصحيحة - أنه لا تقبل رواية صاحب نحلة فيما ينصر نحلته ولا ذي هوى - مهما كان ثقة - فيما يوافق هواه ولا فيما يناهض خصومه. وعلى ذلك فابن أبي الحديد والمسعودي ليسا بثقتين في هذا الموضوع: موضوع علي وعائشة.

لكن الأمر ليس أمرهما فقط. ومن الحق علينا أن نقرر هنا أن حديث الحوئب مشهور تعددت مصادره، يشار إليه في كتب اللغة وفي كتب التاريخ وفي بعض كتب الحديث؛ نجده مثلا في كتب اللغة: في الفائق للزمخشري (١/١٩٠) وفي القاموس مادة (الأديب) وفي كتب التاريخ: في الطبري ومن أخذ عنه وفي المسعودي وصاحبه وقد مرت روايتاهما، وتجده في بعض كتب الحديث والرجال: كالاستيعاب لابن عبد البر وسير النبلاء للذهبي (٢/٦٠،٨٢) ومسند الإمام أحمد وهذا لفظ الحديث فيه: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوءب».

ولفظه في سير النبلاء للذهبي بسنده الخاص: «أيتكن صاحبة الجمل الأدبب يقتل حولها قتلى كثيرون وتنجو بعدما كادت».

والذي عند الزمخشري: «أيتكن صاحبة الجمل الأدب، تسير (أو تخرج) حتى تنبحها كلاب الحوءب[٢١]. وهذا الحديث في مصادر عدة.

لقد قرر الذهبي في هذا الحديث حكما وهو: «هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجوه» وكنت علقت على قوله هذا لما نشرت سير النبلاء قائلا:

«في النفس من صحة هذا الحديث شيء، ولأمر ما أهمله أصحاب الصحاح. وقد جاء في معجم البلدان (مادة حوءب) ما يفيد أن صاحبة هذا الخطاب سلمى بنت مالك الفزارية وكانت سبية وهبت لعائشة، وهي المقصودة بخطاب الرسول الذي زعموه، وقد ارتدت مع طليحة

---

[٢١] قال الزمخشري هناك الأدب كالأزب وهو الكثير وبر الوجه، فأظهر التضعيف لتزاوج الحوءب.

www.alkottob.com

الأسدي وقتلت في حروب الردة. ومن العجيب أن تصرف بعض الروايات هذه القصة - إن صحت - إلى السيدة عائشة إرضاء لبعض الأهواء العصبية»[٢٢] وما قرره ياقوت هنا مهم فلا تنسه.

وأضفت في موضع آخر، لما رواه الذهبي بسنده العالي قولي: «إن لم يصح هذا الحديث فهو مما دسه الوضاعون من بعض الفرق على صالحي المحدثين انتصارا لأهوائهم المذهبية».

عز هذا التعليق الذي قلته في (سير النبلاء) على بعض الأفاضل من أهل الحديث وأكدوا لي أن الحديث صحيح، وهم ليسوا بحاجة إلى هذا التأكيد فإن الذهبي نفسه إمام الحفاظ والمحدثين في زمنه صحح (إسناده فقط) وأردف ذلك بقوله: «و لم يخرجوه».

وأزيد هنا أمرين:

الأول: لو كان هذا الخبر صحيحا لرجعت عائشة من فورها فليست بالتي تلقي بنفسها في التهلكة على بصيرة.

والثاني: أن سند الذهبي في هذا الحديث ينتهي - في إحدى روايتيه - إلى ابن عباس، وابن عباس - على عدالته - ممن خب وأوضع في الحزبية السياسية، فهو أكبر أنصار علي وألد خصوم عائشة في خلافها عليه. فلعل هذا جعله - إن صحت نسبة الحديث إليه - يتسامح ويغض عما فيه لتأييد مذهبه السياسي، وإلا فإني أسأل: هل كان ابن عباس حاضرا قول النبي هذا وهو بين نسائه؟؟ إني - استنادا إلى سكوت الرواية عن ذلك من جهة، وإلى ضرورة التصريح بذلك من جهة ثانية - أقطع بالنفي، وإن على المثبت أن يأتي بدليل ينص على أن ابن عباس كان حاضرا مجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع نسائه!! ولا يغني - هنا خاصة - قولهم (إن مراسيل الصحابة يحتج بها) لأن وجود ابن عباس هنا مع النساء في حديث خاص بهن، غير مألوف فيحتاج إثباته إلى النص الصريح. هذا و لم أذكر ما في ذوقي الخاص لقاء هاتين السجعتين في رواية الزمخشري (ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تسير حتى تنبحها كلاب الحوءب) من بعد عن البلاغة النبوية عند من كثر إلفه لها.

---

[٢٢] سير النبلاء ٢/٧٠، ٩٨.

www.alkottob.com

ولست أدري لم لا يطبق أولئك الأفاضل قواعد المحدثين على المتن والسند معا؟ ومهما يكن فقد بينت للقارئ - فيما تقدم - ما حداني على الشك، وفيه بلاغ[23].

وآخر ما رأيت من الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله في موضوع يوم الجمل حديث عن أبي بكرة:

قيل له: «ما منعك ألا تكون قاتلت على بصيرتك يوم الجمل؟».

قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرج قوم هلكى قائدهم امرأة، قائدهم في الجنة»[24].

ويرى المدقق شيئا من البعد بين الجواب والسؤال: فإذا كان القوم هلكى فلم لم يقاتل على بصيرته مع الصف الآخر: صف غير الهلكى؟ لقد كان الجواب المعقول للذين لم يقاتلوا مع إحدى الفئتين إذا سئلوا مثل هذا السؤال أن يحتجوا باعتزالهم الفتنة وما اشتبه من الأمور، كذلك فعل كثير من الصحابة الأجلاء. ثم في متن هذا الحديث بعد ظاهر عن المعقول: أصحيح أن أصحاب الجمل هلكى كلهم إلا عائشة؟ الجواب: لا، ففيهم طلحة والزبير وهما من المبشرين بالجنة، وفيهم بدريون وفيهم مهاجرون وأنصار أخرجهم من بلدهم الحمية لله أن تعطل حدوده، وذوو المآرب في جيش عائشة قلة قليلة، وهذا كاف في القطع بعدم صحة نسبة كلام في يوم الجمل مما تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

* * *

---

[23] كتبت هذا في الطبعة الأولى ثم نشر بعد أربع سنوات كتاب (العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر ابن العربي) طبعته المطبعة السلفية في القاهرة سنة ١٣١٧ وحققه وعلق عليه الأستاذ الجليل السيد محب الدين الخطيب وهذا ما قال أبو بكر من العربي في حديث الحوءب.

«وأما الذي ذكرتم من الشهادة على ماء الحوءب -، فقد بؤتم في ذكرها بأعظم حوب (إثم)؛ ما كان قط شيء مما ذكرتم. ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الحديث، ولا جرى ذلك الكلام، ولا شهد أحد بشهادتهم، وقد كتبت شهاداتكم بهذا الباطل وسوف تسألون» ص ١٦١.

[24] كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لأبي منصور عبد الرحمن بن عساكر. مخطوط في دار الكتب الظاهرية رقمه ،حديث ٥٣٥) - الحديث الثاني عشر.

www.alkottob.com

وبعد، فلقد تركت عائشة وجموعها ذات عرق وانتهت إلى جبال أوطاس، هاجرة طريق البصرة حذرا من أن تلحقها جموع علي، وهي تريد دخول البصرة قبل أن تصطدم بأحد، فتركت الطريق ليلة وجعلتها يسارا «وتيامنت عنها كأنهم سيارة ونجعة، مساحلين، لم يدن من المنكدر[٢٥] ولا واسط ولافلج منهم أحد حتى أتوا البصرة في عام خصيب وتمثلت عائشة:

دعي بلاد جموع الظلم إذ صلحت   فيها المياه وسيري سير مذعور
تخيري النبت، فارعي ثم ظاهرة   وبطن واد من الضمار ممطور

---

(٢٥) الطبري ٤٧٣/٣ – طريق المنكدر: طريق اليمامة إلى مكة. واسط قرية باليمامة وقرية بنجد وقرية بالحجاز (والأول المقصود). فلج: مدينة بأرض اليمامة، واد بين اليمامة والبصرة. الضمار: موضع بين نجد واليمامة – معجم البلدان.

www.alkottob.com

الفصل الرابع

لحاق علي بأصحاب الجمل

تركنا عليا يتهيأ - على ما رأيت ص ٩٣ - ليغزو الشام؛ وبينما هو جاد في إحكام أمره ذلك، أتاه الخبر عن هياج أهل مكة للمطالبة بثأر عثمان بتحريض عائشة وطلحة والزبير، فأثاره الخبر و لم يعرف عزيمة القوم، إلا أنه نهض بأهل المدينة فخطبهم قائلا:

«إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام: الفوز والنجاة، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل.

ألا وإن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالؤوا على سخط إمارتي، ودعوا الناس إلى الإصلاح، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغني عنهم»[١].

ولما أحكم طلحة والزبير وبنو أمية أمرهم وجعلوا البصرة هدفهم، استأجرت أم الفضل بنت الحارث رجلا من جهينة يدعى ظفرا: على أن يطوي ويأتي عليا بكتابها، فقدم على علي بكتاب أم الفضل وفيه جلية الخبر[٢].

ساء الخبر أهل المدينة وجماعة المهاجرين والأنصار: فقد أشرفت الكلمة على التفرق، وانشقت العصا، وفي ذلك ما يسوء كل مخلص. إلا أن أبطال الشغب على عثمان كانوا أشد الناس استياء، لأن المطالبين بدم عثمان إنما يريدون رقابهم، فحاولوا إحباط الأمر بالوسائل المختلفة، وكان من وسائلهم النصح تارة، والتهديد تارة، فقد كتب الأشتر أحد رؤوسهم من المدينة إلى عائشة وهي بمكة.

«أما بعد فإنك ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمرك أن تقري في بيتك، فإن فعلت فهو خير لك، وإن أبيت إلا أن تأخذي منسأتك وتلقي جلبابك، وتبدي للناس شعيراتك قاتلتك حتى أردك إلى بيتك والموضع الذي يرضاه لك ربك».

---

(١) الطبري ٤٦٦/٣.

(٢) الطبري ٤٧٠/٣.

www.alkottob.com

فكتبت إليه في الجواب:

«أما بعد، فإنك أول العرب شب الفتنة، ودعا إلى الفرقة، وخالف الأئمة، وسعى في قتل الخليفة، وقد علمت أنك لن تعجز الله حتى يصيبك منه بنقمة ينتصر بها منك للخليفة المظلوم. وقد جاءني كتابك وفهمت ما فيه، وسيكفينيك الله وكل من أصبح مماثلا لك في ضلالك وغيك إن شاء الله»(٣).

أشفق علي من انشقاق العصا، ورأى أمر هؤلاء أخطر من أمر معاوية وشرهم أفحل، وأهم موشكون أن يزعزعوا خلافته من القواعد، فتجهز للخروج إليهم والحؤول دون بغيتهم، فقال وقد بلغه خروجهم:

«إن فعلوا هذا اختل نظام المسلمين، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا إكراه».

تثاقل أهل المدينة لما استنهضهم علي لجماعة عائشة وطلحة والزبير، وعظم عليهم قتال إخوانهم، ولم يكتف علي منهم بطاعته دون نصرته، فجمع وجوههم وحضهم على النهوض وكان فيما قال:

«إن آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح أوله، فقد رأيتم عواقب قضاء الله عز وجل على من مضى منكم، فانصروا الله ينصركم ويصلح لكم أمركم». فلم ينشط أكثر الناس للنهوض معه ولم يكن فيمن خرج معه إلا ستة بدريين أو سبعة(٤).

وخف لدعوته جماعة في أولهم أبو قتادة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال لعلي: «يا أمير المؤمنين، إن رسول الله قلدني هذا السيف، وقد شمته فطال شيمه، وقد أنى (حلن) تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا، فإن أحببت أن تقدمني فقدمني» ونشط زياد بن حنظلة وجماعة، وقد مر بك (ص ٩٧) موقف أم سلمة وولدها.

عزم علي على أن يأخذ عليهم الطريق بمن معه، واستخلف على المدينة سهل بن حنيف (أو تمام بن العباس على رواية ثانية للطبري) وعلى مكة قثم بن العباس» فخرج يبادرهم في تعبئته التي

---

(٣) شرح نهج البلاغة ٢/٨٠ والمنسأة: العصا، وأخذ المنسأة كناية عن اعتزام السير.

(٤) الطبري ٣/٤٦٧ والكامل لابم الأثير ٣/٩٤.

www.alkottob.com

كان تعبى بها إلى الشام، وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين، متخففين في سبع مئة رجل وهو يرجو أن يدركهم فيحول بينهم وبين الخروج، فلقيه عبد الله بن سلام فأخذ بعنانه وقال: «يا أمير المؤمنين لا تخرج منها، فوالله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبدا» فسبوه، فقال علي: «دعوا الرجل، فنعم الرجل من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم».

خرجوا مسرعين يريدون معارضة القوم؛ فلما بلغوا الربذة[٥] علم علي أنهم فاتوه، وقد كان في هم من أمرهم: يخشى أن يكونوا قصدوا الكوفة وفيها الرجال والأموال وفيها شيعته، فلما أيقن أنهم على قصد البصرة اطمأن وأقام بالربذة يحكم أمره. و لم يكتم سروره بقصدهم البصرة وتركهم الكوفة فقد قال لابن عباس: «الكوفة فيها رجال العرب وبيوتاتهم» و«أهل الكوفة أشد لي حبا» فأجاب ابن عباس: «إن الذي يسرك من ذلك ليسوؤني: إن الكوفة فسطاط فيه أعلام العرب، ولا يحملهم عدة القوم، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله: فإذا ذلك شغب على الذي قد نال حتى يفثأه فيفسد بعضهم على بعض». قال علي مبينا خطته إزاءهم:

«إن الأمر ليشبه ما تقول ولكن الأثرة لأهل الطاعة والحق: لأحسنهم سابقة وقدمة فإن استووا أعفيناهم واجتبرناهم، فإن أقنعهم ذلك كان خيرا لهم، وإن كان لم يقنعهم كلفونا إقامتهم وكان شرا على من هو شر له». فقال ابن عباس: «إن ذلك الأمر لا يدرك إلا بالقنوع»[٦].

هذا و لم يمر بالمسلمين موقف انبهم عليهم أمره واستغلقت في وجوههم سبل الهداية فيه كهذا الموقف، حتى إن الزعماء حين كانوا يفيئون إلى أنفسهم يقعون في حيرة مقلقة من أمرهم لا يدرون: أمخطئون هم أم مصيبون؟ وكذلك الفتن إذا أقبلت لا يعرف سدادها من خطلها، فإذا أدبرت تكشفت للناس على حقيقتها وافتضح منها ما استخفى. ومن الخير أن أجلو لك هذا الحكم في شاهد وقع بالربذة، وأظفرنا به الإمام الطبري في تاريخه، إذ فيه ما يقفك على حيرة العامة والخاصة حتى الرؤوس منهم؛ قال طارق بن شهاب:

---

[٥] من قرى المدينة على ثلاثة أميال منها، قريبة من ذات عرق – معجم البلدان.

[٦] الطبري ٤٧٧/٣ يفثأ: يسكن ويكسر. القنوع: الرضا.

www.alkottob.com

«خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان، فلما انتهينا إلى الربذة وذلك في وجه الصبح إذا الرفاق، وإذا بعضهم يتلو بعضا فقلت: «ما هذا؟» فقالوا: «أمير المؤمنين». فقلت: «ما له؟» قالوا: «غلبه طلحة والزبير، فخرج يعترض لهما ليردهما، فبلغه أنهما قد فاتاه، فهو يريد أن يخرج في آثارهما». فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون! آتي عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين؟ أو أخالفه؟ إن هذا لشديد» فخرجت فأتيته، فأقيمت الصلاة بغلس، فتقدم فصلى، فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فقال:

«قد أمرتك فعصيتني فتقتل غدا بمضيعة لا ناصر لك».

فقال علي: «إنك لا تزال تحن حنين الجارية. ما الذي أمرتني فعصيتك؟».

قال: «أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر[٧]، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا، فإن كان الفساد كان على يدي غيرك. فعصيتني في ذلك كله».

قال علي: «أي بني، أما قولك: (لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان) فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأماقولك: (تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار) فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك (حين خرج طلحة والزبير..) فإن ذلك كان وهنا على الإسلام. ووالله ما زلت مقهورا منذ وليت، منقوصا لا أصل إلى شيء مما ينبغي، وأما قولك (اجلس في بيتك) فكيف بما قد لزمني؟ أو من تريدني؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التي يحاط بها ويقال: دبلب دباب ليست هاهنا، حتى يحل عرقوباها ثم تخرج؟ وإذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أي بني[٨]».

---

[٧] أنت ترى أن فهم العرب المسلمين لما نسميه اليوم (الديمقراطية)، كان اصح فهم وأعمقه وأوسعه وأنها شيء مركوز في طباعهم وتقتضيه طبيعة معايشهم ويمليه هذا القرآن الذي يتلونه ليل نهار، والذي أدار النظم الاجتماعية كلها على الاشتراك والمساواة. لقد كلف الحسن أباه الشطط غراما بهذا الأصل وهياما وغلوا فيه.

[٨] الطبري ٣/٤٧٤، الحنين هنا: شدة البكاء، والحنين صوت كالبكاء. ودباب: استدعاء للضبع حتى تخرج، وهي اسم فعل أمر من الدبيب وهو المشي.

www.alkottob.com

واحتجاج الإمام هنا على ابنه الحسن وجيه في القضايا الثلاث، ونصائح ولده غير صائبة. وليس بسديد أيضا ما علق به على كلام الإمام، المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار، فإنه بعد أن أورد عن الطبري هذا الحوار الذي سقناه بين علي والحسن قال:

«وكأني به (يعني الإمام عليا) في هذا الأمر الأخير يقول بمقالة عثمان: «لا أخلع لباسا ألبسنيه الله عز وجل». وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار: بأنه لا مناص لهم من التبعة الملقاة على عاتقهم بإزاء الأمم التي يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها[٩]».

ليس حكمه هذا بسديد من وجوه:

أولها: أن هناك فارقا كبيرا بين موقف علي وموقف عثمان: فعثمان عظمت منه الشكوى واستطار من عماله الشر، واستفحلت عليه الثورة وانتشرت الأمور، فلو اعتزل لكان هناك أمل في إخماد الجذوة واستقامة الأمور. أما علي فلم يحتج عليه أحد بخطيئة أو ميل حكم أو جور أو أثرة، حتى الذين كرهوا بيعته استتروا بالمطالبة بدم عثمان، أي أعلنوا: أن خصومهم قتلة عثمان، لا علي، فلو اعتزل علي لكانت الأمور أضيع والشر أعم، ولازداد انتشار الأمر وتفرق الكلمة. فلا شك في أن اعتزاله هرب من الواجب، وفرار من الصف وجريمة أي جريمة. وما كان علي من رجال الدنيا يوما من الأيام حتى يصح أن نظن في حرصه على الإمارة إرضاء لطمع من الأطماع.

ثانيها: لو كلفنا كل إمام أن يعتزل الحكم كلما إمامته كره أو خرج عليه خارج، ما انقضت ساعة إلا نصب فيها إمام جديد؛ إذ لا يخلو رجل من كاره، ونصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام، هذا إن عدل.

ثالثها: تشبيه حجة الإمام هنا بدعوى دول الاستعمار أبعد عن الحق وأنأى عن الواقع، فهذه الدول مبطلة تدعي باطلا لتبرر ظلما، والإمام صاحب حق يقوم بالواجب عليه، فهو يحتج ببيعة واقعة وأمر لزمه يقتضيه النهوض والحماية ليعم الأمن والعدل، وشتان ما بين الحالتين.

وبعد، فإن عليا في جميع ما أتى حتى هذه الساعة ملتزم جانب الحق والصواب، ولئن أخذنا عليه إسراعه في عزل معاوية وغيره من عمال عثمان وقلنا: إن هذا التصرف لا سياسة فيه، إن

---

[٩] تاريخ الإسلام: الخلفاء الراشدون – لعبد الوهاب النجار – ص ٤١٤.

www.alkottob.com

هذه المؤاخذة مؤاخذة سياسية لا قضائية وجدانية؛ فليس من شك أنه - وقد اعتقد فيهم ما اعتقد - على حق في عزلهم ولا يجوز له - في دينه وأمانته - إبقاؤهم ولو ساعة إلا من قبيل ارتكاب أخف الضررين، وهذا هو الذي لم يأخذ به علي. وإذا أخطأ امرؤ مرة في سياسة فليس معنى ذلك أنه لا بصر له في السياسة ومقتضياها. هذه كلمة رأيت من الإنصاف إثباها إذ كثيرا ما رأيت بعض من (يتعاطى) التاريخ من أهل عصرنا يرمي عليا بالغفلة السياسية من أجل عزل معاوية، ويتعامى عن كثير من الحوادث الدالة على بصره في السياسة وحسن تصريفه لشؤون الدولة، وهو بهذا من طراز كطراز أبي بكر وعمر.

* * *

لما تواردت إلى علي الجموع من المدينة إلى الربذة وتتام أمره، سار منها قاصدا ذا قار[١٠] وهو يريد أن يبادر فيحوز إلى جانبه الكوفة قبل أن تشيع فيها دعاية الخارجين. وهنا نعود إلى حديث العرني الذي قطعناه (ص ١٠٥) ونستمع إليه يتمم لنا قصته:

«.... فانصرفت فما سرت إلا قليلا وإذا أنا بعلي وركب معه نحو من ثلاث مئة، فقال لي علي: «يا أيها الراكب» فأتيته فقال: «أين أتيت الظعينة؟» قلت: «في مكان كذا وكذا، وهذه ناقتها وبعتهم جملي». قال: «وقد ركبته؟» قلت: «نعم، وسرت معهم حتى أتينا ماء الحوءب فنبحت عليها كلابها، فقالت كذا وكذا، فلما رأيت اختلاط أمرهم انفتلت وارتحلوا». فقال علي: «هل لك دلالة بذي قار؟» قلت: «لعلي أدل الناس». قال: «فسر معنا». فسرنا حتى نزلنا ذا قار، فأمر علي بجوالقين فضم أحدهما إلى صاحبه، ثم جيء برجل فوضع عليهما، ثم جاء يمشي حتى صعد عليه وسدل رجليه من جانب واحد، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ثم قال:

«قد رأيتم ما صنع هؤلاء القوم وهذه المرأة....» فقام إليه الحسن فبكى فقال له علي: «قد جئت تحن حنين الجارية؟» فقال: «أجل، أمرتك فعصيتني فأنت اليوم تقتل بمضيعة لا ناصر لك». قال: «حدث القوم بما أمرتني به».

---

[١٠] ذو قار: ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط، وبه سمي الوادي الذي جرت فيه الوقعة المشهورة بين العرب والفرس وانتصر فها العرب نصرا مؤزرا.

www.alkottob.com

قال: «أمرتك حين سار الناس إلى عثمان ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب فـــإنهم لن يقطعوا أمرا دونك، فأبيت علي، وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم المدينة وترسل إلى من استجاب لك من شيعتك».

قال علي:

«صدق والله، ولكن والله يا بني ما كنت لأكون كالضبع تستمع للدم.. إن النبي صلـــــى الله عليه وسلم قبض وما رأى أحدا أحق بهذا الأمر مني، فبايع الناس أبا بكر فبايعت كما بـــايعوا، ثم إن أبا بكر هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني فبايع الناس عمر بن الخطاب فبايعت كمـــــا بايعوا، ثم إن عمر هلك وما أرى أحدا أحق بهذا الأمر مني فجعلني سهما من ستة أسهم فبـــايع الناس عثمان فبايعت كما بايعوا. ثم سار الناس إلى عثمان فقتلوه، ثم أتوني فبايعوني طائعين غـــير مكرهين؛ فأنا مقاتل من خالفني بمن اتبعني حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين»[11].

ثم أراد علي أن يرمي بآخر سهم في كنانة السلم، فكتب إلى السيدة عائشة ينصحها ويعذرها:

«أما بعد، فإنك خرجت من بيتك عاصية لله ولرسوله، أتطلبين أمرا كان عنك موضوعـــا ثم تزعمين أنك تريدين الإصلاح بين الناس؟ فخبريني: ما للنساء وقود العساكر؟ وزعمت أنك طالبة لدم عثمان وعثمان رجل من بني أمية وأنت امرأة من بني تيم بن مرة! ولعمري إن الذي عرضـك للبلاء وحملك على المعصية لأعظم إليك ذنبا من قتلة عثمان، وما غضبت حتى أغضبـــت، ومـــا هجت حتى هيجت، فاتقي الله يا عائشة وارجعي إلى منزلك وأسلبي عليك سترك والسلام».

فجاء الجواب إليه حاسما موئسا.

«يا بن أبي طالب، جل الأمر عن العتاب، ولن ندخل في طاعتك أبدا فاقض ما أنت قـــاض، والسلام»[12].

وكان علي قد كتب في هذا المعنى إلى طلحة والزبير أيضا فكان جوابهما:

---

(11) الطبري ٢/٤٧٥، ٤٧٦ – اللدم: اللطم.

(12) الإمامة والسياسة ص ٦٢/١، وأثبت زيادة عن (مطالب السول من مناقب آل الرسول) لكمال الدين محمـــد بـــن طلحـــة الشافعي المتوفي سنة ٦٥٤، و(الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية).

www.alkottob.com

«إنك سرت مسيرا له ما بعده، ولست راجعا وفي نفسك منه حاجة، فامض لأمرك.. أما أنت فلست راضيا دون دخولنا في طاعتك، ولسنا بداخلين فيها أبدا، فاقض ما أنت قاض»[١٣].

(١٣) الإمامة والسياسة ١/٥٥ وجمهرة رسائل العرب ١/٣٧٩.

www.alkottob.com

الفصل الخامس

في مساعي الجمليين السياسية ثم مناوشتهم

نحن الآن مع السيدة عائشة زعيمة هذه الجموع المعارضة الثائرة، قريبا من البصرة، ننتظر ما تسفر عنه مساعيها (الدبلوماسية) ومفاوضاتها في سبيل ضم هذا المصر الكبير من أمصار المسلمين إلى دعوتها، ونلمس صلابة هذا السور الذي صدم عائشة وحججها: كيف ألفت صخوره أدمغة عربية من خاصة أهل البصرة، ولم تستطع السيدة ولا من معها أن يوهنوا منها بالبرهان، بل رجع الوهن على كل ما قدم الخارجون من الدواعي المثيرة لهم على الخروج بزعمهم. ولا غرو، فقد كان مع معارضي عائشة من سادات أهل البصرة المنطق وحكم الدين والجدال عن الوحدة العربية المشرفة على التفكك والسؤال عما لزم الثائرين من مبايعة الإمام ولزوم طاعته. وأنا ألفت نظرك منذ الآن لتتذوق هذا الإيجاز البليغ الذي زخرت به تلك السفارات والمراسلات وذلك الحوار، فهما في الذروة من البلاغة وستجد فيهما صورا عميقة لنواحي هذه الفتنة ولأسرارها، وأحكاما صائبة فيها... كل ذلك في كلمات قليلة العدد قوية التعبير.

لما كانت جموع عائشة بفناء البصرة على عزم دخولها، لقيهم عمير بن عبد الله التميمي فقال: «يا أم المؤمنين، أنشدك بالله أن تقدمي على قوم لم تراسلي منهم أحدا فيكفيكهم». فانتبهت لأمر كان غاب عنها فقالت: «جئتني بالرأي فأنت امرؤ صالح»، قال: «فعجلي ابن عامر فليدخل فإن له صنائع فليذهب إلى صنائعه، فليلقوا الناس حتى تقدمي ويسمعوا ما جئتم فيه». فأرسلته فاندس إلى البصرة فأتى القوم.

ثم أرسلوا كتبا إلى رؤوس أهل البصرة لينضموا إلى دعوتهم، وانتظروا الأجوبة قبل دخولهم البصرة، ثم كانت سفارات ووفود. ونحن بادئون بالكتب فمثبتوها مع أجوبتها، فهي خير ما تمثل نظر الناس إلى هذه الفتنة.

(١) المراسلات

www.alkottob.com

١- كتب طلحة والزبير إلى كعب بن سور:

«أما بعد فإنك قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن، وقد كنت غضبت لعثمان من الأذى فاغضب له من القتل والسلام».

فأجابهما:

«أما بعد: فإنا غضبنا لعثمان من الأذى والغير باللسان، فجاء أمر الغير فيه بالسيف، فإن يك عثمان قتل ظالما فما لكما وله، وإن قتل مظلوما فغيركما أولى به، وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل[1]».

٢- وكتبا إلى المنذر بن الجارود:

«أما بعد فإن أباك كان رئيسا في الجاهلية وسيدا في الإسلام، وإنك من أبيك بمنزلة المصلي من السابق: يقال: كاد أو لحق، وقد قتل عثمان من أنت خير منه، وغضب له من هو خير منك والسلام».

فأجابهما:

«أما بعد، فإنه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيرا من أهل الشر. وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس، وقد كان بين أظهركم فخذلتموه، فمتى استنبطتم هذا العلم وبدا لكم هذا الرأي[2]؟!!».

٣- وكتبا إلى الأحنف بن قيس:

«أما بعد، فإنك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق، وقد بلغك مصاب عثمان، ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر والسلام».

فأجابهما:

---

(١) الإمامة والسياسة ٤٨/١- المصلي: الفرس الذي يجئ تاليا للسابق.

(٢) المصدر نفسه الصفحة السابقة.

www.alkottob.com

«أما بعد فإنه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان، وأنتم قادمون علينا: فإن يك في العيان فضل نظرنا فيه، وإلا يكن فيه فضل فليس في أيدينا ولا أيديكم ثقة والسلام».

٤- كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان:

«من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان! أما بعد، فإذا أتاك كتابي هذا فأقدم فانصرنا على أمرنا هذا، فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي».

فكتب إليها:

«من زيد بن صوحان إلى عائشة ابنة أبي بكر حبيبة رسول الله صلة الله عليه وسلم!

أما بعد فأنا ابنك الخالص إن اعتزلت هذا الأمر ورجعت إلى بيتك، وإلا فأنا أول من نابذك[٣]».

وهناك رواية ثانية بجواب زيد أوفى من رواية الطبري وهذا نصها:

«سلام عليك، أما بعد، فإن الله أمرك وأمرنا بأمر: أمرك أن تقري في بيتك، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة فتركت ما أمرت به وكتبت تنهيننا عما أمرنا به! فأمرك عندي غير مطاع، وكتابك غير مجاب والسلام[٤]».

وكتبت كتبا إلى الأحنف بن قيس وصبرة بن شيمان وأمثالهما من الوجوه.

٥- كان هناك غير عائشة وطلحة والزبير من يرسل الكتب سرا لمن يتوسم في نصرهم قوة توهي أمر علي، وهم بنو أمية الذين لم يخرجوا نصرة لطلحة والزبير وعائشة وإنما جمعهم بهؤلاء كره خلافة علي، فقد كانوا ساهرين على أمرهم لا تفوقم خافية، عرف يعسوبهم في دمشق معاوية بن أبي سفيان أن سعد ابن أبي وقاص الصحابي الجليل أحد العشرة المبشرين بالجنة وصاحب فتح القادسية وأحد الستة أصحاب الشورى... لم ينهض لهذا الأمر، وأيقن في نهوضه إضعافا

---

[٣] الطبري ٣/٤٩٢.

[٤] جمهرة رسائل العرب ١/٣٧٩ والعقد الفريد ٣/٩٧، وفي رواية ابن أبي الحديد أنها كتبت إلى زيد «أما بعد فأقم في بيتك (!!) وخذل الناس عن علي، وليبلغني عنك ما أحب فإنك أوثق عندي والسلام» - شرح نهج البلاغة ٢/٨١.

www.alkottob.com

لأمر علي، فكتب إليه كتابا يظهر فيه أمرا ويخفي غيره، وأنت إذا أمعنت فيه رأيته يقطر دهاء، وإليك الكتاب فانظر كيف يحتال على سعد ويتلطف له ثم يحذره ويدغدغه:

«إن أحق الناس بنصرة عثمان **أهل الشورى** من قريش الذين أثبتوا حقه واختاروه على غـــيره، وقد نصره طلحة والزبير وهما **شريكاك في الأمر** ونظيراك في الإسلام، وخفت له أم المؤمنين؛ فـــلا تكرهن ما رضوا ولا تردن ما قبلوا».

فكتب إليه سعد سادا الباب في وجهه:

«أما بعد فإن عمر لم يدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه؛ غير أن عليا قد كان فيه ما فينا و لم يكن فينا ما فيه. وأمـــا طلحـــة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما، والله يغفر لأم المؤمنين[٥]».

لقد حمل معاوية دهاءه إلى واد غير ذي زرع، و لم يخف مما راوغ عن التصريح به على ســعد. الحق أن سعدا راسخ القدم في الحنكة والتجربة، بصير برجال السياسة وما يضمرون. إن في قوله: (لم يدخل عمر بالشورى إلا من تحل له الخلافة) لقطعا للطريق على معاوية وما تهيئ له نفسه، أما نفقده مسير طلحة والزبير وعائشة فصريح غير خاف. لقد قتلت صراحة سعد كيد معاوية بـــه وفضحت ما جهد في كتمانه.

وأنا أثبت لك هذا الكتاب وجوابه لأطلعك على أن الحزب الأموي الذي جعل نصرة عثمـان وسيلة لأمر آخر كان يتعهد من قريب وبعيد: كل ما يسرع في نجاحه وبلوغ غاياته من حيث لا يشعر الناس. وقد حفظت لنا كتب التاريخ هذا الكتاب، وما يدرينا أن مساعي معاوية الخفيـــة انطوت على إرسال كثير من أمثاله إلى وجوه الناس وذوي الكلمة فيهم، وكان اجتهاد معاوية في كتمان أموره ناجحا في إخفاء هذه المساعي عن التاريخ إلى الأبد.

(ب) السفارات والوفود

---

[٥] تاريخ اليعقوبي ٢/٢١٧.

www.alkottob.com

١- بلغ أهل البصرة مراسلات عائشة ونزلها وجموعها بفناء البصرة، فدعا عثمان بن حنيف أمير البصرة لعلي، رجلين: عمران بن حصين وكان رجل عامة وأبا الأسود الدؤلي وكان رجل خاصة، فأرسلهما سفيرين إلى عائشة وقال لهما: «انطلقا إلى هذه المرأة: فاعلما علمها وعلم من معها» فخرجا فانتهيا إليها وإلى الناس وهم بالحفير[٦]، فاستأذنا عليها فأذنت لهما، فسلما وقالا:

«إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك، فهل أنت مخبرتنا؟»

فقالت: «والله ما مثلي يسير بالأمر المكتوم، ويغطي لبنيه الخبر:

إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين، واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم، ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين (وأهل المدينة) لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون. فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا ٠وقرأت):

{لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس} [النساء: ١١٤/٤] ننهض في الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصغير والكبير والذكر والأنثى. فهذا شأننا، إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه نحثكم على تغييره».

فخرجا عن عندها وأتيا طلحة فقالا له: «ما أقدمك؟» قال: «الطلب بدم عثمان» قالا: «ألم تبايع عليا؟» قال: «بلى واللج[٧] على عنقي وما أستقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان».

---

[٦] ماء لباهلة على أربعة أميال من البصرة، إذا خرج الحاج من البصرة يريد مكة فيأخذ بطن فلج، فأول ماء يرد: الحفير - معجم البلدان.

[٧] الطبري ٤٧٩/٣ -٤٨٩، اللج: السيف.

www.alkottob.com

ثم خرجا من عند طلحة فأتيا الزبير فقالا له: «ما أقدمك؟» قال: «الطلب بدم عثمان». قالا: «ألم تبايع عليا؟» قال: «بلى واللج على عنقي، وما أسقيل عليا إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان».

فرجعا إلى أم المؤمنين فودعاها، فودعت عمران وقالت: «يا أبا الأسود، أياك أن يقودك الهوى إلى النار {كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى} [المائدة: ٥/٨] فسرحتهما.

رجع الرجلان إلى عثمان بن حنيف. فعاجل أبو الأسود عمران فقال:

يا بن حنيف قد أتيت فانفر
وطاعن القوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئما وشمر

فقال عثمان: «إنا لله وإنا إليه راجعون، دارت رحى الإسلام ورب الكعبة، فانظروا بأي زيفان تزيف[(٨)]» فقال عمران: «إي والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لا يساوي ما بقي منكم كثير شيء»، قال عثمان: «فأشر علي يا عمران». قال: «إني قاعد فاقعد». فقال عثمان: «بل أمنعهم حتى يأتي أمر أمير المؤمنين».

قال عمران: «بل يحكم الله ما يريد» وانصرف إلى بيته.

وكذلك عزم عثمان على مقاومتهم ومنعهم دخول البصرة.

٢- ولهذه السفارة رواية مهمة غير رواية الطبري ولعلها سفارة ثانية، يقصها أحد السفيرين أبو الأسود الدؤلي وفيها زيادة ذات بال، قال أبو الأسود:

«بعثني وعمران بن حصين، عثمان بن حنيف إلى عائشة فقلنا:

«يا أم المؤمنين أخبرينا عن مسيرك هذا: أعهد عهده رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رأي رأيته؟».

---

(٨) الطبري ٣/٤٧٩-٤٨٠- الزيفان: التبختر في المشي.

www.alkottob.com

قالت: «بل رأي رأيته حين قتل عثمان. إنا نقمنا عليه ضربة السوط وموقع المسحاة[٩] المحماة، وإمرة سعيد والوليد، فعدوتم عليه فاستحللتم منه الحرم الثلاث: حرمة البلد وحرمة الشهر الحرام (وحرمة الدم الحرام)، بعد أن مصناه كما يماص الإناء فاستتبناه، فركبتم منه هذه ظالمين. وغضبنا لكم من سوط عثمان ولا نغضب لعثمان من سيفكم؟».

قلت: «ما أنت وسيفنا وسوط عثمان وأنت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرك أن تقري في بيتك فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض!».

قالت: «وهل أحد يقاتلني أو يقول غير هذا؟» قلت: «نعم» قالت: «من يفعل ذلك؟» أزنيم ابن عامر؟ هل أنت مبلغ عني يا عمران؟» قال: «لا، لست مبلغا عنك خيرا ولا شرا» قلت: «لكني مبلغ عنك، هات ما شئت».

قالت: «اللهم اقتل مذمما قصاصا بعثمان، وارم الأشتر بسهم من سهامك لا يشوي، وأدرك عمارا بخفرته في عثمان[١٠]».

ويزيد صاحب الإمامة والسياسة أن السيدة قالت لأبي الأسود:

«يا أبا الأسود، بلغني أن عثمان (ابن حنيف) يريد قتالي!) فقال أبو الأسود: «نعم والله، قتلا أهونه تندر منه الرؤوس[١١]».

* * *

احتلال عائشة البصرة:

لم تسفر تلك الكتب وهذه السفارات والوفادات عن كبير أمر في مصلحة عائشة ومن معها، إلا أن البصرة لم تخل من طائفة هواها معهم يقولون بمقالتهم:

---

(٩) بلاغات النساء ص ١٢ والعقد الفريد ٩٨/٣ - المسحاة موضع بسرف كان النبي حماه لخيله، ثم حماه عمر لخيل المسلمين، ثم جاء عثمان فحماه لنفسه على ما قالوا - وقد تقدم شرح بقية الكلمات في ص ٨٥ - هذا وانظر البيان والتبيين للجاحظ (طبعة السندوبي) ٢٠٩/٢، ٢١٠.

(١٠) انظر الحاشية السابقة.

(١١) الإمامة والسياسة ٥١/١.

www.alkottob.com

أصبح عثمان بن حنيف أمير البصرة لعلي، على قلق من أمر عائشة، وشاور نصحاءه فأشاروا عليه بمنعهم دخولها، ومع ذلك لم يعدم من أشار عليه بالمسامحة، روى الطبري أن هشام بن عامر دخل عليه فقال: «يا عثمان، إن هذا الأمر الذي تروم يسلم إلى شر مما تكره، إن هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر، فسامحهم حتى تأتي أمر علي ولا تحادهم» فأبى.

ونادى عثمان في الناس وأمرهم بالتهيؤ، ولبسوا السلاح واجتمعوا إلى المسجد الجامع، وأقبل عثمان على الكيد فكاد الناس لينظر إلى ما عندهم، فدس رجلا إلى الناس خدعا كوفيا قيسيا فقام فقال:

يا أيها الناس، أنا قيس بن العقدية الحميسي، إن هؤلاء القوم الذين جاؤوكم إن كانوا جاؤوكم خائفين فقد جاؤوا من المكان الذي يأمن فيه الطير، وإن كانوا جاؤوا يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان، أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤوا».

فقام الأسود بن سريع السعدي فقال: «أو زعموا أننا قتلة عثمان؟ فإنما فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان من غيرنا؛ فإن كان القوم أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم من إخراجهم؟ الرجال أو البلدان؟» فحصبه الناس، فعرف عثمان أن لهم بالبصرة ناصرا ممن يقوم معهم، فكسره ذلك.

ثم أقبلت عائشة فيمن معها حتى إذا انتهوا إلى المربد[١٢]، ودخلوا من أعلاه أمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان فيمن معه، وخرج إليها من أهل البصرة من أراد أن يخرج إليها ويكون معها... فاجتمعوا بالمربد، وجعلوا يثوبون حتى غص بالناس.

فتكلم طلحة وهو في ميمنة المربد ومعه الزبير، وعثمان بن حنيف أمير البصرة في ميسرته، فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمان وفضله والبلد وما استحل منه وعظم ما أتي إليه، ودعا إلى الطلب بدمه وقال: «إن في ذلك إعزاز دين الله وسلطانه، وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فإنه حد

---

(١٢) المربد: مربد البصرة من أشهر محالها، وكان به سوق للإبل قديما، ثم صار محلة عظيمة يسكنها الناس. وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء. ثم تضاءل أمره وتقلص العمران من حوله حتى أصبح في أيام ياقوت صاحب معجم البلدان (من أهل المئة السابقة) بائنا عن البصرة وسط البرية وبينهما ثلاثة أميال. انظر أوفى تفصيل عن البصرة والمربد في كتابنا (أسواق العرب في الجاهلية والإسلام) ص....

www.alkottob.com

من حدود الله، وإنكم إن فعلتم أصبتم وعاد أمركم إليكم، وإن تركتم لم يقم لكم سلطان و لم يكن لكم نظام».

ثم تكلم الزبير بمثل ذلك، فقال من في ميمنة المربد: «صدقا وبرا وقالا الحق وأمرا بالحق». وقال من في مسيرته: «فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به، قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان!» وتحاثى الناس وتحاصبوا وأرهجوا (شغبوا).

حينئذ تكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة (كأنه صوت امرأة جليلة) فحمدت الله وأثنت عليه وقالت:

«كان الناس يتجنون على عثمان، ويزرون على عماله، ويأتوننا بالمدينة فيستشيروننا فيما يخبروننا عنهم، ويرون حسنا من كلامنا في صلاح بينهم، فننظر في ذلك فنجده بريئا نقيا وفيا، ونجدهم فجرة كذبة يحاولون غير ما يظهرون، فلما قووا على المكاثرة كاثروه فاقتحموا عليه داره، واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر: إلا أن مما ينبغي - ولا ينبغي لكم غيره - أخذ قتلة عثمان وإقامة كتاب الله عز وجل (وقرأت):

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون} [آل عمران: ٢٣/٣].

فماج الناس وافترق أصحاب عثمان فرقتين:

فقالت فرقة: «صدقت والله وبرت وجاءت والله بالمعروف».

وقال الآخرون: «كذبتم والله، ما نعرف ما تقولون» فتحاثوا وتحاصبوا وأرهجوا.

ولدينا نص أوفى وأجمع لأغراضهم التي خرجوا من أجلها، ننقله عن ابن أبي الحديد، فهو ذكر بصراحة وجلاء سببا مهما في خروجهم غير الثأر لعثمان، ذلك هو خلع علي وإعادة الأمر شورى وإليك إياه:

لما حصل الهرج من كلام طلحة والزبير، صرخت عائشة بصوت مرتفع:

«أيها الناس، أقلوا الكلام واسكتوا....».

فأسكت الناس لها فقالت:

www.alkottob.com

«إن أمير المؤمنين عثمان قد غير وبدل، ثم لم يزل يغسل ذلك بالتوبة حتى قتل مظلوما تائبا. وإنما نقموا عليه ضربه بالسوط وتأميره الشبان وحماية موضع الغمامة، فقتلوه محرما في حرمة الشهر وحرمة البلد: ذبحا كما يذبح الجمل. ألا وإن قريشا رمت غرضها بنبالها وأدمت أفواهها بأيديها وما نالت بقتلها إياه شيئا، ولا سلكت به سبيلا قاصدا. أما والله ليرونها بلايا عقيمة تنبه النائم وتقيم الجالس، وليسلطن عليهم قوم لا يرحمونهم يسومونهم سوء العذاب.

أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحل دمه، مصتموه كما يماص الثوب الرحيض ثم عدوتم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابن أبي طالب بغير مشورة من الجماعة: ابتزازا وغصبا. تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه ولا أغضب لعثمان من سيوفكم؟

إلا أن عثمان قتل مظلوما فاطلبوا قتلته، فإذا ظفرتم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر، ولا يدخل فيهم من شرك في دم عثمان[١٣]».

أوقعت هذه الخطب الانقسام في جماعة عثمان بن حنيف، ولما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان حتى وقفوا في المربد في موضع الدباغين وبقي أصحاب عثمان على حالهم يتدافعون حتى تحاجزوا ومال بعضهم إلى عائشة، وبقي بعضهم مع عثمان على فم السكة، وأتى عثمان فيمن معه حتى إذا كانوا على فم السكة سكة المسجد عن يمين الدباغين استقبلوا الناس فأخذوا عليهم بفمها.

وهكذا ابتدأت هذه المأساة التي جعلت المسلمين ذوي الكلمة الواحدة يقفون صفين متناجزين يقاتل بعضهم بعضا بعد أن كانوا جميعا يدا واحدة على عدوهم. ولعل كثيرا من العقلاء ذوي النظر البعيد كشف لهم ما بعد هذا التقاذف بالشتائم والتحاصب والإرهاج: من دماء الألوف تزهق في سبيل هذا الخلاف، فحالوا بكل ما استطاعوا من نصح صريح وشدة في الإنكار فلم يثمر مسعاهم. وإليك نمطا مما جبهوا به السيدة عائشة نفسها وصاحبيها: ذكر الطبري عقب ذلك أن جارية ابن قدامة السعدي أقبل على السيدة فقال:

---

(١٣) شرح نهج البلاغة ٤٩٩/٢ والإمامة والسياسة ٦٠/١ - الموض: الغسل اللين والدلك باليد - الرحيض: المغسول - ولست أدري هل أقحموا (وبايعتم ابن أبي طالب) في خطبتها فيما بعد إقحاما اقتضته الدعاية المذهبية أو لا؟ أما أنا فأستبعد أن تصرح بذلك والمصادر غير الشيعية خالية من هذا التصريح.

www.alkottob.com

«يا أم المؤمنين والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح؛ إنه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترا وأبحت حرمتك: إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك. إن كنت أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلك، وإن كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس».

فخرج غلام شاب من بني سعد أيضا إلى طلحة والزبير فقال:

أما أنت يا زبير فحواري[١٤] رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك، وأرى معكما أمكما: فهل جئتما بنسائكما؟» قالا: «لا»، قال: «فما أنا منكما في شيء» واعتزل. وقال السعدي في ذلك:

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم هذا - لعمرك - قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها فهوت تشق البيد بالإيجاف[١٥]
غرضا يقاتل دونها أبناؤها بالنبل والخطي والأسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها هذا المخبر عنهم، والكافي

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة - وكان محمد رجلا عابدا - فقال: أخبرني عن قتلة عثمان»، فقال محمد: «نعم، دم عثمان ثلاثة أثلاث: ثلث على صاحبة الهودج (يعني عائشة)، وثلث على صاحب الجمل الأحمر (يعني أباه طلحة) وثلث على علي بن أبي طالب».
فضحك الغلام وقال: «لا أراني على ضلال» ولحق بعلي بن أبي طالب وقال في ذلك شعرا:

سألت ابن طلحة عن هالك بجوف المدينة لم يقبر
فقال: ثلاثة رهط هم أماتوا ابن عفان واستعبر:
فثلث على تلك في خدرها وثلث على راكب الأحمر

---

(١٤) الحواري: الناصر وهو لقب الزبير: جاء في تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٥٩/٥ (لما كان يوم قريظة برز رجل من يهود يصيح: «من يبارز؟» فبرز إليه محمد بن مسلمة فقتله اليهودي وكانت معه حربة يحوش بها المسلمين حوشا، فبرز له علي فقال له الزبير: «أقسمت عليك إلا خليت بيني وبينه» فبرز إليه فقتله فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لكل نبي حواري، وحواري الزبير» اهـ.

(١٥) الإيجاف: ضرب من سير الخيل والإبل - القاموس.

www.alkottob.com

وثلث على ابن أبي طالب ونحن بدوية قرقر
فقلت: صدقت على الأولين وأخطأت في الثالث الأزهر[١٦]

وكاد الأمر يقف عند هذا، فإن أصحاب عائشة ما أرادوا حينئذ قتالا، ولكن جماعة في أصحاب عثمان بن حنيف - ولعل أكثرهم ممن اشترك في دم عثمان - تعجلوا الحوادث وأرادوا إنشاب القتال، وأصبح الفريقان قد سيقا إلى النتيجة المحتومة، حين أقبل حكيم بن جبلة - وهو ممن شرك في الشغب على عثمان واشترك في قتله - وكان على الخيل فأنشب القتال، ومع هذا حاول أصحاب عائشة الكف وعدم المقابلة «فأشرعوا رماحهم وأمسكوا ليمسك أصحاب حكيم، فلم ينته حكيم ولم يثن، فقاتلهم وأصحاب عائشة كافون إلا ما دافعوا عن أنفسهم، وحكيم يذمر (يحث) خيله ويركبهم ويقول: إنها قريش، ليردينها جبنها والطيش.

واقتتلوا على فم السكة، وأشرف أهل الدور ممن كان له في واحد من الفريقين هوى، فرموا باقي الآخرين بالحجارة، وأمرت عائشة أصحابها فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بني مازن فوقفوا بها مليا، وثار إليهم الناس، فحجز الليل بينهم، فرجع عثمان إلى مقره ورجع الناس إلى قبائلهم.

وجاء أبو الجرباء (أحد بني عثمان بن مالك بن عمروا بن تميم) إلى عائشة طلحة والزبير فأشار عليهم بأمثل من مكانهم فاستنصحوه وتابعوا رأيه، فساروا من مقبرة بني مازن فأخذوا على مسناة البصرة من قبل الجبانة حتى انتهوا إلى الزابوق، ثم أتوا مقبرة بني حصن وهي متنحية إلى دار الرزق فباتوا يتأهبون، وبات الناس يسيرون إليهم، وأصبحوا وهم على رجل[١٧] في ساحة الرزق.

وأصبح عثمان بن حنيف فغاداهم يريد منعهم من دخول البصرة، وغدا حكيم بن جبلة وهو يبربر (شاتما عائشة) وفي يده الرمح، فقال له رجل: «من هذا الذي تسب وتقول له ما أسمع؟» قال: «عائشة» قال: «يا بن الخبيثة، ألأم المؤمنين تقول هذا؟» فوضع حكيم السنان بين ثدييه فقتله، ثم مر بامرأة (وهو يسب) فقالت: «من هذا الذي ألجأك إلى هذا»؟ قال: «عائشة» قالت: «يا بن الخبيثة، ألأم المؤمنين تقول هذا؟» فطعنها بين ثدييها فقتلها، ثم سار.

---

(١٦) الطبري ٣/٤٨١- ٤٨٣، الدوية: الفلاة. القرقر: الأرض المطمئنة اللينة، قرقر البلدة: نواحيها الظاهرة - القاموس.

(١٧) من المجاز قولهم فلان قائم على رجل: إذا جد في أمر حزبه - الزمخشري في أساس البلاغة.

www.alkottob.com

فلما اجتمعا واقفوهم، فاقتتلوا بدار الرزق قتالا شديدا من حين بزغت الشمس إلى أن زال النهار، وقد كثر القتلى في أصحاب ابن حنيف وفشت الجراحة في الفريقين، ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون؛ حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا أصحاب عائشة إلى الصلح فأجابوهم. وتواعدوا وكتبوا بينهم كتابا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة «يسأل أهلها عن بيعة طلحة والزبير لعلي: فإن كانا أكرها خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة، وإن لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير، وتبقى الهدنة قائمة حتى يرجع الرسول بالخبر فينفذ الفريقان ما اتفقا عليه وهذا نص وثيقة الصلح:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اصطلح عليه: (أ) طلحة والزبير ومن معه من المؤمنين والمسلمين.

(ب) وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين.

١- أن عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده وأن طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين ورسولهم كعب بن سور من المدينة؛

٢- ولا يضار واحد من الفريقين في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة[(١٨)]: بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر؛

٣- فإن رجع: بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالأمر أمرهما، فإن شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وإن شاء دخل معهما؛

٤- وإن رجع بأنهما لم يكرها فالأمر أمر عثمان، فإن شاء طلحة والزبير أقاما على طاعة علي وإن شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما.

٥- والمؤمنون أعوان الفالح منهما» اهـ.

وعلى ذلك انقضت هذه المناوشة بالمربد وهي المسماة بيوم الجمل الأصغر[(١٩)].

[(١٨)] الطبري ٣/٤٨٤- الفرضة من النهر: ثلمة يستقى منها، ومن البحر محط السفن، وكانت البصرة كثيرة الأنهار جدا (انظر: أسواق العرب في الجاهلية الإسلام ص...) والعيبة: موضع سر الرجل. الفالح (بالحاء والجيم): الفائز - ويذكر ابن أبي الحديد صلحا وقع بين الفريقين أن يتهادنوا إلى حين مجيء علي واجتماع عثمان به - شرح نهج البلاغة: ٢/٥٠٠.

www.alkottob.com

* * *

يعلق المؤرخ المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار بعد أن نقل ما نقلناه هنا عن الطبري بقوله:

«من تمام الأمر بالصورة التي وصفناها، نعلم أن الأمر لا يزداد مبرمه إلا انتكاثا في يد علي، والحال تسير على غير نظام: فإن عثمان بن حنيف لم يوله (إمامه) على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين، و لم يأخذ عليه العهد بأن يبذل الشروط التي تفضي إلى ضياع الأمصار. وقد كان الرجل على غير ما يجب في أمثاله من الإرب وقوة الحجة، ولو كان على شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة، ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة علي، ويحج طلحة والزبير وعائشة بأن إقامة الحد إنما هي للإمام، ولا ينبغي النهوض إلا في طاعة إمام، وهم قوم نزاع لا إمام لهم، ومن كانت في عنقه بيعة فإنه خارج على إمامه. وكان في وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر عليا. ومن الخرق في الرأي أن يرخص لحكيم بن جبلة في القتال قبل أن يتقدم إليه إمامه في ذلك.. وإن الإمساك كان أحسن في العاقبة وأرجى في العافية[٢٠]» اهـ.

أقول: قد حج القوم بالحجة التي ذكرها الأستاذ كثير من رؤوس البصرة، بل إن بعضهم تعداها إلى التصريح لهم بما يحملون من الشركة في إثم قتل عثمان. وما كان المنطق يوما من الأيام سلاحا ينفذ في الجماهير، إنما السلاح الماضي فيهم هو التمويه عليهم واستحلالهم بما يهز قلوبهم ومشاعرهم من الخطابيات. ولا أدري: كيف يسع عثمان بن حنيف - وهو وال مسؤول عن سلامة البصرة - أن يكف حتى يأتيه جواب علي، والقوم جادون نحو البصرة يريدون احتلالها ويطلبون رقاب الذين دخلوا المدينة على عثمان بن عفان رضي الله عنه.

بل إن الطبري ليذكر رواية تدحض ما أخذه الأستاذ النجار على عثمان بن حنيف وتثبت أن هذا الوالي كاتب عليا من أول الأمر، ولكن الجماعة لم يمهلوه بل عاجلوه القتال، لقد قال لهم عثمان لما قدموا البصرة: «ما نقمتم على صاحبكم؟» فقالوا: «لم نره أولى بها منا وقد صنع ما

---

(١٩) شرح نهج البلاغة ٢/ ٥٠١ أما يوم الجمل الأكبر فهو يومهم مع علي بن أبي طالب، وهذا كان مع عثمان بن حنيف.

(٢٠) تاريخ الإسلام:ك (الخلفاء الراشدون) ص ٣٩٧.

www.alkottob.com

صنع». قال عثمان: «فإن الرجل أمري فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له، على أن أصلي بالناس حتى يأتينا كتابه». فوقفوا عليه وكتب، فلم يلبث إلا يومين حتى وثبوا عليه فقاتلوه[٢١]».

وإذا ملنا مع الأستاذ النجار إلى تخطئة عثمان فلينبئنا: هل استطاع أحد من الولاة بعد عثمان هذا أن يجمع أهل العراق على رأي واحد؟ وهل خلال العراق - في تاريخه الطويل - من خارج على خليفة أو أمير يوما من الأيام؟؟

ومهما يكن من أمر فإن ما يؤاخذ به عثمان شيء واحد: هو عدم مراجعة إمامه في شروط الصلح حين كان أصحاب عائشة هم الطالبين له. وموقف عثمان أقوى (شرعية) من موقف خصومه، ولو هو فعل لأجابوه إلى ما يريد، ولعله استشعر ضعفا، ولو وجد من القوة ما يكاثر به أصحاب عائشة ما توقف، وقد علمت قبل قليل أن جماعات لا يستهان بها من أصحابه لحقت بعائشة. وكان بوسعه أيضا ألا يعطي هذه الخطة الشائنة: فيرجع إلى أهل المدينة وهم ليسوا له بمرجع، إنما مرجعه إمامه ليس غير. وهذه الهفوة تحمله التبعة في إضعاف أمر علي في العراق تلك الفترة.

---

(٢١) الطبري ٣/٤٨٦.

www.alkottob.com

الفصل السادس

في استيلاء الجمليين على البصرة

سفارة كعب بن سور إلى المدينة:

خرج كعب بن سور إلى المدينة، إنفاذا لما اتفقوا عليه، فبلغها، واجتمع الناس لقدومه وكان يوم جمعة، فوقف في الناس فقال:

«يا أهل المدينة، إني رسول أهل البصرة إليكم: أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علي أم أتياها طائعين؟».

فلم يجبه أحد من القوم رهبة وخشية أن يبطش به. وكأنه عظم على أسامة بن زيد صاحب رسول صلى الله عليه وسلم وحبه وابن حبه أن يبقى الحق مكتوما ضعيفا، فوقف وقال:

«اللهم لم يبايعا إلا وهما كارهان[١]».

فأمر به تمام بن العباس أمير المدينة لعلي، فواثبه سهل بن حنيف والناس حتى كاد أسامة يتلف، لولا أن ثار صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصاري في عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوا أن يقتل أسامة فقال: «اللهم نعم، فانفرجوا عن الرجل». فانفرجوا عنه. وأخذ صهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله وقال: «قد علمت أن أم عامر[٢] حامقة، أما وسعك ما وسعنا من السكوت؟» قال: «لا والله، ما كنت أرى أن الأمر يترامى إلى ما رأيت وقد أبسلنا[٣] (الأمر) العظيم».

وصل خبر ما كان بالمدينة إلى علي فكره ذلك، وساءه ما فعل عثمان، هو وال له على البصرة: عليه أن يحميها منهم، فأتى ما أضعف أمره وأمر علي، فبادر علي بالكتابة إليه يعجزه ويقول:

---

[١] مر بك ص٨٧ تفاصيل بيعتهما لعلي.

[٢] أم عامر كنية الضبع، والعامر: جروها، فلعله يعرض به أو يقول: إن الحمق من شأن الجماعات.

[٣] أبسلنا: أسلمنا للهلاك.

www.alkottob.com

«والله ما أكرها على فرقة، ولقد أكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عـذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا[٤]».

وقد وقع في غياب كعب أشياء بين الفريقين، عدها طلحة والزبير اعتداء ونقضـا لشـروط الصلح فاضطغنوها في أنفسهم، منها: أن محمد بن طلحة – وكان على ما مر بك: زاهدا متعبدا صاحب صلاة – قام في المسجد مقاما قريبا من أمير البصرة عثمان بن حنيف، فـارتيب بـه، وخشى الزط والسيابجة[٥] أن يكون جاء لغير الصلاة فنحياه، فبعث طلحة والزبـير إلى عثمـان يقولان: «هذه واحدة».

رجوع كعب واعتذار عثمان عن إنفاذ الشروط:

رجع كعب إلى البصرة، وأخبر القوم بجواب أهل المدينة، وأرسل طلحة والزبير ومن معهما إلى عثمان بن حنيف: «أن أخرج عنا». وكان طلبا حقا، فعلى ذلك اصطلحوا وهذا ما شرطوه.

إلا أن عثمان بن حنيف اعتذر بأنه أصبح أمام حادث جديد؛ فإن الكتاب الذي أرسله علـي إليه يعجزه فيه، يجعل البت في هذا الأمر إلى علي نفسه لا إلى عثمان. وذلك حيث يقول في كتابه الذي مر آنفا: «فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما، وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا».

أرسل عثمان إليهما محتجا بالكتاب المذكور قائلا: «هذا أمر آخر غير ما كنا فيه».

فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح وندى، ثم قصدا المسجد فوافقـا صلاة العشاء، وكانوا يؤخرونها، فأبطأ عثمان بن حنيف، فقدما عبد الرحمن بن عتاب ليصلـي بالناس، فشهر الزط والسيابجة السلاح ثم وضعوه فيهم، فأقبل أصحاب الجمل واقتتلوا في المسجد وصبوا لهم حتى قتلوهم، ثم دخلوا على عثمان بن حنيف ليخرجوه إليهما، فلما وصـل إليـهما توطؤوه حتى ما بقيت في وجهه شعرة، فاستعظم طلحة والزبير ذلك، فأرسلا إلى عائشة بـالذي كان، واستطلعا رأيها، فأرسلت إليهما أولا: «أن اقتلوه» فقالت لها امرأة: «نشدتك الله يـا أم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم»، فاستردت الرسول وقـالت لـه: «احبسوه ولا تقتلوه» قال الرسول: «لو علمت أنك تدعينني لهذا لم أرجع». فقال لهم مجاشع بن

---

[٤] الطبري ٣/٤٨٥.

[٥] السيابجة: هم الشرط حرس بيت المال – شرح نهج البلاغة ٢/٥٠٠.

www.alkottob.com

مسعود: «اضربوه وانتفوا شعر لحيته». فضربوه أربعين سوطا ونتفوا شعر لحيته ورأسه وحاجبيه وأشفار عينيه وحبسوه[٦].

قام بعد ذلك طلحة والزبير خطيبين فقالا:

«يا أهل البصرة، توبة بحوبة[٧]، إنما أردنا أن يستعتب أمير المؤمنين عثمان و لم نرد قتله، فغلب سفهاء الناس الحلماء حتى قتلوه».

فقال الناس لطلحة: «يا أبا محمد، قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا!».

فقال الزبير: «هل جاءكم مني كتاب في شأنه؟» ثم ذكر قتل عثمان رضي الله عنه وما أتى إليه وأظهر عيب علي... فقام إليه رجل من عبد القيس فقال: «أيها الرجل، أنصت حتى نتكلم». فقال عبد الله بن الزبير: «ومالك وللكلام؟» فقال الرجل العبدي:

«يا معشر المهاجرين، أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل، ثم دخل الناس في الإسلام كما دخلتم، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم: والله ما استأمرتمونا في شيء من ذلك، فرضينا واتبعناكم، فجعل الله عز وجل في إمارته بركة. ثم مات رضي الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم فلم تشاورونا في ذلك فرضينا وسلمنا، فلما توفي الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر، فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورة منك ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا فقتلتموه من غير مشورة منا، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا: فما الذي نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفيء أو عمل بغير الحق، أو عمل شيئا تنكرونه فنكون معكم عليه؟ وإلا فما هذا؟؟» فهموا بقتل ذلك الرجل، فقام من دونه عشيرته، فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من كان معه فقتلوا سبعين رجلا[٨].

---

[٦] الطبري ٣/٤٨٥.

[٧] الحوبة: الخطيئة.

[٨] الطبري ٣/٤٨٦.

www.alkottob.com

وقد كان هذا الحادث في جملة ما اعتد به أصحاب علي على أصحاب الجمل، وما أكثر الذين يقولون قول هذا الرجل العبدي[٩]، وما أكثر الذين وقعوا معه في حيرة من أمر طلحة قبل قتل الخليفة عثمان وبعده.

ومهما يكمن من شيء فإن في كلام هذا العبدي إنصافا وحيادا ومنطقا وحقا ولكن ما كان المنطق مغيرا شيئا من ثورة الجماهير العمياء. لقد طحنت الجماهير هؤلاء السبعين مع العبدي وكانت هذه المجزرة من أقوى ما أضرم الغيظ والحقد في النفوس، فعجلت الحرب وملأت بالغضب والحرقة صدر علي ومن معه فيما بعد.

استولى أصحاب عائشة على دار الرزق في الليلة التي قبضوا فيها على عثمان، وكان في رحبتها طعام كثير يرتزقه الناس، فأراد الزبير وابنه أن يرزقاه أصحابهما خاصة، وصيرا على بيت المال عبد الرحمن بن أبي بكر بعد اختلاف يسير فيما بينهم.

* * *

لم يكن بقاء الطائفتين متجاورتين في البصرة أمرا طبيعيا، بل لا بد من إخراج الضعيفة منهما واستئثار القوية بالبلدة ومرافقها. وكانت الطائفة القليلة هي البادئة بالشر وهي التي تنجزت القضاء على نفسها: فقد «أصبح طلحة والزبير: وبيت المال في أيديهما والناس معهما، ومن لم يكن معا فهو مغمور مستخف»، وعلما أن حكيم بن جبلة - وهو أشد الناس غراما في عداوتهما ورغبة في القتال - قد أخذ بجمع الأنصار للتحفز، فأرسلا بذلك إلى عائشة.

«وأصبح[١٠] حكيم بن جبلة على رجل فيمن تبعه من عبد القيس ومن نزع إليهم من أفناء ربيعة، ثم توجهوا نحو دار الرزق» وحكيم يقول: «لست بأخيه إن لم أنصره» وجعل يشتم عائشة رضي الله عنها، فسمعته امرأة من قومه فقالت: «يا بن الخبيثة، أنت أولى بذلك» فطعنها فقتلها كما فعل في المناوشة الأولى، فغضبت عبد القيس فقالوا: «فعلت بالأمس، وعدت لمثل ذلك اليوم؟ والله لندعنك حتى يقيدك الله»، فرجعوا وتركوه.

---

(٩) نسبة إلى عبد القيس.

(١٠) الطبري ٣/٤٨٦-٤٨٨ و٤٩١ بتصرف يسير.

www.alkottob.com

وسار حكيم بمن بقي معه من بكر بن وائل وعبد القيس نحو دار الرزق، فأتى عبد الله بن الزبير فقال عبد الله: «ما لك يا حكيم؟».

قال: «نريد أن نرتزق من هذا الطعام، وأن تخلوا عثمان يقيم بدار الإمارة على ما كتبتم بينكم حتى يقدم علي؛ والله لو أجد أعوانا عليكم أخبطكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى أقتلكم بمن قتلتم. ولقد أصبحتم وإن دماءكم لنا لحلال بمن قتلتم من إخواننا، أما تخافون الله عز وجل؟ بم تستحلون سفك الدماء؟».

فقال ابن الزبير: «بدم عثمان».

قال حكيم: «فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان؟ أما تخافون مقت الله؟».

فقال ابن الزبير: «لا نرزقكم من هذا الطعام ولا نخلي سبيل عثمان بن حنيف حتى يخلع عليا».

قال حكيم: «اللهم إنك حكم عدل فاشهد».

وقال لصحابه: «إني لست في شك من قتال هؤلاء، فمن كان في شك فلينصرف».

ولما رأى أصحاب الجمل الجد من حكيم ومن معه قالت عائشة: «لا تقتلوا إلا من قلتلكم». ونادى أصحاب الجمل: «من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا، فإنا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نبدأ أحدا».

فأنشب حكيم القتال، و لم يرعو للمنادي، فقال طلحة والزبير:

«الحمد لله الذي جمع لنا ثأرنا من أهل البصرة. اللهم لا تبق منهم أحدا، وأقد منهم اليوم فاقتلهم».

فجادوهم القتال فاقتتلوا قتلا شديدا، واصطفوا فرقا أربعا عليها قواد أربعة ممن أغار على عثمان، فكان حكيم بحيال طلحة، وذريح بحيال الزبير، وابن المحرش بحيال عبد الرحمن بن عتاب، وحرقوص بن زهير بحيال عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام....

فزحف طلحة لحكيم وهو في ثلاث مئة رجل، وجعل حكيم يضرب بالسيف ويقول:

أضربهم باليابس

www.alkottob.com

ضـــــــرب غـــــــــلام عــــــــابس

مــــــن الحيــــــــاة آيـــــــس

في الغرفـــــــــــات نـــــــــــــافس

فضرب رجل رجله فقطعها، فحبا حتى أخذها فرمى بها صاحبه، فأصاب جسده فصرعــــــه، فأتاه حتى قتله ثم اتكأ عليه وقال:

يـــــا فخـــــــــذ لـــــــن تراعــــــي

إن معـــــــــــــي ذراعـــــــــــــــي

أحمـــــــي بهـــــــا كراعــــــــي[11]

وارتجز أيضا:

أقـــول لمـــــا جــــــد بي زمـــــاعي[12]

للرجـــل: يـــا رجلـــي لـــــن تراعــــي

إن معـــــي مـــــن نجـــــدة ذراعــــــي

وتكلم يومئذ حكيم وإنه لقائم على رجل واحدة، وإن السيوف لتأخذ منــهم فمـــا يتتعتــع (يتلعثم) ويقول:

«إنا خلفنا هذين (طلحة والزبير) وقد بايعا عليا وأعطياه الطاعة، ثم أقبلا مخـــالفين محـــاربين يطلبان بدم عثمان، ففرقا بيننا ونحن أهل دار وجوار، اللهم إنهما لم يريدا عثمان» فنادى مناد:«يا خبيث، أجزعت حين عضك نكال الله عز وجل إلى كلام من نصبك وأصحابك بما ركبتم مـــن الإمام المظلوم وفرقتم الجماعة، وأصبتم من الدماء ونلتم من الدنيا؟ فذق وبال الله عــــز وجـــل وانتقامه، وأقيموا فيمن أنتم...».

ثم خارت قوى حكيم وهو يرتجز:

ليــــس علــــي أن أمـــوت عـــــار

---

[11] الكراع: ما دون الكعب من الدابة، ودون الركبة من الإنسان.

[12] الزماع: المضي في الأمر لا يثنيك عنه شيء.

www.alkottob.com

والعـــــار في النـــــاس هـــــو الفـــــرار
والمجـــــد لا يفضحـــــه الدمـــــار

فأتى عليه رجل وهو رثيث (جريح رمق) قد أسند رأسه على جسد الذي قتله، فقال: «مالك يا حكيم؟» قال: «قتلت» قال: «من قتلك؟» قال: «وسادتي» فاحتمله وضمه في سبعين مـــن أصحابه من عبد القيس جميعهم قتلوا.

هم أصحاب الجمل - بعد قتل حكيم - أن يقتلوا عثمان بن حنيف ثانية فقال لهم عثمان:

«ما شئتم، أما إن سهل بن حنيف وال على المدينة، إن قتلتموني انتصر» فأقلعوا عن قتله خوفا على ذويهم بالمدينة وخشية من غضب من في البصرة من الأنصار. وأرسلت عائشة آمـــرة أن: «خلوا سبيله فليذهب حيث يشاء ولا تحبسوه». فأخرجوا الحرس الذين يتعقبون حرسه وكـــانوا أربعين رجلا. ومضى عثمان بن حنيف فيمن غزا عثمان بن عفان وحصره من نـــزاع القبـــائل، وعرفوا أن لا مقام لهم بالبصرة.

* * *

قتل في هذه الواقعة حكيم وابنه الأشرف وأخوه الرعل، وقتل ذريح ومن معه، وأفلت منـــهم حرقوص بن زهير في نفر من أصحابه فلجؤوا إلى قومهم.

وهنا أمرت عائشة - لما اختلفوا على الصلاة - أن يصلي بالناس ابن أختها عبـــد الله بـــن الزبير. ونادى بالبصرة منادي طلحة والزبير عقب الحادث:

«ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم». فجيء بهم كما يجاء بالكلاب فقتلوا، فما أفلت من أهل البصرة جميعا إلا حرقوص بن زهير[١٣] فإن قومه بني سعد منعوه.

و لم يكتف أصحاب عائشة بما صنعوا، وإن فيه لكفاية ومزيدا على الكفايـــة، بـــل أرادوا أن يقتصوا لعثمان من جميع الآلاف التي قصدت المدينة وحرصوا على ألا يفوهم أحد. وخســـروا - بما شددوا - جموعا كثيرة هرعت إلى علي: كان في الإمكان أن تظل محايدة إن لم نقل حاطبة في حبل أصحاب الجمل. لقد منعت قبيلة بني سعد رجلا منهم يتركه طلحة وأصحابه، و لم يلاينـــوا

---

[١٣] الكامل لابن الأثير ٩٣/٣.

www.alkottob.com

قبيلة بأسرها فشددوا عليهم وضربوا لهم أجلا وخشنوا صدور بني سعد - وإنهم لعثمانيـــــة - حتى قالوا: نعتزل. وغضبت بنو عبد القيس حين غضبت بنو سعد لمن قتل منهم بعد الواقعة ومـــن كان هرب إليهم وهم - على خلاف بني سعد - طاعتهم وميلهم إلى علي.

ثم زاد طلحة والزبير الأمر، حين أمرا للناس بأعطياتهم وأرزاقهم وحقوقهم، وفضلا بـــالفضل أهل السمع والطاعة - من جماعتهم طبعا - فخرجت عبد القيس وبكر بن وائل حـــين زووا عنهم الفضول فبادروا إلى بيت المال، وأكب الناس عليهم فأصابوا منهم، وخرج القوم حتى نزلوا على طريق علي. وهكذا قوي أمر ابن أبي طالب بعض القوة.

* * *

أما السيدة فلم تفتر بعد هذا الظفر المؤقت عن إحكام الدعاية لدعوتها السياسية، تحـــاول أن تجتلب من لا يزال يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وأرادت أن تعوض عما خسر أصحابها من قبـــائل ذهبت عنهم إلى علي مغاضبة. بل لقد طمعت أن تجتذب إلى دعوتها حتى رؤساء الناس أصحـــاب الدهاء والغور البعيد ممن هم على خلاف مذهبها السياسي؛

خطبت عقب هذه الحوادث لما دخلت البصرة وبحضرتها الأحنف بن قيس وموسى بن طلحـــة ورجال من وجوه العرب، فقالت:

«إن لي حرمة الأمومة وحق الموعظة، لا يتهمني منكم إلا من عصى ربه، وقبض رســـول الله بين سحري ونحري وحاقنتي وذاقنتي وأنا إحدى نسائه في الجنة. وبه حصنني ربي من كل وضيع، وبي ميز مؤمنكم من منافقكم، وبي رخص لكم في صعيد الأبواء، وأبي ثاني اثنين، ورابع أربعة من المسلمين وأول من سمي صديقا، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض وقد طوقـــه وهف الإمامة. ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه ورتق لكم أثناءه، فوقذ النفاق وأغاض نبـــع الردة، وأطفأ ما حشت يهود؛ وأنتم يومئذ جحظ العيون تنظرون العدوة وتستمعون الصيحـــة... فرأب الثأي وأوذم السقاء، وامتاح من المهواة، واجتهر دفن الرواء.. حتى قبضه الله إليه واطئا على هام النفاق، مذكيا لحرب المشركين، يقظان الليل في نصرة الإسلام، صفوحا عن الجاهلين، بعيـــد ما بين اللابتين، عركة للأذاة بجنبه، خشاش المرأة والمخبرة، فسلك مسلك السابقين.

www.alkottob.com

تبرأت إلى الله من خطب جمع شمل الفتنة ومزق ما جمع القرآن. أما نصب المسألة عن سيرى هذا (لم ألتمس إثما و لم أدلس فتنة أوطئكموها): ألا وإني أقبلت لدم الإمام المظلوم المركوبة منه الفقر الأربع: حرمة الإسلام وحرمة الخلافة وحرمة الصحبة وحرمة الشهر الحرام، فمن ردنا عن ذلك بحق قبلناه، ومن ردنا عنه بباطل قتلناه، فربما ظهر الظالم على المظلوم والعاقبة للمتقين[١٤]. (أقول قولي هذا صدقا وعدلا وإعذارا وتعذيرا، وأسأل الله أن يصلي على محمد، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين)[١٥]».

فقال لها الأحنف: «إني سائلك ومغلظ لك في المسألة فلا تجدي (تغضي) علي:

«أعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجك هذا؟» قالت: «لا» قال لها:

«أفعندك عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أنك معصومة عن الخطأ؟» قالت: «لا».

قال لها: «صدقت، إن الله رضي لك بالمدينة فأبيت إلا البصرة، وأمرك بلزوم بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فنزلت بيت الحرشة الضبي. ألا تخبريني يا أم المؤمنين: أللحرب قدمت أم للصلح؟» قالت: «بل للصلح» فقال لها:

والله لو قدمت وليس بينهم إلا الخفق بالنعال والضرب بالحصى ما اصطلحوا على يديك، فكيف والسيوف على عواتقهم؟!».

فبدا للسيدة ما لم تكن تحتسب. وانكسرت نفسها فقالت:

---

(١٤) ذكر بعض هذه الخطبة وخبرها في أخبار النساء لابن الجوزي ص ١٣، وذكر في الفائق للزمخشري ٢٨٧/١، وفي بلاغات النساء ص ٧ وفي العقد الفريد ٩٦/٣، وقد اعتمدنا رواية الفائق غالبا واستفدنا من بلاغات النساء في الإصلاح والزيادة، وتختلف الألفاظ في الروايتين.

الشرح – السحر: الرئة. الحاقنة: النقرة بين الترقوة وحبل العاتق. الذاقنة: طرف الحلقوم. صعيد الأبواء: مكان ضاع فيه عقدها فاحتبس الجيش في التفتيش عنه و لم يكن ثمة ماء فأنزل الله رخصة التيمم، الوهف: الإقامة. نبغ الردة: ما ظهر منها. حشت: أوقدت رأب الثأي: أصلح الفاسد. أوذم السقاء: شده بالأوذام وهي السيور الطوال. امتاح من المهواة: استخرج الماء من البئر. احتهر دفن الرواء. كسح الماء الكثير. (يروى: احتحى دفين الداء: استأصل): اللابتان: حرتا المدينة (تريد: واسع الصدر) عركة: محتمل. خشاش المرأة والمخبرة: ماض خفيف ظاهرا وحقيقة. أنا نصب المسألة: أنا عرضة لأن أسأل. الفقر: الحرمات.

(١٥) زيادة عن أخبار النساء لابن الجوزي.

www.alkottob.com

«لقد استغرق حلم الأحنف هجاؤه إياي، إلى الله أشكو عقوق أبنائي[١٦]».

* * *

أقام طلحة والزبير، وبايع لهما أهل البصرة، واستخفهما هذا الظفر حتى استحليا أن يعجلا النتيجة قبل استتمام مقدماتها، فقد روى الطبري أن الزبير قال لما بويع لهما:

ألا ألف فارس أسير بهم إلى علي، فإما بيته وإما صبحته، لعلي أقتله قبل أن يصل إلينا؟» فلم يجبه أحد، فقال: «إن هذه لهي الفتنة التي كنا نحدث عنها[١٧]» فتربصا وأصحابهما ليس معهما بالبصرة ثأر إلا حرقوص بن زهير. وكتبوا بما تم لهم من الظفر كتابا لأهل الشام وآخر إلى أهل المدينة، وآخر إلى اليمامة، ورابعا إلى أهل الكوفة. ولا حاجة لذكر جميع هذه الكتب،، بل نكتفي بأوفاها وأجمعها وهو الكتاب الذي أرسلته عائشة إلى أهل الكوفة مع رسولهم، فإن فيه بلاغا، أرسلت إليهم:

«أما بعد فإني أذكركم الله عز وجل والإسلام، أقيموا كتاب الله بإقامة ما فيه، اتقوا الله واعتصموا بحبله وكونوا مع كتابه، فإنا قدمنا البصرة فدعوناهم إلى إقامة كتاب الله بإقامة حدوده فأجابنا الصالحون إلى ذلك، واستقبلنا من لا خير فيه بالسلاح وقالوا: «لنتبعنكم عثمان» ليزيدوا الحدود تعطيلا. فعاندوا فشهدوا علينا بالكفر وقالوا لنا المنكر، فقرأنا عليهم قوله تعالى:

{ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون} [آل عمران: ٣/٢٣].

فأذعن لي بعضهم واختلفوا بينهم فتركناهم وذلك، فلم يمنع ذلك من كان منهم على رأيه الأول من وضع السلاح في أصحابي: وعزم عليهم عثمان بن حنيف إلا قاتلوني، حتى منعني الله عز وجل بالصالحين، فرد كيدهم في نحورهم. فمكثنا ستا وعشرين ليلة: ندعوهم إلى كتاب الله وإقامة حدوده وهو حقن الدماء أن تهرق، دون من قد حل دمه، فأبوا واحتجوا بأشاء فاصطلحنا عليها، فخافوا وغدروا وخافوا وحشروا، فجمع الله عز وجل لعثمان رضي الله عنه ثأره، فأقادهم

---

[١٦] المصادر السابقة.

[١٧] الطبري ٣/٤٩١.

www.alkottob.com

فلم يفلت منهم إلا رجل. وأردأنا (حمانا) الله ومعنا منهم بعمير بن مرثد، ومرثد بن قيس، ونفر من قيس والرباب والأزد.

فالزموا الرضا إلا عن قتلة بن عفان حتى يأخذ الله حقه، ولا تخاصموا عن الخائنين ولا تمنعوهم، ولا ترضوا بذوي حدود الله فتكونوا من الظالمين[١٨]».

وكتبت إلى رجال بأسمائهم:

«..فثبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم، واجلسوا في بيوتكم، فإن هؤلاء القوم لم يرضوا بما صنعوا بعثمان بن عفان رضي الله عنه، وفرقوا بين جماعة الأمة وخالفوا الكتاب والسنة... حتى شهدوا علينا - فيما أمرناهم به وحثثناهم عليه من إقامة كتاب الله وإقامة حدوده - بالكفر، وقالوا لنا المنكر. فأنكر ذلك الصالحون وعظموا ما قالوا، وقالوا: «ما رضيتم أن قتلتم الإمام حتى خرجتم على زوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم: أن أمرتكم بالحق، لتقتلوها وأصحاب رسول الله صلى اله عليه وسلم وأئمة المسلمين؟» فعزموا وعثمان بن حنيف معهم على من أطاعهم من جهال الناس وغوغائهم: على زطهم وسيابجتهم، فلذنا منهم بطائفة من الفسطاط.. فكان ذلك الدأب ستة وعشرين يوما: ندعوهم إلى الحق وألا يحولوا بيننا وبين الحق، فغدروا وخانوا فلم نقايسهم، واحتجوا ببيعة طلحة والزبير، فأبردوا بريدا فجاءهم بالحجة فلم يعرفوا الحق و لم يصبروا عليه، فغادوني في الغلس ليقتلوني والذي يحارهم غيري، فلم يبرحوا حتى بلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يهديهم إلي، فوجدوا نفرا على باب بيتي منهم عمير بن مرثد ومرثد بن قيس ويزيد بن عبد الله بن رمثد، ونفر من قيس ونفر من الرباب والأزد...، فدارت عليهم الرحى، فأطاف بهم المسلمون فقتلوهم، وجمع الله عز وجل كلمة أهل البصرة على ما أجمع عليه الزبير وطلحة. فإذا قتلنا بثأرنا وسعنا العذر.

وكانت الموقعة لخمس ليال من ربيع الآخر سنة ست وثلاثين.

وكتب عبيد بن كعب في جمادى».

---

[١٨] الطبري ٤٨٩/٣.

www.alkottob.com

ويظهر من كتابها هذا أن بعض الغوغاء ممن لا خلاق لهم، هموا بالاعتداء على السيدة نفسها. و لم أعثر - في المصادر التي رأيتها - بخبر هذا الاعتداء إلا ما أشارت إليه في كتابها هنا وإلا ما جاء في كتاب أصحاب عائشة إلى أهل الشام، فقد روى الطبري[١٩] فيه هذه الجملة:

«...فبايعنا خيار أهل البصرة ونجباؤهم، وخالفنا شرارهم ونزاعهم، فردونا بالسلاح وقالوا فيما قالوا: (نأخذ أم المؤمنين رهينة..) أن أمرتهم بالحق وحثتهم عليه، فأعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة... إلخ».

وظل القوم في نشوة من استيلائهم على البصرة وإخراجهم منها أميرها مدحورا، وقتلهم قتلة عثمان. وعجلت عائشة في حسابها وظنت أن الأمر معها إلى تمام، فأحبت أن تبشر بذلك أم المؤمنين حفصة بنت عمر بالمدينة، فكتبت إليها:

«أما بعد فأخبرك أن عليا نزل ذا قار، وأقام بها مرعوبا خائفا لما بلغه من عدتنا وجماعتنا، فهو بمنزلة الأشقر: إن تقدم عقر، وإن تأخر نحر...[٢٠]».

---

[١٩] ٣/٤٨٨.

[٢٠] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣/٢٩٢ - الأشقر: الفرس، وهذا مثل.

www.alkottob.com

الباب الثالث

يوم الجمل الأكبر

الفصل الأول

علي في طريقه إلى الكوفة
سفارات ومراسلات

تمهيد

نرجع الآن بالحديث إلى علي بعد أن علمنا كيف تم الأمر لأصحاب الجمل منذ خروجهم من مكة حتى احتلالهم البصرة وكتابتهم بذلك إلى الأمصار.

عرفت — على ما تقدم في ص ١١٣ — أن عليا خرج من المدينة يريد معارضة أصحاب الجمل في الطريق، وأنهم لما فاتوه تربص بالربذة بعد أن بلغه مسيرهم إلى البصرة دون الكوفة؛ وقد كان يخشى أن ينزلوا الكوفة، فلما عرف طيتهم سري عنه وقال: «إن أهل الكوفة أشد لي حبا وفيهم العرب وأعلامهم».

أتته — وهو بالربذة — وفود القبائل من طيء وبكر بن وائل وأسد: تقدم إليه الطاعة وتعرض عليه الخروج معه، فشكرهم وأثنى عليهم خيرا. ولما قدمت جماعة طيء فقيل له: «هذه جماعة طيء قد أتتك: منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يرد التسليم عليك» قال علي: جزى الله كلا خيرا، فضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما». ثم دخلوا عليه فقال علي: «ما شهدتمونا به؟» قالوا: «شهدناك بكل ما تحب» قال: «جزاكم الله خيرا: فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين». فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: «يا أمير المؤمنين، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني، وسأجتهد وبالله التوفيق:

www.alkottob.com

أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوك في كل موطن، وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك»، فأجابه علي: «رحمك الله، قد أدى لسانك عما يجن ضميرك[1]».

لقد نزلت هذه المقالة من نفس علي، نزل العذب البارد من ذي الغلة الصادي، فقويت نفسه بعد أن حز فيها خلاف معاوية وخلاف أصحاب الجمل، وأرسل إلى المدينة «فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره، وقام في الناس فخطبهم وقال:

«إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد، فجرى الناس على ذلك ما شاء الله: الإسلام دينهم، والحق فيهم، والكتاب إمامهم، حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان ليترغ بين هذه الأمة. إلا أن هذه الأمة — لا بد — مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم، فنعوذ بالله من شر ما هو كائن. فقد أدركتم ورأيتم، فألزموا دينكم واهتدوا بهدي نبيكم صلى الله عليه وسلم، واتبعوا سنته، واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله جل وعز ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، وبالقرآن حكما وإماما».

اغتبط علي بما كان يرى في الربذة يوما بعد يوم من إقبال الناس على أمره. ولما عزم على الخروج من الربذة، قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال:

«يا أمير المؤمنين، أي شيء تريد؟ وإلى أين تذهب بنا؟».

قال: «أما الذي نريد وننوي: فالإصلاح إن قبلوا منا وأجابوا إليه».

قال: «فإن لم يجيبونا إليه؟».

قال: «ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر».

قال: «فإن لم يرضوا؟».

قال: «ندعهم ما تركونا».

---

[1] الطبري ٣/٤٩٤- وذكر أن سعيد بن عبيد هذا بقي مع علي حتى قتل معه بصفين.

www.alkottob.com

قال: «فإن لم يتركونا؟».

قال: «امتنعنا منهم».

قال: «فنعم إذن».

وبهذا كشف علي عن خطته التي اعتزم إمضاءها وهي — كما ترى — خطة سداد ومسامحة ورتق فتق.

وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: «لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول وأنشد:

دراكها دراكها قبل الفوت
وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت
لا وألت نفسي إن هبت الموت

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمانا أنصارا[٢]».

ففي جيش علي من كان يخلص له النصرة، ويحب ملء قلبه أن يلقى الخارجين عليه، فيروي سنانه وسيفه من دمائهم.

هذا وقد وصل إلى علي وهو بالربذة، وإليه على البصرة عثمان بن حنيف منتوف شعر الرأس واللحية والحاجبين — على ما علمت ١٣٩ — فقال:

«يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وجئتك أمردا!».

قال: «أصبت أجرا وخيرا، إن الناس قبلي رجلان فعملا بالكتاب، ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا، ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي وألبا علي الناس، ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وخلافهما علي. والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن قد مضى.... اللهم فاحلل ما عقدا، ولا تبرم ما قد أحكما في أنفسهما، وأرهما المساءة فيما قد عملا[٣]».

قم قال علي لأصحابه بذي قار: «إن هذا انطلق من عندنا وهو شيخ فرجع وهو شاب».

---

(٢) الطبري ٣/٤٩٤-٤٩٥ وأل: نجا.

(٣) الطبري ٣/٤٩٥- أبابيل: جماعات: الكميت: الفرس الأشقر.

www.alkottob.com

تعبأ علي، وخرج من الربذة في سبعمائة وستين، وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح، والراية مع محمد بن الحنفية، وعلى الميمنة عبد الله بن العباس، وعلى الميسرة عمر بن أبي سلمة[٤]، وخرج علي على ناقة له حمراء يقود فرسا كميتا وراجز يرجز به:

سيروا أبابيل وحثوا السيرا

إذ عزم السير وقولوا خيرا

حتى يلاقوا وتلاقوا خيرا

يغزو بها طلحة والزبيرا

اتجه علي إلى ذي قار، وكان في الطريق لا يني عن استخبار الناس عما وراءهم، وخاصة عن أخبار أهل الكوفة فإن أمرها مما يهمه. يروي الطبري أنه سأل عامر بن مطر أحد بني شيبان عما وراءه فأخبره، حتى سأله عن أبي موسى فأجابه: «إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك، وإن أردت القتال فأبو موسى ليس بصاحب ذلك». فقال علي: «ما أريد إلا الإصلاح حتى يرد علينا». قال الرجل: «قد أخبرتك الخبر» وسكت علي.

وكان لما انتهت إليه حوادث البصرة وما لقي عثمان بن حنيف وحرسه، قام فأخبر جموعه الخبر ثم قال: «اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير من قتل المسلمين، وسلمنا منهم أجمعين». وعلق على قتل أصحاب الجمل حكيم بن جبلة وإخوانه الثائرين بالخليفة الشهيد بقوله:

«الله أكبر، ما ينجيني من طلحة والزبير إذ أصابا ثأرهما أو ينجيهما؟» وقرأ: {ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها} [الحديد: ٢٢/٥٧].

ثم استقر بذي قار يحكم فيها أمره، ويحاول أن يصل إلى توحيد الكلمة عن طريق الإقناع والنصح: بالكتب والرسل والسفارات.

---

[٤] انظر ص ٩٧.

www.alkottob.com

سفارات علي ومراسلاته

(١) إلى أهل الكوفة

١- كتب علي – وهو متربص بالربذة – إلى أهل الكوفة:

«بسم الله الرحمن الرحيم:

أما بعد، فإني اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم؛ فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه[١]».

٢- ثم أرسل إليهم من الربذة أيضا يستفزهم لنصرته، وسرح إليهم محمد ابن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وبعث إليهم بالكتاب الآتي:

«إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث؛ فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا، فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا... ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه[٢]».

فمضى الرسولان إلى الكوفة، وأتيا أبا موسى بكتاب علي استنهضا الناس إلى الخروج إليه ونصرته، فلم يجابا إلى شيء. وفي المساء دخل ناس من وجوه أهل الكوفة وذوي الحجى منهم على أبي موسى يستشيرونه في هذا الأمر الجديد وقالوا: «ما ترى في الخروج»؟ فقال: «كان الرأي بالأمس ليس اليوم: إن الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون وما بقي. إنما هو أمران: القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا، فاختاروا» وبذلك حبط مسعى الرسولين و لم ينفر أحد، فغضب المحمدان وأغلظا لأبي موسى الكلام فقال أبو موسى: «والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما، فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحدا حتى يفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا[٣]».

---

(١) الطبري ٤٩٣/٣.

(٢) ص ٤٩٤- وغمص النعمة: كفارنها، وهو ضد الشكر.

(٣) ص ٤٩٧.

www.alkottob.com

وبهذا أشبه مذهب أبي موسى طلحة والزبير في البعد عن المنطق: إذ ليس من المعقول أن يقام حد والناس لا إمام لهم، فإن وجد الإمام فليس لأحد أن يستبد بأمر إلى الإمام مرده، إلا مشورة يبذلها أو نصحا يدلي به ثم عليه الائتمار بأمر إمامه.

رجع الرسولان إلى علي فوافياه بذي قار، وأخبراه الخبر.

٣- لما بلغ عليا جواب أبي موسى لمحمد بن أبي بكر قال: «لقد أردت عزله وسألني الأشتر أن أقره» وأرسل ثانية هاشم بن عتبة — وهو الذي أبلغه ما كان من أبي موسى — إلى الكوفة لينهض الناس، وكتب علي إلى أبي موسى:

«إني وجهت هاشما لينهض من قبلك من المسلمين إلي، فأشخص الناس: فإني لم أولك الذي أنت به إلا لتكون من أعواني على الحق».

فلما أتي أبا موسى الرسول والرسالة دعا السائب بن مالك الأشعري يستشيره، فقال له: «ما ترى؟» قال مالك: «أرى أن تتبع ما كتب به إليك». قال أبو موسى: «لكني لا أرى ذلك». وأصر أبو موسى على موقفه الأول، فلم تغن الرسالة ولا الرسول شيئا وكتب هاشم إلى علي:

«إني قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر الغل والشنآن».

٤- لما رأى علي إخفاق السفارتين المتقدمتين وقد كان ينتظر الإجابة والنجاح ليسرع إلى الكوفة، كره مقام أبي موسى في هذا الأمر، وغدا يلوم الأشتر النخعي لأنه هو الذي كان أشار عليه بإبقاء أبي موسى ويقول له: «يا أشتر أنت صاحبنا في أبي موسى والمعترض في كل شيء، اذهب أنت وعبد الله بن عباس فأصلح ما أفسدت».

فخرج عبد الله بن عباس ومعه الأشتر حتى قدما الكوفة، فكلما أبا موسى واستعانا إليه بأناس من الكوفيين، فلم يغير ذلك من موقف أبي موسى شيئا. بل جمع الناس ليحذرهم من أن يؤخذوا بدهاء ابن عباس وفصاحته، فلما اجتمعوا خطبهم أبو موسى فقال:

«يا أيها الناس، إن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله صلى الله عليه وسلم ممن لم يصحبه، وإن لكم علينا حقا فأنا مؤديه إليكم:

www.alkottob.com

كان الرأي ألا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا عليه، وكان الرأي الثاني أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا، وهم أعلم بمن تصلح له الإمامة ولا تكلفوا الدخول في هذا، فأما إذ كان ما كان: فإنها فتنة صماء، النائم فيها خير من اليقظان، واليقظان فيها خير من القاعد، والقاعد خير من الراكب.... فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وانصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار، وآووا المظلوم والمضطهد... حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلي هذه الفتنة».

كان نصيب هذه السفارة نصيب ما قبلها إخفاقا، ولم ينجع دواء من لين وحجة مع عناد أبي موسى وإصراره على مخالفة إمامه. فدعا ذلك عليا إلى الأخذ بالعلاج الحاسم، وعرف أن الحلم وسعة الصدر كثيرا ما يضيعان على صاحبهما الحزم في أموره:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

٥- عزز علي سفاراته الثلاث بسفارة رابعة، فأرسل ابنه الحسن وعمار بن ياسر إلا أنه أرسل معهما عزل أبي موسى عن ولاية الكوفة، وولى عليها قرظة بن كعب الأنصاري ومعه هذا الكتاب إلى أبي موسى:

«أما بعد، فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك منه نصيبا يمنعك من رد أمري. وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستنفران الناس، وبعثت قرظة بن كعب واليا على المصر، فاعتزل عملنا مذموما مدحورا، فإن لم تفعل فإني قد أمرته أن ينابذك؛ فإن نابذته وظفر بك: أن يقطعك آرابا»(٤).

ويظهر أن أبا موسى لم يعتزل العمل بسهولة: لم يعتزله حتى نهب متاعه واقتحم قصره وكاد يبطش به.

أقبل الرسولان حتى دخلا المسجد، فتذاكرا هما وأبو موسى وغيرهم الأمور على رؤوس الأشهاد ودفع بعض حجة بعض، وكان موقف أبي موسى هذه المرة ألين قليلا وإن لم يغير نصحه للجماهير:

---

(٤) الطبري ٥١٢/٣ ونص كتاب العزل عند المسعودي: «اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموما مدحورا فما هذا أول يومنا منك، وإن لك فيها لهنات وهنيات» - مروج الذهب ٦/٢.

www.alkottob.com

كان أول من أتى الرسولين مسروق بن الأجدع، فسلم عليهما وأقبل على عمار بن ياسر — وعمار ممن أوضع في فتنة عثمان — فقال له: «يا أبا اليقظان، علام قتلتم عثمان؟» قال: «على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا». فقال: «والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به، ولئن صبرتم لكان خيرا للصابرين». فخرج أبو موسى فضم إليه الحسن وأقبل على عمار قائلا: «يا أبا اليقظان، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار؟» قال عمار: «لم أفعل و لم تسؤني». فقطع عليهما الحسن فأقبل على أبي موسى يقول:

«لم تثبط الناس عنا؟ فوالله ما أردنا إلا الإصلاح، وما مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء».

فقال: «صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنها ستكون فتنة: القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الراكب» وقد جعلنا الله عز وجل إخوانا، وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال:

{يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما} [النساء: ٢٩/٤] وقال: {ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم} [النساء: ٩٣/٤].

فغضب عمار وساءه كلام أبي موسى وقام فقال: «أيها الناس إنما قال له خاصة: أنت قاعدا خير منك قائما».

وقام رجل من بني تميم فقال: «اسكت أيها العبد، أنت أمس مع الغوغاء واليوم تسافه أميرنا؟».

وثار زيد بن صوحان وطبقته وثار الناس، وجعل أبو موسى يكفكف الناس، ثم انطلق حتى أتى المنبر وسكن الناس.

وأقبل زيد بن صوحان على حمار حتى وقف بباب المسجد ومعه الكتابان من عائشة إليه وإلى أهل الكوفة، فأقبل ومعه كتاب العامة وكتاب الخاصة، كتاب العامة: «أما بعد فثبطوا أيها الناس واجلسوا في بيوتكم إلا عن قتلة عثمان بن عفان». فلما فرغ من الكتاب قال:

www.alkottob.com

أمرت بأمر وأمرنا بأمر: أمرت بأن تقر في بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة، فأمرتنا بما أمرت به وركبت ما أمرنا!!».

فقام إليه شبث بن ربعي فقال: «يا عماني، سرقت بجلولاء فقطعك الله، وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله. والله ما أمرت إلا بما أمر الله عز وجل به: بالإصلاح بين الناس» وثار الشغب وتدافع الناس فوقف أبو موسى يخطب:

أيها الناس أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب: يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف. إنا معشر أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أعلم بما سمعنا: إن الفتنة إذا أقبلت شبهت، وإذا أدبرت بينت. إذ هذه الفتنة باقرة كداء البطن:: يجري بها الشمال والجنوب والصبا والدبور، فتسكن أحيانا فلا يدرى من أين تؤتى، تذر الحليم كابن أمس. شيموا سيوفكم، وقصدوا رماحكم، وأرسلوا سهامكم، واقطعوا أوتاركم، والزموا بيوتكم. خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة — ترتق فتقها وتشعب صدعها، فإن فعلت فلأنفسها سعت، وإن أبت فعلى نفسها جنت، سمنها تهريق في أديمها. استنصحوني ولا تستغشوني، وأطيعوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها[٥]».

فقام زيد فشال يده المقطوعة وقال:

«يا عبد الله بن قيس (اسم أبي موسى) رد الفرات عن دراجه، اردده من حيث يجيء حتى يعود كما بدأ؛ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد، فدع عنك ما لست مدركه». ثم قرأ {الم (*) أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون (*) ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين} [العنكبوت: ٢٩/١-٣] سيروا إلى أمير المؤمنين وسيد المسلمين، وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق»

فأثر كلامه في الناس، ورفع أنصار علي رؤوسهم قليلا، ثم وقف متكلم آخر هو القعقاع بن عمرو فقال:

«إني لكم ناصح وعليكم شفيق أحب أن ترشدوا، ولأقولن قولا هو الحق:

---

[٥] الطبري ٤٩٨/٣- فتنة باقرة: صادعة للألفة مفرقة للكلمة، محيرة — الصبا: ريح تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار — الدبور: ريح تقابل الصبا في مهبها. شيموا: أغمدوا قصدوا: كسروا. تشعب تلأم وتصلح. الصدع: الشق.

www.alkottob.com

أما ما قال الأمير — يعني أبا موسى — فهو الأمر لو أن إليه سبيلا، وأما ما قال زيد فزيد في هذا الأمر (يعني اشتراكه في فتنة عثمان) فلا تستنصحوه فإنه لا ينتزع أحد من الفتنة طعن فيها وجرى إليها[٦]. وإن القول الذي هو القول: إنه لا بد من إمارة تنظم الناس وتزع الظالم وتعز المظلوم، وهذا علي يلي بما ولي، وقد أنصف في الدعاء، وإنما يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع».

وتتابع أشياع علي يستنفرون: قام سيحان فقال:

« أيها الناس إنه لا بد لهذا الأمر وهؤلاء الناس من وال يدفع الظالم ويعز المظلوم ويجمع الناس، وهذا واليكم يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه، وهو المأمون على الأمة، الفقيه في الدين، فمن نهض إليه فإنا سائرون معه».

فتكلم عمار وقد قام الحسن في أعلى المنبر وعمار في أسفل منه — فقال: «إن عائشة قد سارت إلى البصرة، إنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم: إياه تطيعون أم هي[٧]».

وقال أيضا: «هذا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنفركم إلى زوجة رسوله وإلى طلحة والزبير، وإني أشهد أنها زوجته في الدنيا والآخرة فانظروا ثم انظروا في الحق فقاتلوا معه» فقال له رجل: «يا أبا اليقظان، إن الحق لمع من شهدت له بالجنة على من لم تشهد له[٨]».

حينئذ قال الحسن: «اكفف عنا يا عمار فإن للإصلاح أهلا» ثم قام خطيبا في الناس فقال:

«أيها الناس، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر إليه. والله لأن يليه أولو النهى أمثل في العاجلة وخير في العاقبة، فأجيبوا دعوتنا، وأعينونا على ما ابتليتم به وابتلينا» فتسامح الناس وأجابوا، ورضوا به.

---

(٦) في الاستيعاب لابن عبد البر: أن حميد بن هلال أتى زيدا وقد أصيب يوم الجمل فقال له أصحابه: «هنيا لك يا أبا سليمان» قال: «وما يدريكم؟ غزونا القوم في ديارهم، وقتلنا إمامهم، فيا ليتنا إذ ظلمنا صبرنا، ولقد مضى عثمان على الطريق!».

(٧) تيسير الوصول ٤/٣٠ وقال: أخرجه البخاري، والسمط الثمين ص ٣٤ عن الترمذي إلا أن آخره هنا: «لتتبعوه و إياها».

(٨) يريد أن الحق مع عائشة على علي. وانظر كلام الإمام ابن حزم في رسالة المفاضلة بين الصحابة تعليقا على هذا الخبر ص ٢٢٧ من كتابنا (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة).

www.alkottob.com

بذلك نجحت هذه السفارة واستجابت لها الجماهير والرؤوس: نفرت إلى علي طيء بأمر عدي بن حاتم، ونهض كذلك هند بن عمرو وحجر بن عدي وسادات الناس وقالوا خيرا؛ حتى الذين لم يرضوا عن أحد الرسولين عمار بن ياسر وردوا عليه أقبح الرد، ما وسعهم إلا إجابة الحسن إلى ما استنفرهم إليه:

ذكر الطبري أن قوما من طيء أتوا عديا فقالوا: «ماذا ترى وماذا تأمر؟» فقال: «ننتظر ما يصنع الناس» فأخبر بقيام الحسن وكلام من تكلم فقال:

«فقد بايعنا هذا الرجل وقد دعانا إلى جميل وإلى هذا الحدث العظيم لننظر فيه،ونحن سائرون وناظرون».

وقام هند بن عمرو فقال: «إن أمير المؤمنين قد دعانا وأسل إلينا رسله حتى جاءنا ابنه؛ فاسمعوا إلى قوله وانتهوا إلى أمره، وانفروا إلى أميركم فانظروا معه في هذا الأمر وأعينوه برأيكم».

وقام حجر بن عدي فقال: «أيها الناس أجيبوا أمير المؤمنين، وانفروا خفافا وثقالا، مروا وأنا أولكم».

عندئذ قام الأشتر فذكر الجاهلية وشدها، والإسلام ورخاءه، وذكر عثمان ابن عفان. فقاطعه المقطع العامري بقوله: «اسكت قبحك الله، كلب خلي والنباح». فثار الناس فأجلسوه، وقام المقطع فقال: «إنا والله لا نحتمل بعدها أن يبوء أحد بذكر أحد من أئمتنا، وإن عليا عندنا لمقنع.... فأقبلوا ما أحتاكم. فقال الحسن: صدق الشيخ».

أعلن الحسن بعد هذا في الناس:

«أيها الناس، إني غاد، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر (الدواب)، ومن شاء فليخرج في الماء». فنفر معه تسعة آلاف، فأخذ منهم البر ستة آلاف، وأخذ منهم الماء ألفان وثماني مئة، وعلى كل سبعة رجل[٩].

تنحية أبي موسى قسرا:

---

(٩) الطبري ٣/٥٠٠.

www.alkottob.com

بعد أن أخذت الحوادث مجراها على ما رأيت، وقف رجل اسمه عبد خير يناقش أبا موسى على موقفه فقال له: «يا أبا موسى، هل كان هذا الرجلان (يعني طلحة والزبير) ممن بايع عليا؟ قال: «نعم» قال: «هل أحدث علي حدثا يحل به نقض بيعته؟» قال: «لا أدري» قال: «فإنا تاركوك حتى تدري. يا أبا موسى، هل تعلم أحدا خارجا من هذه الفتنة التي تزعم أنها فتنة؟ إنما بقي أربعة قرون (فرق): علي بظهر الكوفة، وطلحة والزبير بالبصرة، ومعاوية بالشام، وفرقة أخرى بالحجاز: لا يجيء بها فيء ولا يقاتل بها عدو» فقال أبو موسى: «أولئك خير الناس وهي فتنة» فقال عبد خير: «يا أبا موسى غلب عليك غشك».

هذا مبلغ ثبات أبي موسى على رأيه ومجادلته عنه حتى في أحرج المواقف، وقد انقلبت الجماهير مع علي، فلم يكن بد إذن من إزالة هذا العناد بالعنف:

كان الأشتر قد طلب إلى علي أن يرسله على أثر عمار والحسن قائلا: إن أهل المصر أحسن شيء لي طاعة، وإن قدمت عليهم رجوت ألا يخالفني منهم لأحد..» فقال له: «الحق بهم» فأقبل حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس في المسجد الأعظم، ولما رأى جدال أبي موسى وحجاجه «جعل لا يمر بقبيلة يرى فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا دعاهم ويقول: (اتبعوني إلى القصر)... فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس، فاقتحكم القصر فدخله، وأبو موسى قائم في المسجد يخطب الناس، ويثبطهم قائلا:

«أيها الناس، إن هذه فتنة عمياء صماء، تطأ خطامها، النائم فيها خير من القاعد الخ» – على ما مر بك، وقد نفد صبر حزب علي — وعمار يخاطبه والحسن يقول له: «اعتزل عملنا لا أم لك، وتنح عن منبرنا»... وعمار يقول له: «غلب الله من غالبه وجاحده»... فبينما هم على ذلك في المسجد، إذ خرج غلمان أبي موسى يشتدون ينادون: «يا أبا موسى هذا الأشتر قد دخل القصر فضربنا وأخرجنا» فنزل أبو موسى فدخل القصر، فصاح به الأشتر: «أجلني هذه العشية» فقال: «هي لك ولا تبين في القصر الليلة» ودخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى، فمنعهم الأشتر وأخرجهم من القصر وقال: إني قد أخرجته» فكف الناس[١٠].

---

[١٠] الطبري ٣/٥٠١.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

(ب) سفارات علي إلى أصحاب الجمل وأهل البصرة

وافى جموع أهل الكوفة عليا بذي قار، فاستقبلهم في أناس من وجوه أصحابه فيهم ابن عباس، فرحب بهم وأثنى عليهم ثم خطب فيهم فقال:

«الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين.

أما بعد، فإن الله بعث محمدا إلى الثقلين كافة والناس في اختلاف، والعرب بشر المنال، مستضعفون لما بهم، فرأب به الثأي، ولأم به الصدع، ورتق به الفتق، وأمن به السب، وحقن به الدماء وقطع به العداوة الواغرة للقلوب، والضغائن المخشنة للصدور، ثم قبضه الله تعالى مشكورا سعيه، مرضيا عمله، مغفورا ذنبه، كريما عند الله نزله، فيالها مصيبة عمت المسلمين، وخصت الأقربين، وولي أبو بكر فسار بسيرة رضا رضي بها المسلمون، ثم ولي عمر فسار بسيرة أبي بكر (رضي الله عنهما) ثم ولي عثمان فنال منكم ونلتم منه، ثم كان من أمره ما كان: أتيتموه فقتلتموه، ثم أتيتموني فقلتم: «لوبايعتنا» فقلت: «لا أفعل» وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم كفي فجذبتموها وقلتم: «لا نرضى إلا بك ولا نجتمع إلا عليك» وتراكمتم علي تراكم الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها... حتى ظننت أنكم قاتلي وأن بعضكم قاتل بعضا. فبايعتموني وبايعني طلحة والزبير، ثم ما لبثا أن استأذناني إلى العمرة، فسارا إلى البصرة فقاتلا بها المسلمين وفعلا بها الأفاعيل،وهما يعلمان — والله — أني لست بدون من مضى، ولو شار الله أن أقول لقلت. اللهم إنهما قطعا قرابتي، ونكثا بيعتي، وألبا علي عدوي، اللهم فلا تحكم ما أبرما، وأرهما المساءة فيما عملا[1]».

ثم أعلن خطته لهم، ونفرته من القتال، ورغبته في الإصلاح والعافية. وكان فيما قال لهم:

«يا أهل الكوفة، أنتم وليتم شوكة العجم وملوكها، وفضضتم جموعهم حتى صارت إليكم مواريثهم، فأغنيتم حوزتكم، وأعنتم الناس على عدوكم، وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من

---

[1] العقد الفريد ٩٧/٣ — رأب الثأي: أصلح الفساد، الواغرة: المتوقدة غيظا. الهيم: العطاش.

www.alkottob.com

أهل البصرة: فإن يرجعوا فذاك ما نريد، وإن يلجوا داويناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدؤونا بظلم، ولن ندع أمرا فيه صلاح إلا آثرناه على ما فيه الفساد إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله».

وهذا غاية ما يفعله رجل يهوى السلامة ويجتهد لها مع القدرة القادرة على الإيقاع بمخالفيه. فقد اجتمع لديه بذي قار – على ما يقول الطبري – سبعة آلاف ومئتان سوى من كان في الماء وهم أكثر من ألفين، وكانت قبائل عبد القيس التي خرجت من البصرة مغاضبة لأصحاب الجمل – على ما رأيت ص ١٤٥– مرابطة في الطريق بين ذي قار والبصرة: تنتظر مرور علي بهم ليكونوا معه وهم آلاف[٢]. وإليك الآن سفارات علي إلى أصحاب الجمل.

١– عزز علي مساعيه في سبيل الإصلاح بمسعى جديد، حين أرسل إلى أهل البصرة القعقاع بن عمرو أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سفيرا بينه وبينهم، كان مما قاله له:

«ألق هذين الرجلين يا بن الحنظلية، فادعهما إلى الألفة والجماعة، وعظم عليهما الفرقة». ولم يزد على هذه الكلمات الجامعات، وترك لسفيره أن يحكم الأمر على ما يرى. وقد كان علي موفقا كل التوفيق باختياره، ومع هذا أراد أن يستوثق فسأله:

«كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة مني؟».

فقال: «نلقاهم بالذي أمرت؛ فإن جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأي، اجتهدنا وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي». فقال له علي: أنت لها».

خرج القعقاع حتى قدم البصرة، فبدأ بعائشة فقال لها: «أي أمه، ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة؟» قالت: «أي بني: إصلاح بين الناس» قال: «فابعثي إلى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما» فبعثت إليهما فجاءا فقال لهما:

«إني سألت أم المؤمنين: ما أشخصها؟ فقالت: (إصلاح بين الناس) فما تقولان أنتما؟ أمتابعان أم مخالفان»؟ قالا: «متابعان».

قال: «فأخبراني: ما وجه هذا الإصلاح؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن، ولئن أنكرناه لا يصلح».

---

(٢) الطبري ٣/٥٠٢.

www.alkottob.com

قالا: «قتلة عثمان رضي الله عنه، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن، وإن عمل به كان إحياء للقرآن».

فقال: «قتلتما قتلة عثمان من أهل البصرة، وأنتم قبل قتلهم أقرب من الاستقامة منكم اليوم: قتلتم ست مئة رجل إلا رجلا،، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم، وطلبتم ذلك الذي أفلت (يعني حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولان، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا[٣] عليكم؛ فالذي حذرتم وقربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير».

فقالت أم المؤمنين: فتقول أنت ماذا؟».

فقال وفي قوله بصر بعيد ونصح رشيد وحكمة كبيرة: «أقول: هذا الأمر دواؤه التسكين وإذا سكن اختلجوا؟ فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل، وعافية وسلامة لهذه الأمة، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه[٤] كانت علامة شر، وذهاب هذا الثأر، وبعثه الله في هذه الأمة هزاهزها[٥]. فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم. وايم الله إني لأقول هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف ألا يتم حتى يأخذ الله عز وجل حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي حدث أمر ليس يقدر، وليس كالأمور، ولا كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة الرجل[٦]».

كان لهذه الحكمة ينفثها القعقاع عن قلب غيور وإخلاص متقد، أثرها المطلوب في نفوس المستمعين عائشة وطلحة والزبير فمن دونهم، فقالوا:

«نعم إذن، قد أحسنت وأصبت، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح هذا الأمر».

---

[٣] أديلوا: تغلبوا.

[٤] اعتساف الطريق: الخبط فيه على غير هدى والضلال عن الطريق.

[٥] الهزاهز: الشدائد.

[٦] الطبري ٣/٥٠٣.

www.alkottob.com

وقد تمت هذه السفارة على أحسن ما تمت عليه سفارة: إخلاص نصح، وتهديدا برفق ونجحا في النهاية.

٢- أقبلت وفود أهل البصرة من تميم وبكر – والقعقاع لما يعد من سفارته – نحو علي بذي قار: يريدون أن ينظروا: ما رأي إخوانهم من أهل الكوفة؟ وعلى أي حال نهضوا إليهم؟؟ وليعلموهم أن الذي عليه رأيهم الإصلاح ولا يخطر لهم القتال ببال. فلما لقوا عشائرهم من أهل الكوفة بالذي بعثهم فيه عشائرهم من أهل البصرة، قال لهم الكوفيون مثل مقالتهم، وأدخلوهم على علي فأخبروه خبرهم(٧)».

٣- اختلفت الوفود بين البصريين والكوفيين، وقد حفظ لنا الطبري وفادة طريفة ابتدأها برؤيا كان رآها أحد الوافدين فتحققت الآن، فهو يقص كيف تحققت ثم يتخلص إلى ذكر وفادته، ونحن نسوق إليك حديثها كما في الطبري:

«قال كليب الجرمي:

رأيت فيما يرى النائم في زمان عثمان بن عفان: (أن رجلا يلي أمور الناس مريضا على فراشه وعند رأسه امرأة، والناس يريدونه ويبهشون(٨) إليه، فلو نهتهم هذه المرأة لانتهوا، ولكنها لم تفعل، فأخذوه وقتلوه) فكنت أقص رؤياي على الناس في الحضر والسفر فيعجبون ولا يدرون: ما تأويلها..

فلما قتل عثمان، أتانا الخبر ونحن راجعون من غزاتنا، فقال أصحابنا: «رؤياك يا كليب» فانتهينا إلى البصرة فلم نلبث إلا قليلا حتى قيل: «هذا طلحة والزبير معهما أم المؤمنين» فراع ذلك الناس وتعجبوا... فإذا هم يزعمون للناس أنهم إنما خرجوا غضبا لعثمان وتوبة مما صنعوا في خذلانه، وإن أم المؤمنين تقول: «غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: «إمارة الفتى، وموقع الغمامة، وضربة السوط والعصا؛ فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه:: حرمة الشهر والبلد والدم». فقال الناس: ألم تبايعوا عليا وتدخلوا في أمره؟» فقالوا: «دخلنا واللج على أعناقنا»... وقيل: «هذا علي قد أظلكم» فقال قومنا لي ولرجلين معي: «انطلقوا حتى تأتوا عليا

---

(٧) الطبري ٣/٥٠٤-٥٠٦.

(٨) بهش بيده إليه: مدها ليتناوله – القاموس.

www.alkottob.com

وأصحابه فسلوهم عن هذا الأمر الذي اختلط علينا». فخرجنا.... حتى إذا دنوا من العسكر طلع علينا رجل جميل على بغلة فقلت لصاحبي: «أرأيتم المرأة التي كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس الوالي؟ إنها أشبه الناس بهذا» ففطن أنا نخوض فيه؛ فلما انتهى إلينا قال: «قفوا، ما الذي قلتم حين رأيتموني؟» فأبينا عليه، فصاح بنا وقال: «والله لا تبرحن حتى تخبروني» فدخلتنا منه هيبة فأخبرناه، فجاوزنا وهو يقول: والله لقد رأيت عجبا!» فقلت لأدنى العسكر إلينا: «من هذا؟» فقال: «محمد بن أبي بكر» فعرفنا أن تلك المرأة عائشة رضي الله عنها، فازددنا لأمرها كراهية(٩).

انتهينا إلى علي، فسلمنا عليه ثم سألناه عن هذا الأمر فقال:

«عدا الناس على هذا الرجل يعني (عثان بن عفان) وأنا معتزل فقتلوه، ثم ولوني وأنا كاره، ولولا خشية على الدين لما أجبتهم. ثم طفق هذان (طلحة والزبير) في النكث، فأخذت عليهما وأخذت عهودهما عند ذلك، وأذنت لهما في العمرة، فقدما على أمهما حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيا لها مارغبا بنسائهما عنه،وعرضاها لما لا يحل ولا يصلح، فاتبعتها لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقا ولا يخرقوا جماعة».

ثم قال أصحابه: «والله ما نريد قتالهم إلا أن يقاتلوا، وما خرجنا إلا للإصلاح» فصاح بنا أصحاب علي:: «بايعوا» فبايع صاحباي، وأما أنا فأمسكت وقلت: «بعثني قومي لأمر فلا أحدث شيئا حتى أرجع إليهم» فقال علي: «فإن لم يفعلوا؟» فقلت: « لم أفعل».

فقال: «أرأيت لو أنهم بعثوك رائدا، فرجعت إليهم فأخبرتهم عن الكلأ والماء، فمالوا إلى المعاطش والجدوبة: ما كنت صانعا؟».

---

(٩) هذا الخبر كبير الدلالة على الوجهة التي اتجه إليها الرأي العام في إلقاء تبعة الحوادث على السيدة عائشة. وسواء أوقعت هذه الرؤيا أم لم تقع فإن شيوع هذا الخبر منذ زمن الحوادث حتى زمن الطبري كاف في تصوير (نفسية الجماهير) وموقفها من خوض السيدة عائشة في خضم السياسة. وما أجدر المؤرخ أن يكثر الوقوف والتأمل عند مثل هذه الأخبار وتناقلها: فليس أقوى منها في الدلالة على ما يختلج في النفوس على غير وعي منها من أحكام وجدانية، حين لا يملكون من تفاصيل الحوادث ما يسعفهم على إصدار الأحكام منطقية، ويقتنع حدسهم (وشعورهم اللاواعي) باتجاه خاص فيعبرون عنه بالرؤى والأحلام أو بتناقلها لما فيها من نصرة لما قر في نفوسهم من رأي أو عقيدة.

www.alkottob.com

قلت: «كنت تاركهم،ومخالفهم إلى الكلأ والماء». فقال:: «فمد يدك» فوالله ما استطعت أن أمتنع فبسطت يدي فبايعته(١٠) وسألني علي: «ما سمعت من طلحة والزبير؟» فقالت: «أما الزبير فإنه يقول: بايعنا كرها» وأما طلحة فمقبل على أن يتمثل الأشعار ويقول:

ألا أبلغ بني بكر رسولا   فليس إلى بني كعب سبيل
سيرجع ظلمكم منكم عليكم   طويل الساعدين له فضول

فقال علي: «ليس كذلك، ولكن:

ألم تعلم أبا سمعان أنا   نرد الشيخ مثلك ذا الصداع
ويذهل عقله بالحرب حتى   يقوم فيستجيب لغير داع
فدافع عن خزاعة جمع بكر   وما بك يا سراقة من دفاع(١١)

ثم سار علي حتى نزل إلى جانب البصرة، وقد خندق طلحة والزبير، فقال لنا أصحابنا من أهل البصرة: «ما سمعتم إخواننا من أهل الكوفة يريدون ويقولون؟» فقلنا: «يقولون: خرجنا للصلح وما نريد قتالا» اهـــ.

* * *

الإشراف على الصلح:

رجع القعقاع إلى جانب علي بجواب طلحة والزبير وعائشة، فسري عنه وأيقن بالعافية وجمع الكلمة. ثم قام علي على الغرائر يخطب، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الجاهلية وشقاءها والإسلام والسعادة، وإنعام الله على الأمة بالجماعة بالخليفة بعد رسول الله، ثم الذي يليه، ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا وحسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا رد الأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره ومصيب ما أراد... ثم قال:

---

(١٠) كان هذا الحدث يشهد بعدها: «أن عليا من أدهى العرب».

(١١) ذكر الطبري أيضا (٥٠٤/٣) أن عليا سأل جرير بن شرس عن طلحة والزبير فأخبره عن دقيق أمرهما وجليله وروى له تمثل طلحة بهذين البيتين والظاهر أنه كان كثير السؤال عنهما.

www.alkottob.com

«ألا وإني راحل غدا فارتحلوا، ألا لا يرحلن غدا أحد أعان على عثمان بشيء وليغن السفهاء عني أنفسهم[١٢]».

وعلى هذه الرغبة نفسها في الصلح والإصلاح بات أصحاب الجمل، و لم يستمعوا إلى من كان يحرض على القتال. ومن المفيد أن ننقل لك حوارا بين الزبير نفسه وأحد هؤلاء المتحمسين لتعرف إخلاص القوم في الرغبة في الصلح:

قام أبو الجرباء إلى الزبير بن العوام فقال:

«إن الرأي أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل (يعني عليا) أو يصبحوه قبل أن يوافي أصحابه».

فقال الزبير — وهو الذي تمنى قبل ذلك ألف فارس يقتل بهم عليا على ما مر بك ص ١٤٧-:

«يا أبا الجرباء، إنا لنعرف أمور الحرب ولكنهم أهل دعوتنا، وهذا أمر حدث في أشياء لم تكن قبل اليوم؛ هذا أمر: من لم يلق الله عز وجل فيه بعذر انقطع عذره يوم القيامة، ومع ذلك إنه قد فارقنا وافدهم على أمر، وأنا أرجو أن يتم لنا الصلح فابشروا واصبروا[١٣]».

ثم جاء بن شيمان فقال:

«يا طلحة، يا زبير، انتهزا بنا هذا الرجل، فإن الرأي في الحرب خير من الشدة» فقال: «يا صبرة، إنا وهم مسلمون، وهذا (يريد الثأر لعثمان) أمر لم يكن قبل اليوم فيترل فيه قرآن أو يكون فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة، إنما هو حدث. وقد زعم قوم أنه لا ينبغي تحريكه اليوم، وهم علي ومن معه؛ فقلنا نحن: (لا ينبغي أن نتركه اليوم ولا نؤخره) فقال علي: (هذا الذي ندعوكم إليه من إقرار هؤلاء اليوم: شر، وهو خير من شر منه... وقد جاءت الأحكام بين المسلمين بإيثار أعمها منفعة وأحوطها».

---

[١٢] الطبري ٥٠٧/٣- لقد فطن علي إلى عامل هام من عوامل الفتن وهو حسد الرعاع أهل الغنى. وذلك من أقوى الحوافز على الثورات.

[١٣] الطبري ٥٠٨/٣و٥٠٩,

www.alkottob.com

وكذلك أقبل كعب بن سور يحرض طلحة والزبير ومن معهما على مبادرة القتال فأجابوه: «يا كعب، إن هذا أمر بيننا وبين إخواننا وهو أمر ملتبس. لا والله ما أخذ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم مذ بعث الله عز وجل نبيه طريقا إلا علمنا أين مواقع أقدامهم .... حتى حدث هذا، فإنهم لا يدرون: أمقبلون هم أم مدبرون؟ إن الشيء يحسن عندنا اليوم ويقبح عند إخواننا، فإذا كان الغد قبح عندنا وحسن عندهم. وإنا لنحتج عليهم بالحجة فلا يرونها حجة، ثم يحتجون بمثلها علينا. ونحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه وتموا، وإلا فإن آخر الدواء الكي[١٤]».

كثر جدال الناس من الفريقين لزعمائهم في هذا الأمر، ومن الحق أن نعرض صورة لرغبة علي، مثل هذه التي تقدمت لأصحاب الجمل، تمثل رغبته المخلصة في السلامة وإيثار العافية:

سأله الأعور المنقري في جماعة من أهل الكوفة عن سبب إقدامهم فقال علي:

«على الإصلاح وإطفاء النائرة، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة بنا، ويضع حربهم، وقد أجابوني».

قال: «فإن لم يجيبونا؟» قال: «تركناهم ما تركونا».

قال: «فإن لم يتركونا» قال: «دفعناهم عن أنفسنا».

قال: «فهل لهم مثل ما عليهم من هذا؟ قال: «نعم».

ونهض إليه أبو سلامة الدالاني فقال: «أترى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله عز وجل بذلك؟» قال: «نعم».

قال: «فترى لك حجة بتأخيرك ذلك؟» قال — وأرجوا أن نمعن في جوابه -:

«نعم، إن الشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه وأعمه نفعا».

وسئل علي عن قتلى الفريقين إن لم يتم الصلح فكان جوابه:

«إني لأرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه لله منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة».

---

(١٤) الطبري ٥٠٨/٣و٥٠٩.

www.alkottob.com

ولما كثر السؤال والجدال، خشي علي استرسال الناس إلى أهوائهم الجامحة فأراد أن يفرغ على قلوبهم السكينة والرغبة في العافية فخطبهم قائلا:

«يا أيها الناس، املكوا أنفسكم، وكفوا أيديكم وألسنتكم عن هؤلاء القوم فإنهم إخوانكم، واصبروا على ما يأتيكم. وإياكم أن تسبقونا فإن المخصوم غدا من خصم اليوم».

لقد كانت منازع الزعماء من الفريقين متحدة في رغبة الصلح وكره القتال طمعا في العافية وإيثارا للسلامة وخوفا لله عز وجل.

نزول على البصرة:

ارتحل علي بجموعه نحو البصرة، وقد وقف له الناس بالطريق يريدون الانضمام إليه، و لم يصل البصرة حتى تكامل جيشه بمن انضم إليه: عشرين ألفا، ورايته مع ابنه محمد ابن الحنفية، وعلى ميمنته ابنه الحسن، وعلى ميسرته ابنه الحسين حتى إذا أطل على القوم بعث إليهم مع حكيم بن سلامة ومالك بن حبيب:

«إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا، وأقرونا نترل وننظر في هذا الأمر[١٥]» فأرسل إليه أصحاب الجمل: «إنا على ما فارقنا عليه القعقاع فاقدم».

فقدم علي حتى نزل على الزاوية، ونزل طلحة والزبير في الزابوقة وقد نزلت مضر جميعا ونزلت فوقهم ربيعة جميعا، ونزلت أسفل منهم اليمن جميعا: لا يشكون أن الأمر آخذ بالانقشاع وأن الكلمة إلى اجتماع.

وكان أهل البصرة فرقا شتى: فرقة مع طلحة والزبير وهي الغالبة، وفرقة مع علي، وفرقة لا ترى القتال مع أحد من الفريقين؛ ومن هؤلاء الأحنف بن قيس أحد سادات البصرة، ولعله أدهى هؤلاء على الإطلاق، وقد علمت موقفه من أصحاب الجمل ص ١٤٦. قدم الأحنف ومعه بنو سعد مشمرين قد منعوا - كما علمت - حرقوص بن زهير أن يناله أحد من أصحاب الجمل بسوء، وهم لا يرون القتال مع أحد الفريقين؛ قدموا على علي فقال الأحنف لعلي:

---

[١٥] الصفحة السابقة.

www.alkottob.com

«يا علي، إن قومنا بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غدا: أنك تقتل رجالهم وتسبي نساءهم».

فقال علي: «ما مثلي يخاف هذا منه، وهل يحل هذا إلا ممن تولى وكفر؟ ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: {لست عليهم بمصيطر (*) إلا من تولى وكفر} [الغاشية: ٨٨/٢٢-٢٣] وهم قوم مسمون؛ هل أنت مغن عني قومك؟».

قال: «نعم واختر مني واحدة من اثنتين: إما أن أكون معك بنفسي، وإما أن أكف عنك عشرة آلاف سيف» فسأله علي: «كيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال؟» قال: «إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم» فقال علي: «كف من قدرت على كفه». رجع الأحنف من عند علي فلقيه من قومه هلال بن وكيع فسأله: «ما رأيك؟» قال الأحنف: «الاعتزال، فما رأيك؟».

قال هلال: نصرة أم المؤمنين: أفتدعنا وأنت سيدنا».

قال الأحنف: «إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت».

فقال هلال: «هذا! وأنت شيخنا؟!!» فقال: «أنا الشيخ المعصي وأنت الشاب المطاع».

ثم أقبل الأحنف ونادى: «يا آل زيد، اعتزلوا هذا الأمر وولوا هذين الفريقين كيسه وعجزه (يريد صوابه وخطأه)(١٦)».

فقام المنجاب بن راشد فقال: «يا آل الرباب، لا تعتزلوا واشهدوا هذا الأمر، وتولوا كيسه» فأجابوه.

وقام أبو الجرباء فقال: «يا آل عمرو، لا تعتزلوا هذا الأمر، وتولوا كيسه».

وعلى هذا اعتزل الأحنف إلى (وادي السباع)(١٧) ومعه بنو سعد، ونهض المنجاب لنصرة عائشة على رأس قومه بني الرباب وبني ضبة، وانضم أبو الجرباء على رأس بني عمرو إلى أصحاب الجمل أيضا، وكذلك هلال بن وكيع على حنظلة.

---

(١٦) زاد الطبري: فلم يبق سعدي إلا أجابه، فاعتزل بهم ثم نظر ما يصنع الناس.... فلما وقع القتال وظفر علي جاؤوه وافرين، فدخلوا فيما دخل فيه الناس ٥١٠/٣.

www.alkottob.com

وعلى هذه الوتيرة انقسمت بقية القبائل، كل فرقة تتبع رئيس فرقتها: منهم إلى القتال ومنهم إلى الاعتزال. حتى الأزد هي من أشد القبائل نصرة لعائشة، كان فيها من مال إلى الاعتزال إما إيثارا للسلامة وإما من اجتهاد، فقد جاء كعب بن سور إلى صبرة بن شيمان سيد الأزد ينصحه قائلا:

إن الجموع إذا تراءوا لم تستطع، وإنما هي بحور تدفق، فأطعني ولا تشهدهم واعتزل بقومك، فإني أخاف ألا يكون صلح وكن وراء هذه النطفة[١٨] ودع هذين الغارين من مضر وربيعة فهما إخوان: فإن أصلحا فالصلح أردنا، وإن اقتتلا كنا حكاما عليهم غدا».

فأجاب صبرة بعزيمة: «أخشى أن يكون فيك شيء من النصرانية (وكان كعب في الجاهلية نصرانيا» أتأمرني أن أغيب عن إصلاح بين الناس وأن أخذل أم المؤمنين وطلحة والزبير إن ردوا عليهم الصلح وأدع الطلب بدم عثمان؟ لا والله لا أفعل ذلك أبدا».

فأطبق أهل اليمن على الحضور وخسرت دعوة كعب إلى الاعتزال.

لقد كان من الممكن أن يكون لهذه الدعوات الاعتزالية أثر لو أن عائشة لم تكن مع أصحاب الجمل، فقد كان وجودها أقوى ما أحمى أنوف هؤلاء السادات، إنهم يريدون نصرتها مهما كلفهم الأمر، إنهم ضربوا بهذه الدعوات – على سدادها وخيرها – عرض الحائط مراعاة لمقامها وقياما بحقوقها:

أرسل عمران بن الحصين كبير بين عدي رسولا إلى قومه، وأمره أن ينادي على باب مسجدهم – وهم أجمع ما يكونون – قائلا:

---

[١٧] ويروي الطبري أن الأحنف غدا على طلحة والزبير فقال لهما: «والله لا أقاتلكم ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله، ولا أقاتل رجلا ابن عم رسول الله أمرتموني ببيعته، اختاروا مني واحدة من ثلاث: إما أن تفتحوا لي الجسر فألحق بأرض الأعاجم حتى يقضي الله عزوجل من أمره ما قضى، أو ألحق بمكة فأكون فيها حتى يقضي الله من أمره ما قضى، أو أعتزل فأكون قريبا». قالوا: «إنا نأتمر ثم نرسل إليك». فائتمروا فقالوا: «نفتح له الجسر ويخبرهم بأخبارهم ليس ذاكم برأي. اجعلوه ها هنا قريبا حيث تطؤون على صماخه وتنظرون إليه». فاعتزل بالجلحاء على فرسخين من البصرة، فاعتزل معه ستة آلاف – ٣/٥١١.

[١٨] من معاني النطفة: الماء الصافي قل أو كثر. الغار: الجمع العظيم.

www.alkottob.com

«أرسلني إليكم عمران بن الحصين صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقرأ عليكم السلام ورحمة الله، ويحلف بالله الذي لا إله إلا هو: لأن يكون عبدا حبشيا مجدعا يرعى أعنزا في رأس جبل حتى يدركه الموت، أحب إليه من أن يرمي بسهم واحد بين الفريقين».

أترى هذا القول — على بلاغه وقوته — مغيرا شيئا من موقف قومه؟

كلا، لقد رفع شيوخ قومه رؤوسهم إليه فقالوا: «إنا لا ندع ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم لشيء أبدا[١٩]».

وهذا يقوله شيوخ الحي المحنكون الحلماء لا شبابهم ولا فتيانهم، فانظر مبلغ أثر عائشة في النفوس!!

وقد شكا من مكانتها هذه وغار منها على نفسه، فقد كان يقول: «بليت بأنضى الناس وأنطق الناس وأطوع الناس في الناس» يريد بأنضى الناس: يعلى بن منية الذي جهز أصحاب الجمل من ماله، وبأنطق الناس طلحة، وبأطوع الناس في الناس عائشة[٢٠].

ومن الحق أن نقرر هنا أن كثيرا من العقلاء حاولوا استئصال الشر قبل نشوبه فلم يفلحوا، وأن طلحة والزبير أصبحا صادقي النية في الثأر لعثمان كما كانا مخلصين كل الإخلاص في رغبتهما في الصلح لما تملكهما من حيرة في مسيرهما هذا: هما لا يرضيان بديلا من قتل قتلة عثمان بأسرع وقت مهما يكلفهما الأمر، وفي الوقت نفسه يخشيان أن يؤدي هذا الأمر إلى إهراق دماء بريئة يكونان هما المسؤولين عنها أمام الله، وكانت عزيمتهما قوية صادقة في الاستقتال توبة إلى الله مما قصرا في حق عثمان رحمه الله، لم يستطع أحد أن يردهما عنها على رغم خطئها الظاهر، إنهما كانا مع هذه العزيمة الصادقة في حيرة قاتلة، ولقد سمع الناس منهما ما يدل على هذه الحيرة مرات عديدة، مر بك بعضها وسيمر بعضها الآخر، وتأمل الآن موقفا لكل منهما تدرك ما في نفوسهما من قلق وألم:

قال رجل للزبير: «يا أبا عبد الله، ما جاء بكم؟ ضيعتم الخليفة حتى قتل ثم جئتم تطلبون بدمه؟».

---

(١٩) الطبري ٣/٥١٥ والمراد بالثقل: الزوجة.

(٢٠) العقد الفريد ٣/١٠٢ أفضى الناس: أكثرهم ناضا (أي مالا).

www.alkottob.com

فقال الزبير: «إنا قرأناها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر:} واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة} [الأنفال: ٢٥/٨] و لم نكن نحسب أنا أهلها حتى وقعت منا حيث وقعت[٢١]».

أما طلحة فحيرته أشد وأعجب: قال له علقمة بن وقاص الليثي: «يا أبا محمد، أرى أحب المجالس إليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك على زورك (صدرك)!!؟».

قال طلحة: «يا علقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا، إذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا؛ إنه كان مني في عثمان شيء ليس توتبي منه إلا أن يسفك دمي في طلب دمه».

قال علقمة: «فرد محمد بن طلحة فإن لك ضيعة وعيالا، فإن يكن شيء يخلفك». فقال طلحة:«ما أحب أن أرى أحدا يخف في هذا الأمر فأمنعه!!».

فأتى علقمة محمد بن طلحة فقال له: «لو أقمت، فإن حدث به حدث كنت تخلفه في ضيعته وعياله».

فقال محمد: «ما أحب أن أسأل الرجال عن أمره؟[٢٢]».

فانظر كيف كان أخذ هذه الفتنة شديدا لهؤلاء الناس، حتى استعصى نزعهم عنها على الحجج الواضحة والنصح المخلص. وما أصدق الحكمة القائلة: «الفتنة عمياء: إن أقبلت اشتبهت، وإن أدبرت تبينت» ولو كان أحد مقلعا عنها بعد وقوع فيها لنصح أو تذكير، لأقلع عنها هؤلاء الطيبون الأخيار.

* * *

بقي الناس ينتظرون هذا الصلح،وتجري بينهم الرسل، وتقبل جماعة منهم إلى جماعة ثلاثة أيام. وكان فيها بين طلحة والزبير وعلي ما نحن قاصوه عليك:

اجتماع الأقطاب

---

(٢١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٤/٥.

(٢٢) الكامل لابن الأثير ٩٣/٣ والطبري.

www.alkottob.com

سار علي من الزاوية يريد طلحة والزبير وعائشة، وساروا من الفرضة يريدون عليا، والتقوا عند قصر عبيد الله بن زياد، ونزلت عائشة مسجد الحدان في الأزد، وفي ساحتهم نشب القتال فيما بعد. وخطبت هناك عائشة أيضا:

«أما بعد، فإنا نقمنا على عثمان: ضرب السوط، وإمرة الفتيان، وموضع المسحاة المحمية. ألا وإنكم استعتبتموه فأعتبكم، فلما مصتموه كما يماص الثوب الرحيض عدوتم عليه فارتكبتم منه دما حراما، وايم الله: إن كان لأحصنكم فرجا وأتقاكم الله....[٢٣]».

تراءى الجمعان، وخرج الزبير على فرسه (ذي الخمار) وعليه سلاح — وكان ذلك على رواية الطبري في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين — فقيل لعلي: «هذا الزبير» فقال: «أما إنه أحرى الرجلين إذا ذكر بالله أن يذكر». وخرج طلحة، فخرج إليهما علي فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم، فقال علي:

«لعمري لقد أعددتما خيلا وسلاحا ورجالا إن كنتما أعددتما عند الله عذرا، فاتقيا الله سبحانه ولا تكونا {كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا} [النحل: ٩٢/١٦] ألم أكن أخاكما في دينكما تحرمان دمي وأحرم دماءكما؟ فهل من حدث أحل لكما دمي؟[٢٤]».

قال طلحة: ألبت الناس على عثمان!!».

قال علي: {يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين} [النور: ٢٥/٢٤] يا طلحة تطلب بدم عثمان!! فلعن الله قتلة عثمان»، يا طلحة، جئت بعرس رسول الله صلى الله عله وسلم تقاتل بها وخبأت عرسك في البيت!! أما بايعتني؟».

قال: «بايعتك وعلى عنقي اللج (السيف)».

وقال علي للزبير: «ما جاء بك؟» قال: أنت ولا أراك لهذا الأمر أهلا، ولا أولى به منا» فقال علي: «لست لها أهلا بعد عثمان؟! قد كنا نعدك من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء، ففرق بيننا وبينك». وعظم عليه أشياء تزعم الرواية أنه ذكره بها وأن مما قاله له:

---

(٢٣) شرح نهج البلاغة ٨١/٢ الموص: الغسل، الرحيض: المغسول.

(٢٤) يعرض لهما علي ببيعتهما ثم نقضهما. والمضروب بها المثل في الآية امرأة حمقاء من مكة كانت تغزل طول يومها، فإذا أمست نقضت كل ما غزلت في يومها. ضرب الله هذا المثل للذين يعاهدون ثم ينقضون.

www.alkottob.com

«يا زبير أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم، فنظر إلي فضحكت وضحكت إليه، فقلت (لا يدع ابن أبي طالب زهوه) فقال لك رسول الله: «صه إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟»».

قال الزبير: «اللهم نعم: ولو ذكرت ما سرت مسيري هذا، والله لا أقاتلك أبدا(٢٥)»

ويذكرون أيضا – وعلى الرواة العهدة دائما – أن عليا قال لطلحة والزبير قبل القتال «استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله عليها أربع خصال أن تصدق فيها:

١- هل تعلم رجلا من قريش أولى مني بالله ورسوله وإسلامي قبل كافة (كذا) الناس أجمعين وكفايتي رسول الله بسيفي ورمحي؟

٢- وعلى براءتي من دم عثمان.

٣- وعلى أني لم أستكره أحدا على بيعة،

٤- وعلى أني لم أكن أحسن قولا في عثمان منكما».

فأجابه طلحة جوابا غليظا ورق له الزبير(٢٦).

ولعل هذا الاجتماع قد قرب بين الفريقين، فرجع علي إلى عسكره وقال لهم: «أما الزبير فقد أعطى الله عهدا ألا يقاتكم»، ورجع طلحة والزبير إلى عسكرهما ثم تبادلا الرسل، فأرسل علي عبد الله بن عباس من العشي إلى طلحة والزبير، وكان فيما قال له:

«ائت الزبير ولا تأت طلحة، فإن الزبير ألين – وأنت تجد طلحة عاقصا بقرنه يركب الصعوبة ويقول: هي أسهل – فأقرئه مني السلام وقل له: (يقول لك ابن خالك: عرفتني بالحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟؟)» (فجعل الزبير ينقر بمروحة كانت بيده في الأرض، ثم رفع رأسه وقال: «ترفع لكم المصاحف غدا فما أحلت حللنا وما حرمت حرمنا». ثم انصرف فناداه عبد الله

---

(٢٥) كذا في الطبري ٣/٥١٤ والله أعلم.

(٢٦) الإمامة والسياسة ٦٣/١. ومما ضعف الخبر عندي – عدا استبعادي تكليف علي صاحبه تحليف عائشة قبل القتال، وعدا حزبية صاحب الإمامة والسياسة، وعدا أن العرب الأولين لا يقولون (كافة الناس) بل يقولون (الناس كافة) – أن عائشة لم تكن حاضرة البيعة في المدينة، كانت حينئذ بمكة ولم ترجع إلى المدينة حتى هذا الاجتماع، فكيف تستحلف على أمر لم تكن شاهدته؟؟!.

www.alkottob.com

بن الزبير، فأقبل ابن عباس هو كاره لكلامه)[٢٧] فقال: قل له بيننا وبينك عهد خليفة ودم خليفة، واجتماع ثلاثة وانفراد واحد، وأم مبرورة، ومشاورة العشيرة، ونشر المصاحف: تحل ما أحلت وتحرم ما حرمت[٢٨]».

وبعث طلحة والزبير محمد بن طلحة إلى علي، واتفقت كلمة الجميع ظاهرا وباطنا ما خلا الذين اشتركوا في دم عثمان.

وأرسل علي إلى رؤساء أصحابه، وكذلك فعل طلحة والزبير فأرسلا إلى رؤساء أصحابهما ما كان عليه الإجماع، فقالوا: «نعم» واتفقوا على الصلح، وباتوا بليلة لم يبيتوا بمثلها للعافية والسلم الذي أشرفوا عليه، وبات الذين أثاروا على عثمان بشر ليلة باتوها قط. وجعلوا يتشاورون ليلتهم سرا خشية أن يفطن أحد لما يحاولون من الشر.

المؤامرة:

أشرف الفريقان على الصلح والاجتماع، وكان في هذا ما يسر الناس جميعا إلا فريقا لا يطيب عيشهم إلا بتأريث الشر، وهم السبئية المؤلبة على عثمان والوالغة في دمه، عرفوا أن لا مقام لهم سواء: انتصر علي أم خصومه: لأن عليا لن يسكت عن إقامة حد متى تم له الأمر وأمكنته الفرص، وكذلك أصحاب الجمل إن ظفروا لم يتركوا أحدا ممن شرك في دم عثمان، لقد كان همهم قتلة عثمان أينما كانوا.

جمع ابن السوداء (عبد الله بن سبأ) وخالد بن ملجم هؤلاء النفر، وكان منهم علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة، وشريح بن أوفى، والأشتر .... في عدة ممن سار إلى عثمان.... وتشاوروا فقالوا:

«ما الرأي؟ وهذا والله علي — وهو أبصر بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقربهم إلى العمل بذلك — وهو يقول ما يقول (يعنون خطبته على الغرائر ص ١٧٢) ولم ينفر إليه إلا هم

---

(٢٧) هذه الزيادة الضرورية بين الزاويتين عن تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٣.

(٢٨) العقد الفريد ٣/٩٦- أراد هو بالخليفة الأول عمر حيث عهد إلى طلحة والزبير وعلى بقية الستة أصحاب الشورى عند مقتله: أن يكون الخليفة أحدهم. والخليفة الثاني عثمان. وأراد بالثلاثة طلحة والزبير وعائشة — وابن عساكر يعزو هذا عد الجملة الأخيرة (ونشر المصاحف الخ) إلى ابن الزبير لا إلى الزبير كما في العقد. وهذا أشبه أن يكون.

www.alkottob.com

(أي قتلة عثمان) والقليل من غيرهم، فكيف به إذا شام (نظر) القوم وشاموه وإذا رأى قتلتنا في كثرهم؟... أنتم والله ترادون، وما أنتم بأنجى من شيء».

فقال الأشتر: «أما طلحة والزبير فقد عرفنا أمرهما، وأما علي فلم نعرف أمره حتى كان اليوم. ورأي الناس فينا واحد، وإن يصطلحوا فعلى دمائنا... فهلموا فلنتواثب على علي فنلحقه بعثمان، فتعود فتنة يرضى منا فيها بالسكون».

فقال ابن السوداء: «بئس الرأي رأيت: أنتم يا قتلة عثمان من أهل الكوفة بذي قار ألفان وخمس مئة، وهذا ابن الحنظلية (القعقاع بن عمرو) وأصحابه في خمسة آلاف بالأشواق إلى أن يجدوا إلى قتالكم سبيلا، فارقأ على ظلعك[٢٩]».

وقال علباء بن الهيثم: «انصرفوا بنا عنهم ودعوهم؛ فإن قلوا كان أقوى لعدوهم عليهم وإن كثروا كان أحرى أن يصطلحوا عليكم. ودعوهم وارجعوا فتعلقوا ببلد من البلدان حتى يأتيكم فيه من تتقون به، وامتنعوا من الناس».

فقال ابن السوداء: «بئس ما رأيت: ود - والله - الناس أنكم على جديلة (ناحية) و لم تكونوا مع أقوام برآء، ولو كان ذلك الذي تقول لتخطفكم كل شيء».

وقال عدي بن حاتم: «والله مارضيت ولا كرهت، ولقد عجبت من تردد عن قتله في خوض الحديث؛ فأما إذا وقع ما وقع، ونزل من الناس بهذه المترلة، فإن لنا عتادا من خيول وسلاح محمودا، فإن أقدمتم أقدمنا وإن أمسكتم أحجمنا».

فقال ابن السوداء: «أحسنت».

وقال سالم بن ثعلبة: «من كان أراد فيما أتى الدنيا فإني لم أرد ذلك، والله لئت لقيتهم غدا لا أرجع إلى بيتي، ولئن طال بقائي إذا أنا لاقيتهم لا يزيد على جزر جزور[٣٠] وأحلف بالله إنكم لتفرقون من السيوف فرق قوم لا تصير أمورهم إلا إلى السيف».

فقال ابن السوداء: «إن هذا قد قال قولا».

---

[٢٩] الظلع: الغمز في المشي والميل، أي إنك ضعيف فتكلف ما تطيق — القاموس.

[٣٠] يريد وقتا بمقدار ما تنحر الذبيحة وتجلد (تسلخ).

www.alkottob.com

وقال شريح بن أوفى: «أبرموا أموركم قبل أن تخرجوا، ولا تؤخروا أمرا ينبغي لكم تعجيله، ولا تعجلوا أمرا ينبغي لكم تأخيره؛ إنا عند الناس بشر المنازل، فلا أدري: ما الناس صانعون بنا غدا إذا ما هم التقوا».

ثم تكلم ابن السوداء فقال:

«يا قوم، إن عزكم في خلطة الناس، فصانعوهم، وإذا التقى الناس غدا فأنشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر: فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع، ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون[٣١]».

* * *

قاتل الله ابن السوداء، فوالله ما أراه إلا شيطانا خلق من مارج من نار، ما أبصره بطرق الفتنة وبث العقارب، وما أدق توهينه تلك الطرق التي أشار إليها أصحابه، ما أفطنه إلى ضعفها وقلة غنائها، ثم كيف آل به تقليب الرأي حتى اهتدى إلى التي ليس بعدها شر منها: قاصمة الظهر ومبيدة الأمم!

ومن ذا الذي يقرأ هذه المؤامرة وكيف قلب أصحابها الآراء على وجوهها المختلفة، ثم لا يرجع ذهنه بسرعة البرق إلى ما ذكره أصحاب السير عن مجلس كفار قريش في دار الندوة: يجيلون الرأي في محمد صلى الله عليه وسلم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، وقد حضر اجتماعهم ذلك إبليس بهيئة شيخ نجدي، فجعل كلما عرض أحدهم رأيا في القضاء على دعوة محمد، وهنه وأظهر فساده... حتى أعيا القوم جميعا بحجته، فسألوه: ما عنده؟ فقال: «تختارون من كل قبيلة رجلا جلدا فيجتمعون ويضربون محمدا ضرب رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل، ولا طاقة لبني هاشم بقتال العرب كافة».

---

(٣١) حفظ هذه المؤامرة الطبري في تاريخه ٣/٥٠٧-٥٠٨.

هذا ومن الطريف أن مجلة مصرية ممولة — قالوا — بأموال يهودية كتب رئيس تحريرها مرة ينكر وجود ابن السوداء، والكاتب مشهور بمفاجأته القراء بين حين وحين بالشك في المسلمات؛ لكني قرأت بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب في (مختصر التحفة الاثني عشرية) لمحمود شكري الألوسي هذه الكلمة: «وليس ابن سبأهيان بن بيان، وزعم ذلك مكابرة وإنكارا للمتواتر» ص ٦ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٧٣ هـ.

فعلمت أن الكاتب الفاضل مسبوق، شأنه في كل شك أو إنكار يطلع به على الناس، وللناس فيما يعشقون مذاهب.

www.alkottob.com

أليست تلك المؤامرة نسخة طبق الأصل (كما يقولون) عن هذا المجلس؟

أليس بن السوداء هذا إبليس بعينه؟ وأستغفر الله، فأين يقع منه إبليس!! لهو والله أبلغ نكاية بهذه الأمة من إبليس، وأبعد منه أثرا في الدس والكيد. وأخشى أن يكون الذي ظنوه إبليس: ابنا من أبناء السوداوات أبطال الشر والمكر والفساد من اليهود: تنكر لهم شيخا نجديا إحكاما لدسيسته.

وبعد، فهل ألب الأمصار على عثمان إلا ابن السوداء(٣٢)؟

وهل غرهم أحد بمثل ما زور لهم من كلام ترويجا لدعوته؟

وهل دم عثمان إلا ثمرة نجاح خطة ابن السوداء هذا؟

وهل هذه العشرات الألوف من دماء المهاجرين والأنصار من صحابة محمد صلى الله عليه وسلم وتابعيهم إلا ثمرة خبه وكيده ومكره بهذا الدين وأهله؟

وما يزال المسلمون من يومهم ذاك إلى الآن في شرور آخذ بعضها برقاب بعض، يزجها إليهم أبناء السوداوات(٣٣) في مختلف الأمصار والأعصار، وقد كتب الله على هذه الأمة ألا تفطن إليهم إلا بعد أن يبلغوا منها ما أرادوا، ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

(٣٢) لعلك تذكر ما تقدم عنه في أيام عثمان ص ٥٩ فما بعد.

(٣٣) يصح أن يطلق (أبناء السوداوات) على الذين قاموا ويقومون في المجتمع الإسلامي في ميادينه الفكرية والعلمية والاجتماعية والسياسية والدينية... بمثل مهمة (الطابور الخامس) لأيامنا هذه، تسمية لهم باسم أعظمهم شرا ودسا وكيدا: عبد الله بن سبأ، ابن السوداء.

www.alkottob.com

الفصل الثالث

الدسيسية والمعركة الكبرى

الدسيسة

لما كان الغلس انسل هؤلاء المؤتمرون — وما يشعر بهم جيرانهم — إلى الأمر الذي أجمعوا عليه انسلالا وعليهم ظلمة، فخرج مضريهم إلى مضريهم، وربعيهم إلى ربعيهم، ويمانيهم إلى يمانيهم، فوضعوا فيهم السلاح، فثار أهل البصرة وثار كل قوم في وجوه أصحابهم الذين بغتوهم...

فجيء الناس جميعا، وخرج طلحة والزبير فسألا: «ما هذا؟» قالوا: «طرقنا أهل الكوفة ليلا» فقالا: «قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة، وأنه لن يطاوعنا» ثم خرجا في وجوه الناس من مضر، فبعثا إلى الميمنة — وهم ربيعة — عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يعبئها، وإلى الميسرة عبد الرحمن ابن عتاب بن أسيد، وثبتا في القلب.

استطاع أهل البصرة أن يصدوا أولئك المعتدين حتى ردوهم إلى عسكرهم، فسمع علي الصوت — وكان السبئيون المؤتمرون وضعوا طبقا لخطتهم رجلا قريبا منه ليخبره بما يريدون — فلما قال: «ما هذا؟» قال ذاك الرجل:

«ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا، فرددناهم من حيث جاؤوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس».

فقال علي لصاحب ميمنته: «ائت الميمنة» وقال لصاحب ميسرته: «ائت الميسرة» «قد علمت: أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا».

والسبئية لا تفتر إنشابا، وألجأتهم المعركة إلى الخندق، فاقتتلوا عليه حتى أفضوا إلى موضع القتال، وعلي ينادي:

«أيها الناس كفوا، فلا شيء».

www.alkottob.com

وكان من رأيهم جميعا في تلك الفتنة ألا يقتتلوا حتى يبدؤوا: يطلبون بذلك الحجة على الآخرين، وقد نادى منادي كل من الفريقين: «لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح[١]».

المعركة:

أسرع كعب بن سور قاضي البصرة إلى عائشة يقول:

«أدركي فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك».

فألبسوا هودجها الأدراع ثم بعثوا جملها (عسكر)، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء وقفت، فلم تلبث أن سمعت غوغاء شديدة فقالت: «ما هذا؟» قالوا: «ضجة العسكر» قالت: «بخير أم بشر؟» قالوا: «بشر».

قالت: «فأي الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون». ثم كانت كلما سمعت تكبيرهم قالت: «لا تكثروا الصياح فإن كثرة التكبير عند اللقاء من الفشل[٢]».

لم يكن الجند في الصفين من العامة والغوغاء فحسب، بل كان فيهم عدد كبير من أماثل الناس وعيونهم وقرائهم وقضاهم وفقهائهم: فريق مع علي وفريق مع عائشة. والعجيب أن كلا من الفريقين أراد إلزام خصمه الحجة، وأراد ألا يقدم على قتال حتى يبدأه خصمه فيثبت بذلك لنفسه عذرا بينه وبين الله، فكلا الفريقين أرسل رجلا بيده مصحف يدعو إليه، وكلا الرجلين قتل:

روى الطبري أن عليا طاف على أصحابه بيده مصحف وقال:

«أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى، وإن قطعت أخذه بأسنانه وهو مقتول؟».

---

[١] الطبري ٥١٨/٣.

[٢] عيون الأخبار ١٠٨/٣ وقبل هذه الفقرة: «قال عتبة بن ربيعة يوم بدر لأصحابه:
«ألا تروهم (يعني أصحاب محمد) جثيا على الركب كأنهم خرس يتلمظون تلمظ الحيات؟»
ورواية العقد الفريد (٥١/١) أنها قالت وقد سمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم:
«المنازع في الحرب خور، والصياح فيها فشل، وما برأيي خرجت مع هؤلاء».

www.alkottob.com

فقام إليه فتى من أهل الكوفة، عليه قباء أبيض محشو، فقال: «أنا» فأعرض عنه ثم قال: «من يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه وهو مقتول؟» فقال الفتى: «أنا» فأعرض عنه، ثم قال ثالثة، وقال الفتى: «أنا» فدفعه إليه وقال له:

«اعرض عليهم هذا وقل: هو بيننا وبينكم من أوله إلى آخره، والله في دمائنا ودمائكم». فحمله الفتى ودعاهم، فحملوا عليه فقطعوا يده اليمنى، فأخذه بيده اليسرى فدعاهم فقطعوا يده اليسرى، فأخذه بصدره والدماء تسيل على قبائه، فرشقوه رشقا واحدا فقتلوه... فقال علي: «الآن حل قتالهم وطاب لكم الضراب(٣)».

فبدأ القتال حين قتل هذا الفتى.

كان على ميمنة علي ابنه الحسن وعلى ميسرته ابنه الحسين، ورايته مع ابنه محمد بن الحنفية. ويسمي صاحب العقد الفريد زيادة على الطبري: عمار بن ياسر على الخيل ومحمد بن أبي بكر على الرجالة، وعبد الله بن عباس على المقدمة.

وأما جيش البصرة فكان فيه على الخيل طلحة، وعلى الرجالة عبد الله بن الزبير، والراية مع عبد الله بن حكيم بن حزام.

كان اللقاء بموضع قصر عبيد الله بن زياد، وكان القتال ذلك اليوم من ارتفاع النهار إلى قريب من العصر:

---

(٣) الطبري ٣/٥٢٠، ٥٢٢- وذكر أن أم الفتى قالت بعد ذلك فيما ترثيه:

لا هم إن مسلما أتاهم
مستسلما للموت إذ دعاهم
إلى كتاب الله لا يخشاهم
فزملون من دم إذ جاهم
وأمهم قائمة تراهم
يأتمرون الغي لا تهاهم
قد خضبت من علق لحاهم»

www.alkottob.com

انهزم أصحاب الجمل بعد مقتل الفتى وحملة أصحاب علي عليهم صدر النهار، فنادى الزبير[٤]: «أنا الزبير، هلموا إلى أيها الناس» ومعه مولى له ينادي: «أعن حواري رسول الله تنهزمون؟» وصدق الزبير الحملة، إلا أن أصحاب علي كانوا يفرجون له ولا يقتلونه لما عرفوا من أنه محرج، حتى إن عمارا حمل عليه في المعركة، فجعل يحوزه بالرمح فيقول له الزبير: «أتريد أن تقتلني يا أبا اليقطان؟» فيقول عمار «لا يا أبا عبد الله». ثم انحاز الزبير إلى وادي السباع (في قصة سيأتي تفصيلها عند الكلام على القتلى) واتبعه فرسان وتشاغل الناس عنه بالناس، فلما رأى الفرسان تتبعه عطف عليهم ففرق بينهم، فكروا عليه، فلما عرفوه قالوا: «الزبير، دعوه».

وجرح في أول المعركة طلحة فمر به القعقاع — وهو على ما عرفت من جنود علي — في نفر وطلحة يقول: «إلي عباد الله إلي، الصبر الصبر» فقال له: «يا أبا محمد، إنك لجريح؛ وإنك عما تريد لعليل، فادخل الأبيات». فقال طلحة: «يا غلام، أدخلني وابغني مكانا» فأدخل البصرة ومعه غلام ورجلان.

* * *

اقتتل الناس — وقد غاب طلحة والزبير — وانهزم أصحاب الجمل صدر النهار وأقبلوا في هزيمتهم تلك وهم يريدون البصرة، فلما رأوا الجمل وأطافت به مضر، عادوا كما كانوا حيث التقوا، وعادوا إلى أمر جديد ووقفت ربيعة البصرة: منهم ميمنة ومنهم ميسرة.

وحف بالجمل أولو النجدة الشجعان: كلما أخذ بخطامه قرم فلقي حتفه، جاء آخر يقوده والأبطال تلوذ به وتذود عنه، وترتجز: تفدي الجمل ومن عليه. وقد قتل يومئذ سبعون رجلا من قريش.

---

(٤) يذكرون أن فارسا أتى الزبير قبيل ذلك فقال له: «السلام عليك أيها الأمير، قد جاء القوم (أصحاب علي) حتى أتوا مكان كذا، فسمعوا بما جمع الله عز وجل لكم من العدد والعدة، فقذف الله في قلوبهم الرعب فولوا مدبرين» قال الزبير: «إيها عنك، فوالله لو لم يجد ابن أبي طالب إلا العرفج لدب لنا فيه». العرفج: شجر سهلي، والعرافج: رمال لا طريق فيها — الطبري ٣/٥٢١.

والذي أخرج به من هذا النص أن رؤوس أصحاب الجمل موقنون بغلبة علي، وأن اجتهادهم في القتال كان حمية من جهة وتكفيرا عن تقصيرهم في حق الخليفة الشهيد، فأرادوا أن يبلوا عذرا في الوقيعة بجيش أغلب المؤلبين على عثمان فيه.

www.alkottob.com

تصادمت المجنبتان حتى تزاحفتا صداما شديدا، وحمي القتال من جديد وحملت ميمنة علي علي ميسرة أهل البصرة فاقتتلوا، ولاذ الناس بعائشة وأكثرهم من ضبة والأزد وهم ينادون بعلي: «أعطنا سنة العمرين[٥]».

وأرادت عائشة وقد أصبحت هي قلب المعركة، أن تقوم بمحاولة جديدة إن نجحت وقفت القتال، وإلا كان منه إحماء لجندها حتى يستبسلوا أو يفنوا:

قالت لقائد جملها كعب بن سور:

«خل يا كعب عن البعير، وتقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم إليه» ودفعت إليه مصحفا. وأقبل القوم فاستقبلهم كعب بالمصحف بين الصفين: يناشدهم الله في دمائهم، وأعطي كعب درعه فرمى بها تحته، وأتي بترسه فتنكبه، وهو يدعوهم مجتهدا إلى كتاب الله والكف عن القتال:

وكان أمام القوم في كرهم السبئية، يجتهدون في إنشاب القتال ويتولون إضرامه كلما فتر خوفا من أن يجري الصلح، فتقدموا، وأدرك علي غرضهم فجعل يزعهم (يمنعهم) من خلفهم ويأبون إلا إقداما؛ فلما رأوا كعبا والمصحف رشقوه رشقا واحدا فقتلوه ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادي:

«يا بني البقية البقية (ويعلو صوتها كثرة) الله الله، اذكروا الله عز وجل والحساب» فيأبون إلا إقداما.

فكان أول شيء أحدثته حين أبوا، أن قالت: «أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم». وأقبلت تدعو... وضج أهل البصرة بالدعاء. وسمع علي الدعاء فقال: ما هذه الضجة؟» فقالوا: «عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان وأشياعهم» فأقبل علي نفسه — وعلى يمينه ابنه محمد بن الحنفية وعلى يساره ابن عباس — يدعو أيضا وهو يقول: «اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم في السهل والجبل والبر والبحر[٦]».

---

[٥] الكامل للمبرد ص ٨٣ (طبعة ليدن) والعمران: أبو بكر وعمر.
[٦] الطبري وابن خلدون ١٦٣/٢ والعقد الفريد ٩٠/٣.

www.alkottob.com

وأرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عتاب وعبد الرحمن بن الحارث: اثبتا مكانكما وحرضت الناس حين رأت أن القوم لا يريدون غيرها ولا يكفون عن الناس.

فازدلفت مضر البصرة فقصفت مضر الكوفة حتى زوحم علي نفسه، فنخس قفا ابنه محمد صاحب رايته وقال له: «احمل» فنكل، وأهوى علي إلى الراية ليأخذها منه، فحمل محمد، وحملت مضر الكوفة فاجتلدوا قدام الجمل حتى ضرسوا[٧]، والمجنبات على حالها لا تصنع شيئا. ومع علي أقوام غير مضر قد أشفق كثير منهم لما عضهم القتال بوطأته، وكان فيهم زيد بن صوحان — وهو غير مضري — بيده راية ميسرة أهل الكوفة فقال له رجل: «تنح إلى قومك، مالك ولهذا الموقف؟ ألست تعلم أن مضر حيالك؟ وأن الجمل بين يديك، وأن الموت دونه؟» فقال زيد: «الموت خير من الحياة، الموت ما أريد» فأصيب فأخذ الراية أخوه سيحان ثم صعصعة، ثم ارتث صعصعة واشتدت الحرب....

فلما رأى ذلك علي، بعث إلى اليمن وربيعة: «أن اجتمعوا على من يليكم» وقام رجل من عبد القيس ينادي في أصحاب الجمل: «ندعوكم إلى كتاب الله عز وجل».

فقالوا: «كيف يدعو إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله سبحانه، ومن قتل داعي الله كعب بن سور؟» ورمته ربيعة رشقا واحدا فقتلوه، وقام مقامه مسلم بن عبد الله العجلي فرشقوه أيضا فقتلوه ثم دعت يمن الكوفة يمن البصرة فرشقوهم[٨].

رأى علي أن يمن البصرة هزمن يمن الكوفة، وأن ربيعة البصرة هزمت ربيعة الكوفة، فزحف بمضر الكوفة إلى مضر البصرة يقول: «إن الموت ليس منه فوت: يدرك الهارب ولا يدع المقيم» فحمي القتال هكذا. وكان إزاء كل قبيلة أقرانهم من أبناء عمهم يقاتلونهم حمية لمصرهم ولرؤسائهم.

ورووا أن عليا قال للأشتر النخعي يوم الجمل: «احمل» فحل في أصحابه أهل اليمن فكشف من بإزائه ثم قال لهاشم بن عتبة وكان على المبسرة: «احمل» فحمل في المضرية فكشف من بإزائه فذكروا أن عليا جعل يقول: «كيف رأيتم مضري ويمني؟!».

---

[٧] مارسوا شدتها حتى صاروا لها محكمين مجربين.

[٨] الكامل للمبرد (ص ٢٣٥ طبعة ليدن).

www.alkottob.com

كاد القتال ينتهي صدر النهار إثر غياب طلحة والزبير بعد أن شهدا أوله، لولا أن عائشة شهدت وسطه وآخره، ولها اليد الطولى في دوامه وثبات البصريين بما كانت تحضهم وتخطبهم وتفديهم. ثم استحر القتل ثانية واشتد، واستمات الناس في القتال حتى لم ير محمد بن الحنفية صاحب راية علي متقدما إلا على رمح، وأبوه يقول له: «تقدم لا أم لك» وهو يتلكأ ويقول: «لا أجد متقدما إلا على سنان رمح» فانتزع علي الراية من يده وهو يرتجز:

أنت التي غرك مني الحسنى
يا عيش إن القوم قوم أعدا
الخفض خير من قتال الأبنا(٩)

ثم تزاحفت المجنبتان، واقتتلتا قتالا شديدا يشبه ما فيه القلبان، واقتتل أهل اليمن، فقتل على راية علي من أهل الكوفة عشرة كلما أخذها رجل قتل: خمسة من همدان وخمسة من سائر اليمن، فلما رأى ذلك يزيد بن قيس أخذها فثبتت في يده وهو يقول:

قد عشت يا نفس وقد غنيت
دهرا فقطك(١٠) اليوم ما بقيت

والتقى عبد الله بن حكيم بن حزام حامل راية قريش من أصحاب الجمل بعدي بن حاتم، فتصاولا كالفحلين، فتعاور أصحاب علي عبد الله حتى قتلوه، بعد أن طعن عديا في عينه ففقأها.

ما زال القتلى يسقطون حتى تنادى الكماة في العسكرين:

«يا أيها الناس، طرفوا إذ فرغ الصبر وعز الصبر» أي «أصيبوا الأطراف وميلوا عن المقاتل». وذلك لما رأوا من استماتة الناس وتفانيهم وصبرهم على القتال، فجعلوا يقصدون الأطراف: الأيدي والأرجل، فما رئيت وقعة قط قبلها ولا بعدها أكثر يدا مقطوعة ورجلا مقطوعة منها: لا يدرى من صاحبها. وأصيبت يد عبد الرحمن بن عتاب يومئذ قبل قتله، وكان الرجل من هؤلاء وهؤلاء إذا أصيب شيء من أطرافه استقتل حتى يقتل.

---

(٩) الطبري ٣/٥٢٤.
(١٠) فحسبك.

www.alkottob.com

ثم حمي القتال وزاد شدة، حتى رجعت ميمنة الكوفة إلى القلب، ولزقت ميسرة البصرة بقلبهم ومنعوا ميمنة الكوفة أن يختلطوا بقلبهم وإن كانوا إلى جنبهم، وفعل مثل ذلك ميسرة الكوفة وميمنة البصرة.وجعلت عائشة تشجع الناس وتثني على حميتهم:

قالت لمن على يسارها: «من القوم؟» فقال صبرة بن شيمان: «بنوك الأزد» فقالت: «يال غسان، حافظوا اليوم على جلادكم الذي كنا نسمع به، وتمثلت:

وجالد من غسان أهل حفاظها وهنب وأوس جالدت وشبيب

وقالت لمن على يمينها: «من القوم؟» قالوا: «بكر من وائل» فقالت: «لكم يقول القائل:

وجاؤوا إلينا في الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل

فاقتتلوا أشد من قتالهم قبل ذلك.

وأقبلت على كتيبة بين يديها فقالت: «من القوم؟» قالوا: «بنو ناجية»، قالت: «بخ بخ، سيوف أبطحية وسيوف قرشية، فجالدوا جلادا يتفادى منه».

ثم أطافت بها بنو ضبة فقالت: «ويهن: جمرة الجمرات[١١]»؛ حتى إذا رقوا وضعفوا خالطهم بنو عدي وكثروا حولها. فقالت: «من أنتم؟» قالوا: «بنو عدي، خالطنا إخواننا» فقالت: «ما زال رأس الجمل معتدلا حتى قتلت بنو ضبة حولي».

فأقاموا رأس الجمل، ثم ضربوا ضربا ليس بالتعذير[١٢]، ولا يعدلون بالتطريف، حتى إذا كثر ذلك وظهر في العسكرين جميعا قالوا: «لا يزال القوم أو يصرع الجمل» وثبتت مجنبتا علي وطاعنتا حتى صارتا في القلب، وكره القوم بعضهم بعضا[١٣].

* * *

---

[١١] التجمير: التجميع، وجمرات العرب ثلاث: بنو عامر، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد. وإنما سموا بذلك لأنهم يتوافرون في أنفسهم لم يدخلوا معهم غيرهم لكثرتهم وعزتهم – انظر زهر الآداب ١/٥٥، ٥٦ (الطبعة الثانية بالمطبعة الرحمانية). ويهن: تحريض وإغراء مثل دونك.

[١٢] التعذير: عدم ثبات العذر، التقصير – يعني أنهم لم يقصروا.

[١٣] الطبري ٣/٥٢٦.

www.alkottob.com

من غريب ما يدل على تفاني القوم بإخلاص في هذه الحرب، استماتة رجل من الفقهاء الأجلة بين يدي عائشة، وهو عمرو بن يثري وكان قاضيا على البصرة قبل كعب بن سور. كان عمرو آخذا بزمام الجمل بعد مقتل كعب بن سور وهو يرتجز:

يا أمنا يا زوجة النبي
يا زوجة المبارك المهدي:
نحن بنو ضبة لا نفر
حتى نرى جماجما تخر
يخر منها العلق المحمر(١٤)

فلما انتدب علي للجمل من يعقره، انتدب هند بن عمرو المرادي، فاعترضه ابن يثربي، فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربي، ثم حمل سيحان بن صوحان فاعترضه ابن يثربي فاختلفا ضربتين فقتله ابن يثربي، ثم علباء بن الهيثم فاعترضه ابن يثربي فقتله، ثم حمل صعصعة فقتله ابن يثربي وجعل يرتجز:

أنا لمن ينكرني ابن يثربي
قاتل علباء وهند الجملي
وابن لصوحان علي دين علي

فناداه عمار: «قد — لعمري — لذت بحريز، وما إليك سبيل، فإن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة إلي». فترك ابن يثربي الزمام بيد رجل من بني عدي حتى كان بين أصحاب عائشة وأصحاب علي، وقال: «من يبارز؟» فبرز له رجل فقتله، ثم برز آخر فقتله وارتجز:

أقتلهم ولا أرى عليا
ولو أشا أوجرته عمريا(١٥)
أقتلهم ولا أرى أبا حسن
كفى بهذا حزنا من الحزن
أنا نمر الأمر إمرار الرسن(١٦)

فبرز له عمار بن ياسر وهو يومئذ ابن تسعين سنة، وكان قضيفا حمش الساقين(١٧)، عليه سيف حمائله بشقه، قائمه قريب من إبطه، وعليه فرو قد شد وسطه بحبل من ليف، وإن عمارا

---

(١٤) الكامل لابن الأثير ١٠٦/٣، وقد أوردها كما أثبتها (نحن بنو ضبة).

(١٥) أوجره الرمح: طعنه به في فيه.

(١٦) أمر الأمر: أحكمه، أمر الحبل: أحكم فتل طيقانه.

www.alkottob.com

لأضعف من بارزه ابن يثربي. فلما خرج جعل الناس يسترجعون ويقولون لضعفه: «هذا والله لاحق بأصحابه» فبدر له عمرو بن يثربي. فنحى له درقته (ترسه)، فنشب سيفه فيها، وضربه عمار فأوهطه وأسف[١٨] لرجليه فقطعهما فوقع على استه، وحمل عليه أصحاب علي بالحجارة حتى أثخنوه وارتثوه، فحملوه إلى علي فقال له: «استبقني» فقال علي: «أبعد ثلاثة تقبل عليهم بسيفك تضرب به وجوههم[١٩]!» فأمر به فقتل وربما كان هذا هو الوحيد الذي أمر علي بالإجهاز عليه، على رغم ما كان نهى عنه من ذلك.

لما قتل ابن يثربي، ترك العدوي الزمام ثم خرج فنادى: «من يبارز؟» فخنس عمار، وبرز إليه من أصحاب علي رجل يدعى ربيعة العقلي وهو من أشد الناس صوتا، فخرج يرتجز ويقول:

يا أمنا أعق أم نعلم
والأم تغذو ولدا وترحم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى منه يد ومعصم؟؟[٢٠]

ثم اضطربا، فأثخن كل واحد منهما صاحبه فماتا. فقام مقامه رجل من بني ضبة[٢١] مارئي أشد منه قط، يقلب سيفا بيده كأنه مخراق وهو يقول:

نحن بني ضبة أصحاب الجمل
ننازل الموت إذا الموت نزل
لا عار في الموت إذا حان الأجل
لا عار في الموت إذا حان الأجل
والموت أحلى عندنا من العسل
ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
إن عليا هو من شر البدل
إن تعدلوا بشيخنا لا يعتدل
أين الوهاد وشماريخ القلل

---

(١٧) القضيف: النحيف، حمش: دقيق.

(١٨) أوهطه: طعنه وأوهنه. الإسفاف: دنو الطائر من الأرض في طيرانه.

(١٩) الطبري ٥٢٨/٣، ٥٢٩.

(٢٠) يكلم: يجرح. تختلى: تقطع.

(٢١) سماه الطبري الحارث وسماه ابن أبي الحديد عمرو بن ضرار الضبي.

www.alkottob.com

ردوا علينا شيخنا ثم بجل[٢٢]

وقد ارتجز ببعض هذا الرجز عدة من أصحاب الجمل، فأجابه عمير بن أبي الحارث من أصحاب علي ينقض عليه رجزه:

نحن قتلنا (نعثلا) فيمن قتل
أكثر من أكثر فيه وأقل
كيف نرد شيخكم وقد قحل
نحن ضربنا صدره حتى انجفل
لحكمه حكم الطواغيت الأول
آثر بالفيء وجافى بالعمل
فأبدل الله به خير بدل
إني امرؤ مستقدم غير وكل
مشمر للحرب معروف بطل[٢٣]

.....، حمي بنو ضبة حول الجمل واستماتوا، وأتوا بضروب من البلاء عجيبة، شغلتهم نصرتهم لأمهم عن كل شيء، حتى عن قول (لا إله إلا الله) وقد بلغت الروح الحلقوم: جرح أحدهم (عمير بن الأهلب الضبي) فمر به رجل من أصحاب علي فرآه جريحا يفحص الأرض برجله وهو يقول:

لقد أوردتنا حومة الموت أمنا ... فلم ننصرف إلا ونحن رواء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمه ... وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا قريشا ضلة من حلومنا ... ونصرتنا أهل الحجاز غباء
أطعنا بني تيم بن مرة شقوة ... وهل تيم إلا أعبد وإماء[٢٤]

فقال له الرجل: «يا عبد الله، قل: لا إله إلا الله» فقال: أوص بها أمك، أتأمرني بالجزع عند الموت؟» فلما وليت ناداني فقال: «قد قبلتها ادن مني لقنيها وأسمعني فإن في أذني وقرا». فدنا منه وجعل يلقنه فقال له: «ممن أنت؟» فقال الرجل: «رجل من أهل الكوفة» فوثب الجريح عليه

---

(٢٢) الأسل: الرماح. الوها: المنخفضات من الأرض. شماريخ القلل: رؤوس الجبال. بجل: اسم فعل بمعنى حسبك وتأتي حرفا بمعنى نعم. والمراد بالشيخ: عثمان بن عفان. وانتصبت بني ضبة على الاختصاص – انظر الكامل للمبرد (ص٦٥ طبعة ليدن).

(٢٣) ليس في الطبري إلا الشطران الثالث والرابع والزيادة عن شرح نهج البلاغة ٨٤/١. قحل: يبس جلده على عظمه.

(٢٤) الطبري ٥٣١/٣، ٥٣٢. وتيم: قوم عائشة ومنهم طلحة. وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٣٠/٦.

www.alkottob.com

فقطع أذنه بأسنانه وقال له: «إذا لقيت أمك فأخبرها أن عمير بن الأهلب الضبي فعل بك هذا»[٢٥].

لقد كان بالرجل من نفسه شاغل عن هذا الأذى لولا ما في القلوب.

وأكثر رجاز أهل البصرة من الرجز حول الجمل يحمسون ويتحمسون، فمن قائل:

أسامع أنت مطيع لعلى
من قبل أن تذوق حد المشرفي
وخاذل في الحق أزواج النبي

وقائل:

يا أمنا عائش لا تراعي
كل بنيك بطل المصاع
ينعي ابن عفان إليك ناعي
فارضي بنصر السيد المطاع
والأزد فيها كرم الطباع

روى الطبري عن القعقاع في وصف شدة القتال:

«ما رأيت شيئا أشبه بشيء من قتال القلب يوم الجمل بقتال صفين: لقد رأيتنا ندافعهم بأسنتنا ونتكئ على أزجتنا (أطراف رماحنا)، وهم مثل ذلك، حتى لو أن الرجال مشت عليها لاستقلت بهم». ولقد تراموا بالنبل حتى فنيت، وتطاعنوا بالرماح حتى تشبكت في صدورهم فلو سيرت عليها الخيل لسارت، وكان أحد الذين شهدوها، كلما مر بعدها بالقصارين (الذين يدقون الثياب) فسمع أصواتهم يضربون، ذكر قتال الناس يوم الجمل[٢٦] وذكر شاهد آخر:

«أنهم حاصوا حيصة في القتال ثم رجعوا فإذا عائشة على جمل أحمر في هودج أحمر، ما شبهته إلا بالقنفذ مما رمي فيه من النبل».

---

[٢٥] المصدر السابق وشرح نهج البلاغة ٨٤/١. المصع: الضرب بالسيف.

[٢٦] الطبري ٥٣٨/٣- ثم ذهب يوم الجمل في العرب مثلا في شدة القتال وتفاني المتحاربين، وخذ على سبيل المثال قول اسحق بن خلف البهراني يخاطب علي بن عيسى القمي:

وللكرد منك إذا زرتهم ... بكيدك يوم كيوم الجمل

انظر الكامل للمبرد (ص ٣٦١) طبعة ليدن.

www.alkottob.com

وكانت أم المؤمنين في حلقة من أهل النجدات والبصائر من أفناء مضر، فكان لا يأخذ أحد بالزمام إلا كان يحمل الراية واللواء، وكان لا يأخذه إلا معروف عند المطيفين بالجمل: فينتسب لعائشة قائلا: «أنا فلان بن فلان» ثم روى الطبري عن أحد شهود الموقعة قوله: «فوالله إن كانوا ليقاتلون عليه (أي الجمل) وإنه للموت لا يوصل إليه إلا بطلبة وعنت، وما رامه أحد من أصحاب علي إلا قتل أو أفلت فلم يعد[٢٧]»، وعرفت — لما اختلط الناس بالقلب — أن عدي بن حاتم جاءه فحمل عليه ففقئت عينه ونكل...

وتتابع الناس على خطام الجمل وهم يقتلون. وجاء محمد بن طلحة فأخذ بالخطام وقال: «يا أماه، مريني بأمرك» فقالت آمرك أن تكون كخير بني آدم إن تركت»، فحمل، فجعل لا يحمل عليه أحد إلا حمل عليه وهو يقول: (حم، لا ينصرون) واجتمع عليه نفر من أصحاب علي فأنفذه أحدهم بالرمح وقال:

وأشعث قوام بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
هتكت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعا لليدين وللفم
يذكرني (حاميم) والرمح شاجر فهلا تلا (حاميم) قبل التقدم
على غير شيء غير أن لست تابعا عليا ومن لا يتبع الحق يندم[٢٨]

ثم تقدم من الزمام عبد الله بن الزبير، فقالت حين لم يتكلم: «من أنت!» فقال: «أنا عبد الله، أنا ابن أختك» فقالت: «واثكل أسماء» خوفا عليه أن يصيبه ما أصاب عبد الرحمن بن عتاب والأسود بن أبي البختري وغيرهم من الأنجاد الذين قتلوا قبله. وكان بعبد الله حينئذ سبع وثلاثون جراحة بين ضربة وطعنة من شدة ما لاقى من الهول، ولقد صدق زيد مولاه حين قال له بعد

---

[٢٧] الطبري ٥٣٢/٣.

[٢٨] ادعى كل واحد من النفر أنه هو القاتل، وسيأتي أن الأشتر نفسه قتله. وقائل الأبيات هو — على ما في شرح أدب الكاتب للجواليقي، ولم أره في مصدر آخر — كعب بن جدير المنقري، ادعى انه طعنه. والبيت الرابع موضعه عند الجواليقي ثالثا وروايته له هكذا:

على غير ذنب غير أن ليس تابعا عليا ومن لا يتبع الحق يظلم

انظر شرح أدب الكاتب ص ٣٥٩ طبعة القدسي.

وابن عساكر ينحو منحى آخر في روايته مقتله، وأن عائشة قالت له «أرى أن تكون كخير بني آدم فتكف يدك» فكف يده... وكان لما حمل بالرمح قال له: «أذكرك حاميم» ويعني منها قوله تعالى: {قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى} فطعنه فقتله، وكان علي قد نهى عن قتله — انظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٠٢/٦.

www.alkottob.com

حرب الجمل «... والله ما نجوت إلا بما بقي لك من أجلك وقد عاينته عيانا»[٢٩]، ولقد رئي به تسع عشرة ضربة ما منها طعنة ولا رمية، وإن من به مثل جراحاته لكثير. ولقد صدق ابن الزبير في صفة الوقعة حين قال:

«ما رأيت مثل يوم الجمل قط: ما ينهزم منا أحد، وما نحن إلا كالجبل الأسود...» وكان أشد ما كان يخشاه ابن الزبير أن يلقاه الأشتر: فقد بلغه عنه أنه قال: «إن ابن الزبير هو الذي أكره عائشة على الخروج، وأنا أدعو الله أن يلقينيه». وقد وصفه له رجل فقال: «علامة الأشتر أن إحدى قدميه بادية من شيء يجد بها».

وكان أن مر به الأشتر فعرفه، ولقيه كفه لكفة (وجها لوجه)، فعانقه وتعاركا، وبادره الأشتر فضربه على رأسه، قال الأشتر: «لما قصد لي ابن الزبير، سوى رمحه لرجلي فقلت: «هذا الأحمق، وما عسى أن يدرك مني لو قطعها؟ ألست قاتله؟ فلما دنا مني جمع يديه في الرمح ثم التمس به وجهي فعلمت أنه أحد الأقران». وتعاركا، واعتنق كل صاحبه وخرا إلى الأرض، فذكروا أن عبد الله بن الزبير صار يصرخ بأصحابه ويقول: «اقتلوني ومالكا»[٣٠] ومالك اسم الأشتر، وقد

---

[٢٩] من مخطوطة هي جزء من كتاب الفنون لابن عقيل المتوفى (٥١٣ هـ) ت انظر مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ٢٤ ص ٤٤.

[٣٠] رواه الطبري ورواه الميداني في مجمع الأمثال وقال: إنه يضرب لكل من أراد بصاحبه مكروها وإن ناله منه ضرر — اهـ.

قلت هذا هو المشهور إلا أن الواقع غيره، فقد ذكر الطبري روايتين غير هذه، وكلتاهما تفيد أن قائله عبد الرحمن بن عتاب لا عبد الله بن الزبير:

قالوا للأشتر لما وصف لقاء ابن الزبير: «فهو القائل: اقتلوني ومالكا؟» فقال الأشتر: «لا، ما تركته وفي نفسي منه شيء، ذاك عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد: لقيني فلقيت أشد الناس وأروعه، فعانقته واختلفنا ضربتين، فصرعني وصرعته، وسقطنا إلى الأرض جميعا، فنادى: (اقتلوني ومالكا)، وإن عبد الرحمن لأقطع متروف» فاعتنقه الأشتر فجلد به الأرض عن دابته، فاضطرب تحته — ٥٢٨/٣. وليس بغريب أن يتواتر هذا المثل عن ابن الزبير ويثبت كذلك في الأمات، فقد غلط الناس فيه لذلك العهد، وعرفوه كذلك، حتى صححه الأشتر نفسه. ولا يبعد أن يكون قاله الاثنان: ابن عتاب وابن الزبير، فيكون الأشتر قد نفى أن يكون ابن الزبير القائل الأول. وعلى ذلك تستقيم الرواية القائلة إن الأشتر قال مخاطبا السيدة عائشة:

أعائش لولا أنني كنت طاويا ... ثلاثا لألفيت ابن اختك هالكا
غداة ينادي والرجال تحوزه ... بأضعف صوت: «اقتلوني ومالكا»
فلم يعرفوه إذ دعاهم وعمه ... خدب عليه في العجاجة باركا
فنجاه مني أكله وشبابه ... وأني شيخ لم أكن متماسكا
وقالت: «على أي الخصال قتلته؟ ... بقتل أتى، أم ردة لا أبالكا
أم المحصن الزاني الذي حل قتله» ... فقلت لها: «لا بد من بعض ذلكا»

www.alkottob.com

جاد عبد الله بروحه ورضي بذهابها إذا كان في ذلك قتل الأشتر وخلو جيش علي منه، لما له من البلاء العظيم، ولقد كان — في الواقع — أرد عن علي من العديد الكثير ولو عرفه أصحاب الجمل لقطعوه إربا إربا من كثرة ما لاقوا منه. قال الأشتر: «ما أحب أن يكون قال: «اقتلوني والأشتر» وأن لي به حمر النعم» وكان الناس لا يعرفونه بمالك، ولو عرفوه وكانت له ألف نفس ما نجا منها شيء، وما زال يضطرب حتى نجا(٣١).

عقر الجمل وانتهاء المعركة:

اختلط العسكران، وحمي الوطيس، وتضرم القتال، ولاذ الجميع بالصبر حفاظا وأنفة، ولم يعد للرماح مجال فنادى علي: «السيوف يا أبناء المهاجرين» وكان علي يحمل الحملات الصادقة

وقد كنت على ظن أن هذه الأبيات وهذا الخطاب مصنوعان، قبل أن أجد في مسند أحمد ما يؤيد هذا الخبر ويسمي له زمنا بعد المعركة:

روى الإمام أحمد في مسنده (٥٨/٦، ٢٠٥): أن الأشتر وعمارا دخلا على عائشة، فسلم عمار فقالت: «السلام على من اتبع الهدى» مرتين أو ثلاثا، ثم قال عمار: «أما والله إنك لأمي وإن كرهت». قالت: «من هذا معك؟ قال: «الأشتر». فقالت: «أنت الذي أردت أن تقتل ابن أختي؟» قال: «نعم، قد أردت ذلك وأرادوه». قالت: «أما والله لو فعلت ما أفلحت، أما أنت يا عمار فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا من ثلاثة: إلا من زنى بعد إحصان، أو كفر بعد ما أسلم، أو قتل نفساص فقتل بها». اهـ ٥٨/٦ — الخدب: الجمل الشديد الصلب. وكقوله (اقتلوني ومالكا) قول شمشون الجبار: «علي وعلي أعدائي يا رب».

(٣١) الطبري ٥٣٣/٣ وهنا خبر وملاحظة:

روى ابن عبد ربه: أن ابن الزبير قال: «التقيت مع الأشتر يوم الجمل، فما ضربته ضربة حتى ضربني خمسا أو ستا، ثم جر برجلي فألقاني بالخندق وقال: «والله لولا قربك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع فيك عضو إلى عضو» العقد الفريد ٦٢/١، ١٠٢/٣– وهذا خبر لطيف يدل على نبل في الأشتر كبير ومحبة للرسول صادقة، ويزيده لطفا أن روايه هو ابن الزبير نفسه. إلا أنه لا يثبت على النقد للرواية التي مرت بك آنفا عن مسند الإمام أحمد.

أما الملاحظة فهي أن ابن عبد ربه روى أن ابن الزبير أرسل إلى عائشة يوم الجمل: «إني صالح»، فسجدت لله شكرا، وأعطت من بشرها بخلاصه حين التقى بالأشتر أربعة آلاف — العقد الفريد ٦٢/١،١٠٢/٣.

وذكر ابن عساكر: أن ابن الزبير أخذ من وسط القتلى يوم الجمل وبه بضع وأربعون طعنة، وأعطت عائشة للذي بشرها به عشرة آلاف ثم سجدت شكرا.. تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤٠٢/٧. فذكر بعض المحققين (وضاع علي اسمه وعصره) أن صلتها من بشرها بنجاته كانت يوم إفريقية لا يوم الجمل لشغلها حينئذ عن ذلك بنفسها، وما نشاهد من أهوال، ولبعد المال عنها حينذاك.

ولست أرى في ذلك بعدا، وأرجح أن العطاء كان منها مرتين؛ أما بعد المال منها فليس في النصين: نص ابن عبد ربه ونص ابن عساكر ما يفيد أن العطاء والبشارة كانا في المعركة لا عقبها. هذا «ولم يكن أحد أحب إلى عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبيها من ابن الزبير، وما دعت لأحد مثل دعائها له وأوصت له بحجرتها» – المصدران السابقان.

www.alkottob.com

فتصدع لحملاته الصفوف، ويضرب بسيفه حتى ينثني، ثم يرجع فيقول: «لا تلوموني ولوموا هذا» ثم يقومه أو يأخذ غيره ويعود، ولقد صدق الذي قال وأحسن:

شهدت الحروب وشيبنني ... فلم ترعيني كيوم الجمل

أشد على مؤمن فتنة ... وأفتك منه لخرق بطل

فليت الظعينة في بيتها ... وليتك (عسكر) لم ترتحل[٣٢]

واستمات الناس أمام الجمل حتى كثرت القتلى حوله، وكأن القادم إليه ملق نفسه على الموت يطلبه طلبا، حتى قيل للواقف حوله «ما يوقفك حيال الجمل، الموت معك وبإزائك[٣٣]» وكثر الرجز في ذلك اليوم: يقول قائل من أهل البصرة:

يا أيها الجند الصليب الإيمان
قوموا قياما واستغيثوا الرحمن
إني أتاني خبر ذو ألوان:
أن عليا قتل ابن عفان
ردوا إلينا شيخنا كما كان
يا رب وابعث ناصرا لعثمان
يقتلهم بقوة وسلطان

فيجيب مجيب من عسكر الكوفة:

أبت سيوف مذحج وهمدان
بأن ترد (نعثلا) كما كان
خلقا سويا بعد خلق الرحمن
وقد قضى بالحكم حكم الشيطان
وفارق الحق ونور الفرقان
فذاق كأس الموت شرب الظمآن،

ويحمي من عسكر عائشة من يقول:

---

(٣٢) العقد الفريد ٣/٢٠١.

(٣٣) انظر في شدة القتال ص ٢٠٠ فيما بعد نمن هذا الكتاب.

www.alkottob.com

يا أمنا يكفيك منا دنوه،
أن يؤخذ الدهر الخطام عنوه
وحولك اليوم رجال شنوه
وحولك اليوم رجال شنوه
وحي همدان رجال الهبوه
والمالكيون القليلو الكبوه
والأزد حي ليس فيهم نبوه[٣٤]

ومن يقول:

أبا تراب ادن مني فترا
فإنني دان إليك شبرا
وإن في صدري عليك غمرا[٣٥]

ومن أخذ بخطام الجمل لا يدنو منه أحد إلا خبطه بسيفه، فيقبل الحارث ابن زهير الأزدي وهو يقول:

يا أمنا يا خير أم نعلم
أما ترين كم شجاع يكلم
وتختلى هامته والمعصم

ولعله يريد توفير هذه الدماء الجارية بعقر الجمل، فيختلفان ضربتين حتى يراهما الرائي يفحصان الأرض بأرجلهما حتى ماتا[٣٦].

---

[٣٤] الهبوة: الغبار (يعني أنهم رجال حرب) — الكبوة: عثرة الجواد. النبوة: أن يحيد السيف عن الضريبة، ومن قولهم «لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة».

[٣٥] أبو تراب: كنى بها الإمام علي. الغمر: الحقد.

[٣٦] ثم يقول راوي هذا الخبر: «.... فدخلت على عائشة (بعد ذلك بطويل) بالمدينة فقالت: «من أنت؟» قلت: «رجل من الأزد أسكن الكوفة». قالت: «أشهدتنا يوم الجمل؟» قلت: «نعم» قالت: «لنا أم علينا؟» قلت: «عليكم» قالت: «أفتعرف الذي يقول: «يا أمنا يا خير أم نعلم؟»».

قلت: «نعم» ذاك ابن عمي فبكت حتى ظننت أنها لا تسكت» – الطبري ٥٢٩/٣.

www.alkottob.com

وإن أحزن لشيء فلهذا الشيخ النبيل الصبيح الوجه، الذي ملك عليه إخلاصه لعائشة واستماتته دونها، فخرج وعليه جبة يحض الناس على الحرب والدفاع، وملء قلبه وجوارحه صدق وإيمان وهو يقول:

يا معشر الأزد عليكم أمكم
فإنها صلاتكم وصومكم
والحرمة العظمى التي تعمكم
فأحضروها جدكم وحزمكم
لا يغلبن سم العدو سمكم
إن العدو إن رماكم رمكم
وخصكم بجوره وعمكم
لا تفضحوا اليوم — فداكم - قومكم[٣٧]

وهذا المنطلق كالنمر الغضبان، من بين بني ضبة آساد الطعان، عوف ابن قطن الضبي: يندفع اندفاع السيل وهو ينادي: «ليس لعثمان ثأر إلا علي....» ويأخذ بخطام الجمل وهو يقول:

يا أم يا أم خلا مني الوطن
لا أبتغي القبر ولا أبغي الكفن
من ههنا محشر عوف بن قطن
إن فاتنا اليوم علي فالغبن
أو فاتنا ابناه حسين وحسن
إذا أمت بطول هم وحزن[٣٨]

لقد كانت نصرة بني الأزد وبني ضبة لعائشة بالغة المدى قوة وشدة واستماتة، على قدر ما يكنون لها من إجلال وتوقير ومحبة واحترام. حتى لقد ذكر الطبري: «أن المطيفين بها من الأزد كانوا يأخذون بعر الجمل فيفتونه ويشمونه ويقولون: بعر جمل أمنا، ريحه ريح المسك[٣٩]».

وهذا رجل من أصحاب علي يقاتل فيهم وهم حافون بالجمل ويقول:

---

(٣٧) رم الشيء: أكله.
(٣٨) الغبن الخسارة. وهذه الأراجيز عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٨/١ فما بعدها.
(٣٩) ٥٣٠/٣.

www.alkottob.com

جردت سيفي في رجال الأزد
أضرب في كهولهم والمرد
كل طويل الساعدين نهد

وعلم علي والناس أن القوم ما هم بكافين عن التساقط حول الجمل، ولقد كادت بنو ضبة تفنى، وكذلك بنو عدي، وقد قتل حوله سبعون من قريش خاصة، وليس أدل على تفاني بني ضبة وصدقهم القتال وتسارعهم إلى الفناء من شهادة عائشة المشهورة حين قالت: «ما زال جملي معتدلا حتى فقدت أصوات بني ضبة».

أولا تشعر معي – في شدة تلك الحرب – بالحسرة اللاذعة تملأ قلب الحارث بن سويد وكان شهد يوم الجمل مع طلحة والزبير، لقد ترك لنا وصفا موجزا بليغا لشدة يوم الجمل، وكان يتقطع قلبه كلما ذكره بعد ذلك، قال:

«والله ما رأيت مثل يوم الجمل: لقد أشرعوا رماحهم في صدورنا وأشرعنا رماحنا في صدورهم، ولو شاءت الرجال أن تمشي عليها لمشت؛ يقول هؤلاء: (لا إله إلا الله) ويقول هؤلاء: (لا إله إلا الله)…. فوالله لوددت أني لم أشهد ذلك اليوم وأني أعمى مقطوع اليدين والرجلين[٣٩]...!!».

رأى علي أن الواجب يفرض عليه خطة حاسمة ينقذ بها هذه الأرواح القليلة الباقية التي عزمت عزما لا رجعة فيه: على أن تموت حول الجمل، فنادى:

«اعقروا الجمل»

وكان آخر من قاتل ذلك اليوم أمامه زفر بن الحارث آخر من أمسك بزمام الجمل، زحف إليه القعقاع، فلم يبق حول الجمل من بني عامر يومئذ شيخ إلا أصيب قدام الجمل: يتسرعون إلى الموت تسرعا. وقال القعقاع لبجير بن دلجة الضبي – وكان من الضبين القلائل في عسكر علي وأخوه في عسكر عائشة: «يا بجير بن دلجة، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب أم المؤمنين».

---

[٣٩] العقد الفريد ١٠٢/٣.

www.alkottob.com

فنادى هذا قومه وأخاه من عسكر عائشة قائلا: «يا آل ضبة، يا عمرو بن دلجة، ادع بي إليك». فدعا به، فقال: «أنا آمن حتى أرجع؟» قال: «نعم» فمشى إلى البعير فاجتث ساقه، فرمى بنفسه على شقه، وجرجر البعير ولم يسمع قط صوت أشد من عجيجه، فسئل بجير: «لم عقرته؟» فقال:

«رأيت قومي يقتلون حوله، فخفت أن يفنوا، ورجوت إن عقرته أن يبقى لهم بقية[٤٠]». وفي ذلك قال الحارث بن قيس أحد أصحاب عائشة:

نحن ضربنا ساقه فانجدلا
من ضربة بالنفر كانت فيصلا
لو لم نكون للرسول ثقلا
لو لم نكون للرسول ثقلا
وحرمة لاقتسمونا عجلا[٤١]

وقال القعقاع لمن يليه: «أنتم آمنون».

واجتمع هو وزفر بن الحارث على قطع بطان البعير وإنزال الهودج عن ظهره، فوضعاه وإنه لكالقنفذ من كثرة النبل فيه». وأطافا بالهودج، ونادى منادي علي:

«إنكم آمنون»

فكف بعض الناس عن بعض.

وأمر علي محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر فقطعا غرضة[٤٢] الرحل ونحيا الهودج في نفر من اصحابهما، فأدخل محمد يده فيه قالت عائشة: «من هذا!»:

قال: «أخوك البر»

قالت: عقوق؟».

قال: «محمد»

---

(٤٠) الطبري ٣/٥٣١.

(٤١) ٣/٥٣٧.

(٤٢) الغرضة للرحل: كالحزام للسرج — القاموس.

www.alkottob.com

قالت: «مذمم؟»

قال: «يا أخية، هل أصابك شيء؟»

قالت: «ما أنت من ذاك؟»

قال: «فمن إذن؟ الضلال؟»

قالت: «بل الهداة».

إلا أن هناك رواية ثانية للطبري هي أحرى أن تكون وقعت، فقد ذكر أن عليا أمر أخاها محمد بن أبي بكر أن يضرب عليها قبة وينظر: هل وصل إليها شيء؟ فأدخل رأسه في الهودج فقالت: «من أنت ويلك؟» قال: «أبغض أهلك إليك».

قالت: «ابن الخثعمية؟» قال: «نعم»

قالت: «بأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي عافاك(٤٣)».

وهذا أقرب أن يكون بين الإخوة مهما شجر بينهم.

وكانت بادرة من عمار لم تخل من جفاء، فقد قال لها: «كيف رأيت ضرب بنيك يا أمه؟».

قالت: «من أنت؟»، قال: «ابنك البار عمار».

قالت: «لست لك بأم»، قال: «بلى وإن كرهت(٤٤)».

قالت: «فخرتم أن ظفرتم، وأتيتم ما نقمتم، هيهات، لن يظفر من كان هذا دأبه(٤٥)».

أبرزوا السيدة بهودجها من القتلى، وإن الهودج لمثل الفرخ المقضب (المقطع) مما فيه من النبل، وإن صحت إحدى روايات الطبري يكن القوم قد ارتكبوا خطيئة كبرى بتركها وحدها بلا

---

(٤٣) الطبري ٣/٥٢٨.

(٤٤) الكامل لابن الأثير ٣/١٠٩ والطبري ٣/٥٣٩.

(٤٥) ولم يكتف عمار – على ما يظهر– بهذا الخطاب يسيء به أمه، فإنه لما عزمت على الرجوع إلى المدينة وخرجت من البصرة وخرج مشيعوها لم يترك عمار أن يقول لها: «يا أم المؤمنين ما أبعد هذا السير من العهد الذي عهد إليك!»، ولكن السيدة لطفت به لطف الأم بولدها الناشز، ورفقت في جوابها فقالت: «إنك – ما علمت – لقوال بالحق» قال عمار: الحمد لله الذي قضى لي على لسانك» الطبري ٣/٥٤٨ والكامل لابن الأثير ٣/١١١.

www.alkottob.com

حراس، حتى أتاها أحد الأجلاف ممن ليس في قلوبهم نبل ولا إيمان: أعين بن ضبيعة المجاشعي «فاطلع في الهودج. فقالت السيدة: (إليك لعنك الله) فقال (والله ما أرى إلا حميراء) فقالت: (هتك الله سترك، وقطع يدك وأبدى عورتك) فذكروا أنه قتل — فيما بعد — بالبصرة وسلب وقطعت يده، ورمي به عريانا في خربة من خربات البصرة[٤٦]».

وأنا — وإن ذكر ذلك الطبري — أستبعده كل الاستبعاد، فليس يعقل أن يزدحم من حولها المستميتون في الدفاع عنها ثم يتناثروا في طرفة عين فلا يبقى منهم أحد ويتركوها عرضة لمثل هذا الجلف بعد أن أمن الفريقان بعضهم بعضا، وليس علي ولا من معه من أجلاء المسلمين ممن يصح أن يغفلوا عن رعايتها. وما أرى أحدا يتجرأ على السيدة بمثل هذا مهما لؤم، وليس يعقل أن يتركها أخوها محمد وحدها. وهذا الطبري قد ذكر في موضع آخر أنه ضرب عليها فسطاطا[٤٧].

انتهى علي بن أبي طالب إلى السيدة فوقف وقال:

«استفززت الناس وقد فزوا، فألبت بينهم حتى قتل بعضهم بعضا...» في كلام كثير.

فقالت عائشة: «يا بن أبي طالب، ملكت فأسجح[٤٨]، نعم ما أبليت قومك اليوم».

فقال: «أي أمه، يغفر الله لنا ولكم».

فقالت: «غفر الله لنا ولكم».

وأمر أخاها وعمارا أن يدخلا البصرة، فدخلا بها وأنزلها أخوها دار عبد الله ابن خلف الخزاعي، على صفية بنت الحارث وهي أم طلحة الطلحات بن عبد الله ابن خلف.

* * *

---

(٤٦) الطبري ٥٣٩/٣ والحميراء في لغة الحجاز: البيضاء — انظر في ذلك سير النبلاء للذهبي: الجزء الخاص بترجمة عائشة ص ٥٠.

(٤٧) الطبري ٥٢٨/٣- وللطبري خبر طريف يتعلق بتعويض الأشتر السيدة عن جملها، فإنه لما فرغوا يوم الجمل، أمر الأشتر رجلا فانطلق فاشترى له جملا بسبع مئة درهم من رجل من مهرة وقال له: «انطلق به إلى عائشة فقل لها: بعث به إليك الأشتر مالك بن الحارث ويقول: «إن هذا البعير مكان بعيرك». ففعل الرجل، فقالت عائشة: «لا سلم الله عليه إذ قتل يعسوب العرب (يعني ابن طلحة)، وصنع بابن أختي ما صنع» فرد الرجل البعير إلى الأشتر وأعلمه بما قالت، فأخرج ذراعين شعراوين وقال: «أرادوا قتلي فما أصنع؟؟» -٥٤٥/٣.

(٤٨) أسجح: سهل، كن سهلا سمحا.

www.alkottob.com

انتهى القتال، وأمسى الناس، ونفث علي ما في صدره من الهم، وجأر إلى ربه يقول:

إليك أشكو عجري وبجري
ومعشرا غشوا على بصري
قتلت منهم مضرا بمضري
شفيت نفسي وقتلت معشري!![٤٩]

ونادى مناديه: «أن لا يجهز على جريح، ولا يتبع مول، ولا يطعن في وجه مدبر، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

ثم أدمن الأسود والأحمر[٥٠].

* * *

كانت الموقعة من أول النهار حتى العصر إذ تمت الهزيمة على أصحاب الجمل، وذلك يوم الخميس (أو الجمعة) في النصف من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين للهجرة[٥١].

---

(٤٩) العجر: العروق المتعقدة الناتئة في الجسد. والبجر: ما تعقد منها على البطن خاصة، ألقيت إليه بعجري وبجري: أطلعته على معايبي لثقتي به، أفضيت إليه بعجري وبجري، أي ما أعلن وما أخفي من همومي وأحزاني.

(٥٠) اليعقوبي ٢/٢١٣.

(٥١) في توريخهم يوم المعركة بعض التضارب: فالطبري يجعله في إحدى روايتيه (٣/٤١٤) يوم الخميس في النصف من جمادى الآخرة، وابن عبد ربه يجعله يوم الجمعة في النصف منه أيضا، وفرق في يوم واحد مما يقبل في الأشهر القمرية. إلا أن هناك رواية ثانية للطبري يرويها عن الواقدي تجعل موقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦ (٣/٤٣٩) وهي رواية مرجوحة انفرد بها الواقدي، فامتحنا الروايتين بالحساب فكانت الرواية الأولى هي الصحيحة دون رواية الواقدي. وعلى ذلك يكون المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار قد تسرع في اعتماده الرواية المرجوحة في كتابه (تاريخ الإسلام: الخلفاء الراشدون ص ٤٠٩ المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ).

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الرابع

القتلى

الزبير:

أجفلت نفس الزبير من هذا القتال في أوله لما التقى بعلي وذكر له ما ذكر[1]. فرجع إلى عائشة يقول: «ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري، غير موطني هذا»[2]. قالت: «فما تريد أن تصنع؟» قال: «أريد أن أدعهم وأذهب»، فقال له ابنه عبد الله: «جمعت بين هذين الغارين، حتى إذا حدد بعضهم لبعض أردت أن تتركهم وتذهب؟!... أحسست رايات ابن أبي طالب، وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد.. وعرفت أن تحتها الموت فجبنت».

---

(1) من أطرف ما قرأت مما زعموا أنه دار بين علي والزبير ما أورده المسعودي – وهو على ما عرفت راو غير ثقة في هذا الباب – في كتابه مروج الذهب، وهذا هو بنصه:

قال الزبير لعلي وقد ذكره: «كيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان، هذا والله العار الذي لا يغسل» فقال علي: «يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار» فرجع الزبير وقال:

اخترت عارا على نار مؤججة	ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى علي بأمر لست أجهله	عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن	فإن بعض الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد الله.... الخ» – مروج الذهب ٢/٨.

(2) ولصاحب الإمامة والسياسة زيادات مبثوثة في أنحاء الخبر، كدأبه في أكثر ما يروي مما يمس حزبيته (الشيعية) ولا بأس بإيراد ما رواه:

ذكروا أن الزبير دخل على عائشة فقال: «يا أماه، ما شهدت موطنا قط في الشرك ولا في الإسلام إلا ولي فيه رأي وبصيرة غير هذا الموطن، فإنه لا رأي لي فيه ولا بصيرة، وإني لعلى باطل».

قالت عائشة: «يا أبا عبد الله، خفت سيوف بني عبد المطلب» اهـ.

ويورد عبارة عائشة مصدر آخر شيعي هو (الأنوار العلوية والأسرار المرتضوية) على هذه الصورة: «لا والله، بل خفت سيوف ابن أبي طالب، أما والله إنها حداد (تحملها) سواعد أنجاد، فلئن حفتها لقد خافها الرجال قبلك». فرجع إلى القتال – ص ١٥٣.

www.alkottob.com

قال: «إني حلفت ألا أقاتله». وأغضبه ما قال ابنه وأحماه، فقال عبد الله: «كفر عن يمينك وقالته». فدعا بغلام له اسمه (مكحول) فأعتقه. فقال عبد الرحمن بن سلمان التميمي:

لم أر كاليوم أخا إخوان
أعجب من مكفر الأيمان
بالعتق في معصية الرحمن

وقال آخر:

يعتق مكحولا لصون دينه
كفارة لله عن يمينه
والنكث قد لاح على جبينه[٣]

ولقد عيرته عائشة بمثل تعيير ابنه له، وهما يعلمان أنه ليس بالجبان، ولكنهما أرادا أن يصرفاه عن الاعتزال، خشية أن يكسر اعتزاله من قوة العسكر، فجعل الزبير يحمل على جند علي فيفرجون له لما أخبرهم به علي من أنه محرج (يقاتل كارها)، وعرفت أن عمارا حازه بالسيف و لم يؤذه.

وللرواة خبر طريف يعللون به انصراف الزبير عن القتال غير ما ذكره به علي:

حدثه رجل من جيش علي قائلا: «هؤلاء القوم قد أتوك، فلقيت عمارا فقلت له وقال لي». فقال الزبير: وكان على حد تعبير علي فيه: إذا ذكر بالله ذكر: «ليس عمار فيهم» (لما رووا من أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ويح عمار تقتله الفئة الباغية) فقال الرجل: «بلى والله إنه فيهم» والزبير يدافعه ويقول: «والله ما جعله الله فيهم». ثم أرسل من رجع وأخبره بصدق الرجل... فيذكر الرواة أن الزبير حينئذ صرخ: «يا جدع أنفاه، وانقطاع ظهراه!» ثم أخذه أفكل (رعدة شديدة) فجعل السلاح ينتفض، فقال أحد من حضره جون بن قتادة: «ثكلتني أمي، هذا الذي كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه. والذي نفسي بيده: ما أخذ هذا ما أرى إلا لشيء سمعه أو رآه من رسول الله صلى الله عليه وسلم». فلما تشاغل الناس جلس الزبير على دابته وانصرف.

---

[٣] الطبري ٣/٥١٤، ٥٢٠، ويسمى الطبري غلامه (سرجس) — هذا ويذكرون أيضا صارفا آخر صرف الزبير عن القتال: لقيه ابن عباس (داهية بني هاشم) يوم الجمل فقال له: «يا بن صفية، هذه عائشة تملك الملك لقريبها طلحة: وأنت على ماذا تقاتل قريبك!»، فرجع الزبير. فلقيه ابن جرموز الخ». تهذيب تاريخ ابن عساكر ٥/٣٦٤.

www.alkottob.com

فلحق جون بالأحنف بن قيس الذي كان اعتزل الفريقين، فأخبره بما كان وقد مر الزبير قريبا منهم، فقال الأحنف: «وما أصنع به: أن جمع بين الغارين (العسكرين) حتى ضرب بعضهم حواجب بعض بالسيوف ثم يلحق ببيته وقد ترك الناس؟».

وجاء فارسان فأتيا الأحنف فناجياه ساعة ثم انصرفا، وقال للناس: «ما هذا الخياز، من يأتينا بخبره؟» فقال عمرو بن جرموز لأصحابه «أنا» فاتبعه، فلما لحقه نظر إليه الزبير وكان شديد الغضب وقال له: «ما وراءك؟» قال: «إنما أردت أن أسألك». وقال للزبير غلامه: «ما يهولك من رجل؟» وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز: «الصلاة!» فقال الزبير: «الصلاة» فنزلا واستدبره ابن جرموز فطعنه من خلفه في جربان (شق) درعه فقتله وأخذ فرسه[٤] وخاتمه وسلاحه، وخلى عن الغلام فدفنه بوادي السباع، ورجع إلى الأحنف بالخبر، فدخل معه على علي

---

[٤] في المكتبة الوطنية بباريس جزء مخطوط من كتاب الفنون لابن عقيل المتوفي سنة (٥١٣) فيه خبر طريف عن هذه الفرس كيف استنقذها ابن الزبير ثم رثاؤه أباه رأيت من المفيد إطلاع القارئ عليه:

«... عن أشياخ من الأزد ممن أدركوا من شهد الجمل قال:

لما رجع ابن الزبير من البصرة إلى المدينة مر بمنازل بني مجاشع من بني تميم ليلا، فبينا هو يسير ومعه مولى يقال له زيد، إذ سمع صهيل البسام فرس الزبير، فقال له مولاه: «أشهد بالله إنه لصهيل البسام» وكان ابن جرموز قد أخذه، فقال له ابن الزبير: «ويحك والله إنه لصهيل الأشقر، والله لا أرجع الليلة حتى آخذه أو تعوقني دونه العوائق» فقال له مولاه: «أذكرك الله لما تركته وانطلقت إني أخاف أن تقتل، والله ما نجوت من الموت إلا بما بقي لك من أجلك وقد عاينته عيانا» فقال عبد الله لمولاه: «اثبت لي مكانك، وهمك ما بينك وبين نصف الليل؛ فإن جئتك فذاك، وإلا فانطلق وانعني إلى أسماء». ثم ترجل واشتمل بسيفه وصمد لصوت الفرس، فعرض له رجل من الحي في جنح الليل فضربه ابن الزبير فقتله حتى انتهى إلى الفرس فأخذه من رباطه وجاء به يقوده حتى انتهى إلى مولاه فانطلقا جميعا، فقال ابن الزبير: رضي الله عنه — في ذاك:

يذكرني الزبير صهيل طرف	تناوله ابن جرموز بغدر
فقلت لصاحبي أرود قليلا	لأقضي حاجتي ووفاء نذري
فإن أرجع فذاك رجوع منج	وإلا فانعني أو بح بسري
فجئت أقوده والنجم عال	وما هي من أبي بكر بنكر
وقد كان الزبير فتى معد	إذا فزعوا وفارس حي فهر
وأجودهم على العلات كفا	وأعودهم على عسر بيسر
وأقومهم بأمر الحق فيهم	وأتركهم لشبهة كل أمر
وقالوا قد هوت لأبيك أم	فقلت لهم ألا لا، لست أدري
أرى أمرين في عرف ونكر	ولست بعاذر إلا بعذر
فإن تكن المنية أقصدته	فكل فتى إلى الغايات يجري»

انظر المجلد ٢٩ من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٤٤– بحث الأستاذ مصطفى جواد.

www.alkottob.com

وهو لا يدري أأحسن أم أساء، فلما أخبر عليا دعا بسيف الزبير وقال: «سيف طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله» ثم أنب الأحنف وبشر قاتل الزبير بالنار، وأرسل بسلبه إلى عائشة.

فكان جماعة يرون أن صاحب الزبير هو الأحنف بن قيس(٥).

طلحة:

وأما طلحة فقد رووا أنه ندم أشد ندامة على ما كان منه نحو عثمان، وأنه كان يكثر أن يقول: «اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى»(٦) فأصابه سهم غرب (طائش) في ركبته فكان إذا أمسكوه فتر الدم وإذا تركوه انفجر، فقال لهم: «اتركوه فإنما هو سهم أرسله الله». وقال لغلامه:

---

(٥) انظر الطبري ٥١١/٣، ٥١٢، ٥١٥، ٥٢٠، ٥٣٩، ٥٤٠ وقالت زوجة الزبير عاتكة بنت زيد ترثيه وتذكر قاتله عمرو بن جرموز:

غدر ابن جرموز بفارس بهمة	يوم اللقاء وكان غير معرد
يا عمرو لو نبهته لوجدته	لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
شلت يمينك، إن قتلت لمسلما	حلت عليك عقوبة المتعمد
إن الزبير لذو بلاء صادق	سمح سجيته كريم المشهد
كم غمرة قد خاضها لم يثنه	عنها طرادك يا بن فقع القردد
فاذهب، فما ظفرت يداك بمثله	فيما مضى، فيما تروح وتغتدي

تهذيب تاريخ ابن عساكر ٣٦٦/٥ وشرح شواهد المغنى ص ٢٦٦- البهمة: الفارس الذي لا يدري من أين يؤتى لشدة بأسه.

المعرد: الهارب. الطائش: الخفيف. الفقع: الكمأة الرخوة البيضاء، القردد: المكان الغليظ (ويقال للذليل: أذل من فقع بقرقرة، لأنه يوطأ بالأرجل ولا يمتنع على من جناه.

وعاتكة هذه صحابية مهاجرة مبايعة، أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة: كانت تحت عبد الله بن أبي بكر فقتل عنها، ثم تزوجها زيد بن الخطاب فقتل عنها، ثم تزوجها عمر بن الخطاب فقتل عنها، ثم تزوجها الزبير فقتل عنها... فكان علي بن أبي طالب يقول: «من أراد الشهادة الحاضرة، فليتزوج بعاتكة» - زهر الآداب ٧٤/١ (المطبعة الرحمانية — الطبعة الثانية).

(٦) ويزيد هنا صاحب الإمامة والسياسة، فيروي أن طلحة قال: «اللهم إن كنا قد داهنا في أمر عثمان وظلمناه، فخذ له منا حتى ترضى» فما قضي كلامه حتى ضربه مروان ضربة أتى منها على نفسه، فخر. وثبتت عائشة وحماها مروان في عصابة من كنانة وقيس وبني أسد... الخ ص ٦٧.

أما المسعودي فيروي أن مروان رماه في أكحله، وأن عبد الملك بن مروان رماه في جبهته — مروج الذهب ٩/٢.

www.alkottob.com

«أردفني وابغني مكانا لا أعرف فيه فلم أر كاليوم شيخا أضيع دما». فركب مولاه وأمسكه وجعل يقول: «لحقنا القوم» حتى انتهى إلى البصرة، وطلحة يتمثل مثله ومثل الزبير:

فإن تكن الحوادث أقصدتني ... وأخطأهن سهمي حين أرمي
فقد ضيعت حين تبعت سهما ... سفاها ما سفهت وضل حلمي
ندمت ندامة الكسعي لما ... شريت رضى بني سهم برغمي
أطعتهم بفرقة آل لأي ... فألقوا للسباع دمي ولحمي[٧]

فبلغ به خادمه دارا من البصرة خربة فأنزله في فيئها فمات في تلك الخربة، ودفن رضي الله عنه في بني سعد[٨].

وإذا ذكرت ما مر بك ص ١٠٢ — من أن مروان خرج في أصحاب الجمل دسيسة لينتقم من جميع خصوم عثمان، وليدبر أمرا آخر خفيا ييسر للأمويين — ويعسوبهم معاوية بدمشق — ملكا وطيدا بعد أن يخلو وجه الأرض من أهل السابقة من فحول الصحابة الأجلاء، وأنه يعرف مسير طلحة في أمر عثمان، وأن سعيد ابن العاص قال له: «أين تذهب وثأرك على أعجاز الإبل»؟ وأنت مروان في الدهاء والحيلة بالموقف الذي لا يجهل وأنه كان يعني ما يقول حين أجاب سعيدا بقوله: «بل نسير فلعلنا نقتل قتلة عثمان جميعا» إذا ذكرت ذلك لم تستغرب ما روى المؤرخون من أن هذا السهم الغرب الذي قتل طلحة إنما راشه مروان الذي لما رأى طلحة قال: «لا أنتظر بعد اليوم بثأري في عثمان». فانتزعه بالسهم فقتله[٩]، فكان هو صاحب دمه (مباشرة) كما كان الأحنف قاتل الزبير (غير المباشر).

---

[٧] الكسعي: هو غامد بن الحارث اتخذ قوسا وخمسة أسهم، وكمن في مخبأ: فمر قطيع فرمى عيرا (ظبيا) فنفذ فيه السهم وصدم الجبل فأروى نارا، فظن أنه قد أخطأ، فرمى ثانيا وثالثا... إلى آخرها وهو يظن أنه أخطأ، فعمد إلى قوسه فكسرها ثم بات؛ فلما أصبح نظر فإذا الظباء مطرحة مصرعة وأسهمه بالدم مضرجة، فندم فقطع إبهامه وأنشد:

ندمت ندامة لو أن نفسي ... تطاوعني، إذن لقطعت خمسي
تبين لي سفاه الرأي مني ... - لعمر أبيك — حين كسرت قوسي

[٨] الطبري ٥١٩/٣، ٥٣٤ والعقد الفريد ٩٩/٣.

[٩] المصدران السابقان، وفي الفائق للزمخشري رواية عن السيدة عائشة: «كان طلحة ينثل (يصب) درعه إذ جاء سهم فوقع في نحره فقال: «بسم الله، وكان أمر الله قدرا مقدورا» -٣٦٣/٢.

www.alkottob.com

أما أنا فعلى يقين من ذلك(١٠)، بل إني لأذهب إلى أن مروان كان يتربص بخصومه من كلا الفريقين، وأنه — لا بد- قتل كثيرين منهم غدرا، ممن لم يصل إلينا تفصيل مقتلهم.

بقية القتلى:

قتل طلحة والزبير، وتقدم في عرض الحوادث مقتل محمد بن طلحة وكعب بن سور وعمرو بن يثربي وعبد الرحمن بن عتاب... وغيرهم من رؤوس الناس وقضاهم ومشيختهم، وقتل حول الجمل سبعون قرشيا وسبعون من بني عدي: كلهم شيخ قد قرأ القرآن، سوى الشباب.. حتى قالت عائشة: «ما زلت أرجو النصر حتى خفيت أصوات بني عدي»، سوى قتلى ضبة التي كادت تفنى عن آخرها حول الجمل.

لم يكن القتال من نية أحد من الفريقين غير السبئيين، لكنه لم يكد ينشب حتى انجلى عن عدد من الضحايا لم يكن ليتوقعه أحد قط، وكان من خلف الفريقان خلفهما من أهل المدن والبوادي لا يشكون في أن القوم خرجوا إلى الإصلاح لا يبغون قتالا، فلم ينته اليوم المشؤوم حتى «علم من بين مكة والمدينة والبصرة بالوقعة: بما ينقل إليهم النسور من الأيدي والأقدام(١١). ويصف ذلك الحجاج ابن علاط وقد قتل أخوه في المعركة بقوله:

فلم أر يوما كان أكثر ساعيا　　　بكف شمال فارقتها يمينها(١٢)

وأقل الروايات على أن من قتل يوم الجمل عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي ونصفهم من أصحاب الجمل: من الأزد ألفان ومن سائر اليمن خمس مئة، ومن مضر ألفان، ومن قيس خمس مئة، ومن تميم خمس مئة، وألف من بني ضبة، وخمس مئة من بكر بن وائل، وغيرهم.

هذا عدا خمسة آلاف(١٣) من أهل البصرة قتلوا في المعركة الأولى (يوم الجمل الأصغر) فيكون عدة من قتل خمسة عشر ألفا على أقل تقدير، وكفى بهذا نكبة فادحة في أمة أعملت سلاحها في

---

(١٠) أقر مروان نفسه بقتله طلحة — تهذيب تاريخ ابن عساكر ٨٥/٧.

(١١) الكامل لابن الأثير ١١١/٣ وزاد: أن أهل المدينة علموا بالموقعة قبل أن تغرب الشمس يوم الحرب: من نسر مر بماء حول المدينة ومعه شيء معلق فسقط منه، فإذا كف فيها خاتم نقشه: عبد الرحمن بن عتاب!! — اهـ.

(١٢) الطبري ٥٤٨/٣.

(١٣) الطبري ٤٥٣/٣ فأما اليعقوبي فقد أبلغ القتلى في يوم الجمل الأكبر فقط ثلاثين ألفا ونيفا — ٢١٣/٢ وفي أمالي اليزيدي (ص ٩٧ طبعة حيدر آباد) أن قتلى الجمل من أهل البصرة (٢٥٠٠)..

www.alkottob.com

نفسها، وسنت لأخلاقها هذه السنة المشؤومة: يشرعون رماحهم في صدور إخوانهم، هؤلاء يقولون (لا إله إلا الله) وهؤلاء يقولون (لا إله إلا الله).

وفي مساء ذلك اليوم طاف علي ومعه مولاه، بشمعة: يتصفح وجوه القتلى... حتى وقف على طلحة بن عبد الله متعفرا، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول:

«أعزز علي؛ أبا محمد أن أراك متعفرا تحت نجوم السماء وبطون الأودية. إنا لله وإنا إليه راجعون.. شفيت نفسي وقتلت معشري، إلى الله أشكو عجري وبجري[١٤]»، «...لقد كنت أكره أن تكون قريش قتلى تحت بطون الكواكب. أدركت وتري من عبد مناف، وأفلتتني أعيار بني جمح، لقد أتلعوا أعناقهم إلى أمر لم يكونوا أهله فوقصوا دونه[١٥]».

وجعل يقول: «والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم. {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين} [الحجر: ١٥/٤٧]... وإذا لم نكن نحن فمن هم؟؟» ثم أجلس طلحة ومسح الغبار عن وجهه وبكى عليه[١٦].

---

[١٤] العقد الفريد ٣/٩٩ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٨٦ والكامل للمبرد (ص ١٢٣ طبعة ليدن).

[١٥] هذه الزيادة عن شرح نهج البلاغة ٣/٤١.

[١٦] وقع قوم في طلحة عند علي فقال: «أما والله إنه لكما قال الشاعر:

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه	إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
فتى لا يعد المال ربا ولا ترى	به جفوة إن نال مالا ولا كبر
فتى كان يعطي السيف في الروع حقه	إذا ثوب الداعي وتشقى به الجزر
كأن الثريا علقت في يمينه	وفي خده الشعرى وفي الآخر البدر
وهو وجدي أنني سوف أغتدي	على إثره يوما وإن نفس العمر

ولما دخل علي البصرة استقبل ابنه عمران بن طلحة فرحب به وقال له:

«إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله فيهم: {ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين} ثم جعل يلاطفه ويقول:

«لم أقبض أرضكم هذه السنين إلا مخافة أن ينتهبها الناس»، «يا فلان انطلق معه إلى ابن قرظة: مره فليعطه غلته هذه السنين وليدفع إليه أرضه».

وكان الحارث الأعور جالسا في ناحية فقال: «الله أعدل من أن تقتلهم ويكونوا إخواننا في الجنة» فقال علي: «قم إلى أبعد أرض الله وأسحقها، فمن هو ذا إذن إن لم أكن أنا وطلحة (إخوانا) في الجنة».

ثم التفت إلى عمران يقول: «يا بن أخي، إذا كانت لك حاجة فأتنا» – العقد الفريد ٣/١٠٠ وانظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٧/٨٠، ٨٦، ٨٧ والكامل للمبرد (ص ١٢٣ طبعة ليدن) والأبيات التي تمثل بها علي تنسب للأبيرد الرياحي.

www.alkottob.com

وطاف علي مع الناس في القتلى، فلما رأى كعب بن سور قال: «زعمتم أنما خرج معهم السفهاء وهذا الحبر قد ترون؟!» وجعل يخاطبه قائلا: «والله إنك — ما علمت — كنت صليبا في الحق قاضيا بالعدل». وأتى على عبد الرحمن بن عتاب فقال: «هذا يعسوب القوم الذي كانوا يطيفون به» أي يجتمعون عليه راضين به لصلاتهم. وجعل علي كلما مر رجل فيه خير قال: «زعم من زعم أنه لم يخرج إلينا إلا الغوغاء؛ وهذا العابد المجتهد؟».

ثم صلى على قتلاهم من أهل البصرة وعلى قتلاهم من أهل الكوفة، وصلى على قريش من هؤلاء وهؤلاء مكيين ومدنيين، ودفن الأطراف في قبر عظيم، وجمع ما كان في العسكر من شيء، ثم بعث إلى مسجد البصرة قائلا:

«من عرف شيئا فليأخذه إلا سلاحا عليه سمة السلطان فإنه مما بقي ما لم يعرف، خذوا ما أجبوا به عليكم من مال الله عز وجل، لا يحل لمسلم من مال المسلم المتوفى شيء، وإنما كان ذلك السلاح في أيديهم من غير تنفل من السلطان(١٧)».

* * *

كانت سيرة علي في القتلى سيرة جميلة صالحة عفيفة: ترحم على الجميع من هؤلاء وهؤلاء، ودفنهم، وكلما مر بقتلاهم قال: «اللهم اغفر لنا ولهم» وكان معه عمار ومحمد بن أبي بكر، فقال أحدهما لصاحبه متعجبا: «أتسمع؟» قال: «اسكت لا يزدك(١٨)».

وسئل عن قتلى الجمل مرة: «أمشركون أم منافقون؟» فقال: «من الشرك فروا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا؛ إنما هم إخواننا بغوا علينا».

وقال أيضا: «إنما اقتتلنا على البغي و لم نقتتل على التكفير».

ورمى الحارث بن حوط مرة أمام علي بهذا القول: «أظن طلحة والزبير وعائشة اجتمعوا على باطل»، فقال علي: «يا حارب، إنه ملبوس عليك، وإن الحق والباطل لا يعرفان بالناس، ولكن:

---

(١٧) الطبري ٥٤٣/٣.

(١٨) العقد الفريد ١٠٥/٣.

www.alkottob.com

اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف من أتاه[١٩]». وهي كلمة — كما ترى — كبيرة حكيمة.

ثم وقف علي في وجه من تحدثه نفسه بعدوان على أحد من أصحاب الجمل، وقفته الحاسمة المشهورة، فقد أمر أصحابه: ألا يقتلوا مدبرا ولا يذففوا (يجهزوا) على جريح، ولا يكشفوا سترا ولا يأخذوا مالا». فقال قوم يومئذ: «ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟» فقال:

«من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر، وهذه السنة في أهل القبلة».

فيومئذ تكلمت الخوارج وقالوا: «ما ندري ما هذا؟» فحجهم علي بقوله: «هذه عائشة رأس القوم؛ أتتساهمون عليها؟» قالوا: «سبحان الله! هي أمنا» قال: «فهي حرام؟» قالوا: «نعم» قال: «فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها[٢٠]».

وكذلك كان رأي أصحابه تبعا لرأيه، قال عمار في عائشة — وقد مر بك — على ملأ من الناس في مسجد الكوفة:

«أما والله إنا لنعلم أنها زوجه في الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم: أتتبعونه أم إياها؟».

* * *

رحم الله أم المؤمنين، فقد كانت المرأة الفذة في التاريخ: تزعمت (معارضة سياسية عنيفة) وزحزحت خليفة، وحاولت نصب خليفة، وزعزعت أركان خليفة، وقادت جموعا، وخاضت حربا، ثم أرادت تجنب القتال فخرج الأمر من يدها إلى أيدي غوغائها، شأنها في ذلك شأن علي... وكان ما كان مما ترتعد له فرائص كل مسلم: كلما ذكر فتنة الجمل وما استتبعت من ويلات!!

* * *

---

(١٩) اليعقوبي ٢/٢٤٨.

(٢٠) العقد الفريد ٣/١٠٥.

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الخامس

في آخر أيام عائشة بالبصرة

دخول عائشة البصرة وتجهيزها إلى الحجاز

«لما كان من آخر الليل خرج محمد بن أبي بكر بأخته عائشة أم المؤمنين حتى أدخلها البصرة في دار عبد الله بن خلف الخزاعي على صفية بنت الحارث من بني عبد الدار[١]». وصار يأوي إليها في هذه الدار — وهي أعظم دار في البصرة على ما يقول الطبري — الجريح والخائف وترسل إلى المتخفين. وكان فيمن أجارت وضمت إليها مروان بن الحكم المشير المشؤوم على عثمان ورأس الشر (غير المتوج) في نكبة الجمل. وصارت هذه الدار مثابة الناس وملجأهم، ومناط احترام الفريقين على السواء.

وصارت السيدة تتفقد جماعتها وتسأل عمن كانت تعرف منهم سواء كان معها أم عليها،

وقد غشيها الناس وهي في دار ابن خلف، «فكلما نعي لها منهم واحد قالت: «يرحمه الله». فقال لها رجل من أصحابها: «كيف ذلك؟!» قالت: «كذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلان في الجنة وفلان في الجنة[٢]». وقولها لهذا ضارع قول علي السابق: «إني لأرجو أن يكون أحد من هؤلاء نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة». وهكذا اجتمع رأي الفريقين على حسن الظن بالله وتمني الخير للجميع.

أقبل وجوه الناس على عائشة مسلمين — وعلي في عسكره بعد — وكان في أول الداخلين عليها: القعقاع بن عمرو، فسلم عليها، فقالت: «إني رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي

---

(١) أم طلحة الطلحات بن عبد الله بن خلف — الطبري ٥٣٩/٣.

(٢) الطبري ٥٤٢/٢ وقد روى عقب ذلك بسنده إلى علي بن أبي طالب: «ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم آية هي أفرح له من قول الله عز وجل: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير). فقال صلى الله عليه وسلم: (ما أصاب المسلم في الدنيا من مصيبة في نفسه فبذنب، وما يعفو الله عنه أكثر، وما أصابه في الدنيا فهو كفارة له وعفو عنه: لا يعتد عليه فيه عقوبة يوم القيامة، وما عفا الله عنه في الدنيا فقد عفا عنه، والله أعظم من أن يعود في عفوه»).

www.alkottob.com

واتجزا بكذا، فهل تعرف كوفيك منهما؟» قال: «نعم، ذاك الذي قال: (أعق أم نعلم؟) وكذب والله إنك لأبر أم نعلم ولكن لم تطاعي» فقالت: «والله لو وددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة».

وخرج فأتى عليا فأخبره بسؤال عائشة، فسأل علي: «ويحك من الرجلان؟» قال: «ذلك أبو هالة الذي يقول: كيما أرى صاحبه عليا» فقال علي: «والله لوددت أني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة». فكان قولهما واحدا[٣].

ومن طريف كره الأقارب بعضهم لبعض وتفرقهم على معسكرين متعاديين ما جرى بين أخي السيدة محمد بن أبي بكر أحد أقطاب جيش علي، وابن أختها عبد الله بن الزبير من كبار أصحاب الجمل، وهو في الوقت نفسه يدل على روح النكتة في السيدة وتحكمها بهذا الكره المميت يقع بين القريبين:

أوى عبد الله بن الزبير إلى دار رجل من الأزد مستخفيا، وقال له: «ائت أم المؤمنين فأعلمها بمكاني، وإياك أن يطلع على هذا محمد بن أبي بكر». فأتى عائشة فأخبرها، فقالت: «علي بمحمد» فقال الرجل: «يا أم المؤمنين، إنه قد نهاني أن يعلم به محمد» فلم تبال السيدة، فأرسلت إليه فجاءها فقالت له: «اذهب مع هذا الرجل حتى تجيئني بابن أختك». فانطلق معه، فدخل الأزدي على ابن الزبير وقال له: «جئتك والله بما كرهت، وأبت أم المؤمنين إلا ذلك». فخرج عبد الله ومحمد وهما يتشائمان: فذكر محمد عثمان فشتمه وشتم عبد الله محمدا؛ حتى انتهيا إلى عائشة في دار عبد الله بن خلف[٤]، حيث ضمت السيدة ابن أختها — وكان جريحا — في جملة من ضمت من الجرحى.

لبثت السيدة بالبصرة: يأوي إليها الخائف والمرتث يتسللون إليها فيجدون دارها حرما آمنا، ويجدون في كنفها الرعاية التامة.

وبعد انقضاء ثلاثة أيام على الموقعة، دخل علي بن أبي طالب البصرة يوم الاثنين فانتهى إلى المسجد فصلى فيه، ثم نزل فأتاه الناس، ثم قصد عائشة وقت الرواح يزورها ويسلم عليها، فركب

---

(٣) الطبري ٥٤٣/٣.

(٤) الطبري ٥٤١/٣.

www.alkottob.com

بغلته وانتهى إلى دار عبد الله بن خلف، فوجد النساء تبكي على عبد الله وعثمان ابني خلف[٥] مع عائشة، وصفية ابنة الحارث تبكي، فلما رأته صاحت:

«يا علي، يا قاتل الأحبة ومفرق الجمع، أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه» فلم يرد عليها شيئا، ووسعها حلمه وتجاوزه وتقديره الموقف، وتابع سيره حتى دخل على عائشة فسلم عليها وقعد عندها، وشكا فعل صفية فقال:

«جبهتنا صفية، أما إني لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم[٦]».

ولا يخفى على القارئ أن عليا في شغل عن مثل هذا الاستدراك في صفية، بما في نفسه من هموم؛ ولكن تغافل وعمد إلى التي هي أليق به وبمحتده النبيل.

فلما خرج علي أقبلت صفية وأعادت الكلام، فكف بغلته وقال: «أما لهممت (وأشار إلى الأبواب داخل الدار) أن أفتح هذا الباب وأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه، ثم هذا فأقتل من فيه». يشير إلى حيث كان الجرحى واللاجئون، وكان عالما بمكانهم فتغافل عنهم، فسكتت حينئذ صفية.

لقد تجاوز علي وكرم ونبل، وتكلف تجلدا وحلما... وفيما هو خارج، قال رجل من الأزد يريد قتل صفية: «والله لا تفلتنا هذه المرأة»، فغضب علي وقال: «صه»، «لا تهتكن سترا ولا تدخلن دارا، ولا تهيجن امرأة بأذى.... وإن شتمن أعراضكم وسفهن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف. ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات؛ وإن الرجل ليكافئ المرأة ويتناولها بالضرب فيعير بها عقبه من بعده، فلا يبلغني عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس[٧]».

مضى علي فلحق به رجل فقال: «يا أمير المؤمنين، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض لك شتيمة من صفية» قال علي: «ويحك، لعلها عائشة؟؟» قال: نعم، قام رجلان منهم على باب الدار، فقال أحدهما:

---

[٥] قتل عبد الله يوم الجمل مع عائشة، وأما أخوه عثمان فقتل مع علي، وهكذا فرق المذهب السياسي بين الأخوين فأنزلهما معسكرين متعاديين.

[٦] الكامل لابن الأثير ٣/١١٠.

[٧] الطبري ٣/٥٤٤.

www.alkottob.com

جزيت عنا أمنا عقوقا

وقال الآخر:

يا أمنا توبي فقد خطيت

فبعث القعقاع بن عمرو إلى الباب فأقبل بمن كان عليه، فأحالوا على رجلين فقال: «اضرب أعناقهما» ثم بدا له فقال: «لأنهكنهما عقوبة» فضربهما مئة مئة وأخرجهما من ثيابهما»[(٨)].

وظلت السيدة مدة مقامها بالبصرة راضية عن سيرة علي، فقد كانت خطته مع المخالفين خطة إجمال وكف وتغافل في الجملة، وخاصة مع السيدة نفسها، فقد صانها عن كل أذى ومكروه، ورعاها وكم الأفواه عن قولة السوء فيها، واشتد في ذلك على أصحابه حتى أمسكوا.

* * *

لعلك اشتقت إلى روايات ابن أبي الحديد الطريفة! فقد طال إمساكنا عن أخباره وإضرابنا عن قصصه؛ فها نحن أولاء مطلعوك على مشهد ممتع وحوار أمتع:

لما فرغ علي من القتال دعا بآجرتين: فحمد الله وأثنى عليه وخطب في أهل البصرة قائلا:

«يا أنصار المرأة، وأصحاب البهيمة! رغا فجئتم وعقر فانهزمتم، نزلتم شر بلاد، أبعدها عن السماء... الخ».

ثم نادى[(٩)] ابن عباس فأقبل إليه فقال له:

«ائت هذه المرأة فمرها أن ترجع إلى بيتها الذي أمرها الله أن تقر فيه». ثم تمثل:

إني زلت زلة فأعتذر
سوف أكيس بعدها وأنشمر
وأجمع الأمر الشتيت المنتشر

---

(٨) الطبري ٥٤٤/٣.

(٩) هكذا يريد بن أبي الحديد: نداء وصراخا على رؤوس الأشهاد.

www.alkottob.com

(قال ابن عباس) فجئت فاستأذنت عليها فلم تأذن لي، فدخلت بلا إذن، فمددت يدي إلى وسادة في البيت فجلست عليها، فقالت عائشة: «والله ما رأيت مثلك يا بن عباس! تدخل بيتنا بلا إذننا، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا؟»، أخطأت السنة مرتين».

فقلت: نحن علمناكم السنة[١٠] والله ما هو بيتك، وما بيتك إلا الذي خلفك رسول الله صلى الله عليه وسلم به وأمرك الله أن تقري فيه فلم تفعلي.

إن أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعي إلى بلدك الذي خرجت منه».

قالت: «رحم الله أمير المؤمنين، ذاك ابن الخطاب».

قلت: «وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب».

قالت: «أبيت أبيت....».

قلت: «ما كان إباؤك إلا فواق[١١] ناقة، ثم صرت ما تحلين ولا تمرين، ولا تأمرين ولا تنهين، وما كنت إلا كما قال أخو بني أسد:

ما زال إهداء الصغائر بيننا نث الحديث وكثرة الألقاب
حتى نزلت كأن صوتك بينهم في كل نائبة: طنين ذباب»

فبكت حتى علا نشيجها(!!!) ثم قالت:

«نعم أرجع، فإن أبغض البلدان إلي بلد أنتم فيه».

قال: «أما والله ما كان هذا جزاءنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أما، وجعلنا أباك لهم صديقا».

قالت: «أتمن علي برسول الله يا بن عباس؟».

قلت: «نعم، نمن عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا».

قال ابن عباس: «فأتيت عليا فأخبرته بما كان، فقبل بين عيني وقال: «ذرية بعضها من بعض»، «أنا كنت أعلم بك حيث بعثتك[١٢]» انتهت الرواية.

---

[١٠] هكذا في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٢/٢.

[١١] الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، لأنها تحلب ثم تترك سويعة يرضعها الفصيل لتدر، ثم تحلب – مختار الصحاح.

www.alkottob.com

أما الذي لا يمكن أن يقبله امرؤ ذو روية فما رواه المسعودي (المؤرخ الحزبي) فقد زعم أن عائشة قالت لعلي بعد خطب طويل كان بينهما: «إني أحب أن أقيم معك فأسير إلى قتال عدوك عند مسيرك». فقال علي: «بل ارجعي إلى البيت الذي تركك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٣]».

هذا خبر غير معقول البتة وهو مخالف منطق الحوادث: أمن تجييش الجيوش على علي، إلى القتال معه؟ أهكذا انقلابا فجائيا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بهذه الخفة والسرعة الخاطفة؟؟! ألا قليلا من العقل والروية أيها المؤرخون العصبيون!

* * *

ونعود – بعد هذه الاستجمامة المسلية – إلى التاريخ الجد:

جهز علي عائشة بكل شيء ينبغي لها من ركب وزاد ومتاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها إلا من أحب المقام، وأمر لها باثني عشر ألفا من المال[١٤]، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وقال لأخيها: «تجهز يا محمد فبلغها[١٥]».

---

(١٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٨٢/٢ وانظر العقد الفريد ١٠٣/٣ واليعقوبي ٢١٣/٢. ولقد كان هذا الخبر – إن صح – أجدر أن يوجد في الطبري. وأرجح أنه راج بعده (مات الطبري سنة ٣١٠ هـ) ولعله علم بن وأهمله لكذبه. ومن أمعن في هذه الأقوال استبعد صدورها عن مثل ابن عباس، فليس مما يرضاه ذوق أن تجابه امرأة مهزومة بمثل عائشة مكانة وحرمة. والخبر مصنوع بأداة حزبية عصبية، وإلا فابن عباس أصح عقيدة وأتقى لله من أن ينسب إلى أسرته ما هو من صنع الله، وكل مسلم يعلم: أن زواج عائشة كان بوحي من الله، وأن صديقية أبي بكر كانت هداية من الله وحده، لا وساما تمنحه أسرة. وكل ما مر بك آنفا وما سيمر بك عاجلا من معاملة علي لعائشة ومخالفيه.... مبعد عن تصديق هذا الخبر الروائي. لقد كان ابن أبي الحديد (أو صناع بعض أخباره على الأصح) في كثير مما يروي: الصديق الجاهل للإمام كرم الله وجهه، والمشهور من نبل علي ودينه وسمو خلقه... يجعل المنصفين يضربون بكثير من هذه الروايات عرض الحائط. وقريب منه في ذلك ابن عباس.

(١٣) مروج الذهب ٩/٢.

(١٤) بلغ ذلك عبد الله بن جعفر (ابن أخي علي) فاستقل المبلغ، وأخرج لها مالا عظيما وقال: «إن لم يجزه أمير المؤمنين فهو علي».

(١٥) ذكر اليعقوبي أن عليا وجه معها سبعين امرأة من عبد القيس في ثياب الرجال حتى وافوا بها المدينة». وهي رواية غريبة لم أجدها في مصدر... إلا عند صاحبنا المسعودي، فقد كان أكثر إغرابا وإطرافا وإضحاكا، قال: «خرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها علي أخاها عبد الرحمن بن أبي بكر (كذا) وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما: ألبسهن العمائم وقلدهن السيوف وقال لهن: «لا تعلمن عائشة: أنكن نسوة كأنكن رجال، وكن اللاتي يلين بخدمتها، وحملها، فلما أتت المدينة قيل لها: «كيف رأيت مسيرك؟» قالت: «كنت بخير، والله لقد أعطى علي بن أبي

www.alkottob.com

الوداع الجميل

لما كان اليوم الذي ترتحل فيه جاءها علي حتى وقف لها وحضر الناس من الفريقين، فخرجت عليهم فودعوها وودعتهم وقالت: «يا بني، لا يعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك».

وبهذا كانت أما للجميع، سمت على كل ما كان بينهم، و لم يبق إلا هذه الأمومة البارة الحانية التي وسعت عليا وأنصاره وأعداءه. إني لأقرأ هذه الجملة من خطابها للجماهير المودعة فأتخيل القلوب تنقطع حسرة وندامة، والدموع تطفر في العيون ساعة الوداع وقد ملأ صدر كل من المودعين حنو ومحبة لإخوانه عامة، لقد أعداهم نبل السيدة فأصبحوا جميعا في هذه الساعة متآلفين.

ثم التفتت إلى الجماهير تخبرهم بما تكن لعلي من تقدير لم يقلل منه شيئا ما كان بينهما من جفاء، فواصلت قولها:

«إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندي على معتبتي لمن الأخيار».؟

وقال علي:

«أيها الناس، صدقت والله وبرت، ما كان بيني وبينها إلا ذلك؛ وإنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة[١٦]».

ورحم الله البحتري، لكأنه يعني هذا الوداع حين قال:

إذا احتربت يوما ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها

على هذا تم الوداع الجميل، وخلت القلوب مما علق بها، على أحسن ما ينبغي أن تكون قلوب المسلمين عليه.

طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالا؟؟» فعرفها النسوة أمرهن، فسجدت وقالت: «ما ترددت والله يا بن طالب إلا كرما، وددت أني لم أخرج وإن أصابتني كيت وكيت ...(من أمور ذكرتها). وإنما قيل لي: تخرجين فتصلحين بين الناس، فكان ما كان...» – مروج الذهب ٢/١١، وهذا الصنيع أليق بمخرج رواية فكاهية منه بخليفة غارف في الهموم والشدائد.

(١٦) الطبري ٣/٥٤٧.

www.alkottob.com

وخرجت بموكبها يوم السبت لغرة رجب سنة ست وثلاثين للهجرة، وشيعها علي رضي الله عنه أميالا، وسرح بنيه معها يوما.

توجهت السيدة إلى مكة، وقد فصل من معها كمروان وأبي الأسود بن البختري إلى المدينة من الطريق، وأقامت بمكة إلى الحج، ثم رجعت إلى المدينة بعد طول غياب.

www.alkottob.com

الباب الرابع

وقفة عند حرب الجمل

الفصل الأول

العوامل القريبة والبعيدة

- ١ -

هذه أول معركة يقف فيها المسلم للمسلم وقفة العدو: يسدد إليه سهامه ويصوب سلاحه يريد إزهاق روحه، وتيتيم أطفاله وترميل نسائه، بعد أن جمعهما الإسلام وآخى بينهما وحبب إلى كل منهما إيثار أخيه على نفسه. فكانت أشأم سابقة، هان بعدها أن تسفك الأمة الواحدة بعضها دم بعض، وأن تجعل بأسها بينها وتقوي بذلك عدوها عليها. ولقد رأيت أن كثيرا من أعلام الصحابة الأجلاء كعبد الله بن عمر وأبي موسى الأشعري وسعد بن أبي وقاص وغيرهم... اعتزلوا الفتنة كلها وكانوا صلابا في هذا الاعتزال، ما لانت لهم عريكة ولا ضعفت شكيمة، ولعلك لمست في موقفهم شيئا من الغلو، أو لعل نفسك حدثتك به؛ فاعلم الآن أو أولئك الأعلام كانوا على بصيرة من أمرهم لم تستفزهم الحادثات و لم يستخف أحلامهم ما يستخف الرجال، وأنهم ذكروا ما نسيه غيرهم: لقد ذكروا في ذلك آيات وأحاديث اقشعرت لها أبدانهم، وخشعت عند ذكرها نفوسهم فاستحضروا الهول المنتظر من الفتنة فأمسكوا.

وحسبك لتستشعر ما استشعروا من الهول هذه الأقوال يرويها أجلاؤهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعظم فيها على المسلمين دماءهم وأن يعودوا إلى أمر الجاهلية يستحل بعضهم دم بعض وماله:

١- روى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب الناس فقال:

www.alkottob.com

«ألا تدرون أي يوم هذا... أليس بيوم النحر؟ (قلنا: بلى يا رسول الله) قال: أي بلد هذا أليست بالبلدة (الحرام)؟ (قلنا: بلى يا رسول الله)، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا... ألا هل بلغت؟ (قلنا: نعم) قال:

«اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب[1]».

٢- وروى عبد الله بن عمر هذين الحديثين:

«من حمل علينا السلاح فليس منا»،

«لا ترجعوا بعدي كفارا: يضرب بعضكم رقاب بعض[2]».

٣- وروى أبو هريرة:

ستكون فتن: القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به[3]».

٤- وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». قيل: «يا رسول الله، هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟» قال: «كان حريصا على قتل صاحبه[4]».

بل إن رسول الله ذكر لهم هذا الوعيد في أقل من القتل فقد روت بريرة عنه قوله:

٥- «إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها، على محجمة دم يريقها من مسلم[5]».

---

[1] صحيح البخاري: كتاب الحج ٢٥ الباب ١٣٢ ص ٤٣٦ و٤٣٥ من الجزء الأول (طبع ليدن).

[2] الصفحة السابقة ج ٤ ص ٣١٥.

[3] المصدر السابق ٢٨٢/٢- فكان أبو بكرة (وهو الذي روى الحديث الأول وروي عنه أيضا الحديث الثالث والرابع) شديد التمسك بوصية الرسول هذه فاعتزل الخلاف كله. وأكثر من ذلك أنه خط لنفسه ألا يرد العدوان إن اعتدى عليه أحد: ذكر الإمام أحمد بعد روايته الحديث الأخير عن ابنه عبد الرحمن أنه لما كان يوم حرق ابن الحضرمي (أحرقه جارية بن قدامة أشرفوا على أبي بكرة... فقال لزوجه: «لو دخلوا علي ما بهشت (مددت يدا) إليهم بقصبة». مسند أحمد ٣٩/٥.

[4] صحيح البخاري ٣١٧/٤ وانظر منهاج السنة ١٨٦/٢.

[5] يعني: بغير حق — والحديث في الصحيح ذكر الزركشي في كتابه (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ص ٤٢.

www.alkottob.com

وبعض هذا كاف في ردع أقسى القلوب. وهو يكشف لك السر فيما مر بك من اجتهاد الفريقين في الصلح وفي البعد عن بدء القتال، وأنهما أخلصا الرغبة في العافية والسلامة، لولا مؤامرة الأشرار ولولا أن الله قضى أمرا فكان.

– ٢ –

كانت الخلافة أول ما غيرت القلوب بعضها على بعض. ولئن اشتهر بين الناس أنها فرقت الأمة منذ حرب الجمل حتى اليوم، فإن البوادر السيئة نجمت قبل ذلك. ولكن كانت للدين صولته في النفوس، وكان الناس حديثي عهد بالنبوة وهديها، فكبحهم دينهم أن يرخوا لأهوائهم أعنتها. وإلا فخلاف المهاجرين والأنصار يوم السقيفة، وتلكؤ بني هاشم عن بيعة الصديق، وإبطاء العباس وتأخر علي عن المبايعة ستة أشهر حتى ماتت فاطمة... كل هذه تشعر بطموح بعض الأصحاب إلى الخلافة. حتى إن أبا بكر نفسه تمنى في احتضاره أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لمن هذا الأمر من بعده» حتى لا يكون فيه نزاع[٦]. وكان طموح بعض الأصحاب إلى الأمر حين عهد الصديق إلى عمر، أشد على الصديق من سكرات الموت وآلامها:

دخل عبد الرحمن بن عوف علي أبي بكر في علته التي مات فيها فقال: «أراك بارئا يا خليفة رسول الله» فقال أبو بكر (وتأمل ما قال):

أما إني على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علي من وجعي:

إني وليت أموركم خيركم في نفسي (يريد عمر بن الخطاب)، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه. والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير، ولتألمن النوم على الصوف الأربي كما يألم أحدكم النوم على حسك السعدان. والذي نفسي بيده: لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه في غير حد، خير له من أن يخوض غمرات الدنيا (وأنتم أول ضال بالناس غدا فتصدونهم عن الطريق يمينا وشمالا):

يا هادي الطريق حرت، إنما هو والله الفجر أو البحر....».

فقال عبد الرحمن وقد تفطر قلبه لتأثر الصديق التأثر العنيف في آخر لحظاته في الدنيا:

---

[٦] الطبري ٢/٦٢٠.

www.alkottob.com

«خفض عليك يا خليفة رسول الله فإن هذا يهيضك إلى ما بك، فوالله ما زلت صالحا مصلحا[٧]... الخ».

– ٣ –

سلك عمر مع قريش — وهم أشبه بالأسرة الحاكمة — سياسة فيها من المضاء والحزم بمقدار ما فيها من نفاذ البصيرة وبعد الغور والغوص على خبايا النفوس ونواياها. لقد أخذهم أخذا صارما «فحجر على أعلامهم من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل، فشكوه، فبلغه، فقام فقال:

«ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير: يبدأ فيكون جذعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سديسا ثم بازلا، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان؟ آلا فإن الإسلام قد بزل، ألا وإن قريشا يريدون مال الله معونات دون عباده، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا!!.

إني قائم دون شعب الحرة فآخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار[٨]».

وكذلك فعل رضي الله عنه، فقد رأى بعين بصيرته أن هؤلاء الطيبين الأخيار من أجلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يئس منهم الشيطان أن يعبدوه، وأبلوا في نصرة الإسلام وتمكينه في الأقطار أحسن البلاء، وصبروا في سبيل ذلك على شظف العيش وكلب العدو وحرمان الطيبات صبرا كانوا فيه مضرب الأمثال رجولة وقوة وتشميرا. ولن يحيد بهم عن الطريق السوي إلا الغنى والترف، فكان عمر أحرص على سلامة هؤلاء الأصحاب وعافيتهم، فحال دون خروجهم إلى الأمصار ومعاينة بهارج الدنيا ومفاتنها. ولبث عمر على خطته تلك حتى ملوه وملوا المدينة حيث ألزمهم سكناها لا يخرجون منها إلا بإذن وأجل.

---

[٧] الكامل للمبرد ١/٥ (مطبقة الاستقامة سنة ١٣٦٤هـ) وتاريخ الطبري ٢/٦١٩- ورم أنفه: امتلأ غضبا. الصوف الأذربي: نسب إلى أذربيجان: السعدان: نبات شائك. البجر: الشر والأمر العظيم، والمعنى - على ما ذكره المبرد - إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه. وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييزها أهلها. هيض العظم. إذ جبر ثم أصابه ما يعنته فآذاه- الكامل ١/٧.

[٨] الطبري ٣/٤٢٦- الجذع: الجمل دخل في السنة الخامسة. والشيء: الذي دخل في السادسة، والرباعي: الذي دخل في السابعة، والسديس في الثامنة. والبازل الذي بزل (خرج) نابه وذلك في التاسعة. الحجز: الأوساط.

www.alkottob.com

وكان عمر يصارحهم دون غمغمة، ويقول لهم: «إن أخوف ما أخاف عليكم انتشاركم في البلاد[٩]». ويأتيه الرجل منهم يستأذنه في الغزو «وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين — و لم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة — فيقول: قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك (يكفيك)، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك».

وبذلك جمع رؤوس الناس وزعماءهم في قبضته حيث يشرف منهم على سرهم وعلانيتهم، ويطأ على أصمختهم فلا تحدث أحدا منهم نفسه بإفلات من قبضته، وبقوا على شاكلتهم تلك لا يجدون عنها متقدما ولا متأخرا قد كفوا شر الناس وفتنتهم.

وكانت خطة عمر — على شدتها الظاهرة وقسوتها — تنطوي على رحمة واسعة بالناس وبالمهاجرين معا، فإن انتشار هؤلاء الفحول في الأمصار يشترون الضياع ويقتنون العبيد وتتبعهم الجماهير ... أخطر الأمور على هذه الألفة التي ربطت الجزيرة من أطرافها، وعمر أخوف الناس على الوحدة أن تتصدع، وهذا الشمل أن تفرقه الزعامات. ولقد اخترق — رحمه الله — حجب الغيب ببصيرته، وكأن الله ألقى أمام عينه ما سيكون من أصحابه، فأدركه لذلك قلق وهم لم يفارقاه قط، وملأ الإشفاق على هذه الأمة قلبه حتى لم يكن ليستطيع إخفاءه:

لما حملوا إليه بالمدينة الأخماس من غنائم (جلولاء) وكانت شيئا عظيما قال عمر:

«والله لا يجنني سقف بيت حتى أقسمه». فبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد، فلما أصبح جاء في الناس، فكشف عنه جلابيبه وهي الأنطاع، فلما نظر إلى ياقوته وزبرجده وجوهره... بكى، فقال له عبد الرحمن: «ما يبكيك يا أمير المؤمنين فوالله إن هذا لموطن شكر»، فقال عمر: «والله ما ذاك يبكيني، وتالله ما أعطى الله هذا قوما إلا تحاسدوا وتباغضوا، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم[١٠]».

لقد كان عمر من أعوى الناس لما يحذرهم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تقرع أذنه وصايا الرسول لأصحابه الأخيار:

---

[٩] الطبري ٣/٤٢٦.

[١٠] الطبري ٣/١٣٧.

www.alkottob.com

«إنما أخشى عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من بركات الأرض[11]».

«... والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم[12]».

«... إني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم[13]».

و لم تمض على وفاة الرسول ﷺ ثلاثون سنة حتى وقع ما كان خشيه وحذر منه أصحابه.

وقد ألهم عمر — رحمه الله — أن الشقاق سيكون بين علي وعثمان وطلحة والزبير، والمؤرخون يذكرون أنه قال لهم بعد أن أوصى أن يكون الأمر شورى بينهم: «إني قد نظرت لكم في أمر الناس فلم أجد عند الناس شقاقا إلا أن يكون فيكم، فإن كان شقاق فهو فيكم[14]».

ولأمر ما أمر أبا طلحة الأنصاري أن يقوم على باب البيت الذي يجتمع فيه أصحاب الشورى في خمسين من قومه، حتى إذا اجتمع ثلاثة (فيهم عبد الرحمن بن عوف) على خليفة، وخالف ثلاثة، شدخ أبو طلحة رؤوس المخالفين بالسيف».

نجا عمر من خلاف القرشيين بهذه (الإقامة الإجبارية) التي أخذهم بها، فحال بينهم وبين الشر مدة حياته.

فلما مات عمر وولي عثمان، تغاضى عن أخذهم بما أخذهم به عمر، ولان جانبه ورقت حاشيته لهم «فانساحوا في البلاد، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس... انقطع إليهم المغمورون من الناس، وصاروا حاشيتهم وأتباعهم، وأملوهم وقالوا في أنفسهم: «غدا يؤول الملك إلى هؤلاء فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم[15]» وبذلك وجد الوهي مسارب إلى وحدة الأمة وطفق يوغل فيها حتى كان ما عرفت.

---

(11) الجامع الصحيح للبخاري ك ٥٦ ب ٣٧.

(12) المصدر السابق ٢/٢٩٢، ٢٢١.

(13) رياض الصالحين ص ٦٠٥، ٦٠٦.

(14) الطبري ٣/٢٩٤ وابن عساكر.

(15) الطبري ٣/٤٢٦ و٤٢٧ بتصرف يسير.

www.alkottob.com

والغريب أن القرشيين هؤلاء بعد طول الكبت، سرعان ما أوغلوا في البلاد حين أفرج عنهم عثمان، وضربوا في الأرض «واتخذ رجال منهم بعد سنة من إمارة عثمان أموالا في الأمصار وانقطع إليهم الناس.... وكان كل قوم يحبون أن يلي الأمر صاحبهم[١٦]» إن حدث بالخليفة القائم حدث، وبذلك وجدت أحزاب وشيع سياسية كل حزب له زعيمه المفضل: يدعو له ويرجو أن يؤول الأمر إليه، ابتغاء مكافأته لهم في الغد: على ما يحطبون في حبله اليوم ويروجون دعوته.

– ٤ –

للإمام الطبري نظرات صائبة عميقة يبثها في مطاوي تاريخه الكبير، قل أن يفطن إليها لندرتها ولضياعها في هذا الخضم الزاخر بالروايات والأسانيد. هذه النظرات يكشف فيها عن سر خفي من حوافز الجماهير، أو يغوص بك فيها على دخائل النفوس مما لا يهتدي إليه الفطن اللقن الملهم.

ونظرته التي أعرضها الآن تجعله مؤرخا محدثا من هؤلاء المؤرخين العصريين الذين يفسرون التاريخ تفسيرا ماديا، فقد ألقى إلى القارئ ما يفيد أن أهم العوامل في فتنة الجمل وتهيئة الأفكار للثورة هو العامل الاقتصادي وإليك البيان:

كان لأهل السابقة من المهاجرين والأنصار والمجاهدين الأولين ممن حضروا فتح فارس غنائم وافرة جدا: لقد حارزا عنوة كنوز كسرى وهي عظيمة يهول الحاسب إحصاء ذهبها وفضتها وياقوتها وزبرجدها وديباجها وحريرها... فعظمت سهام المجاهد منهم وملك الأرضين؛ إلا أنهم فيما بعد، أقاموا بالحجاز وأموالهم بالعراق تأتيهم غلتها، وودوا لو وجدوا سبيلا إلى أن تكون أموالهم وإياهم. فلما كانت سنة ثلاثين عرض عثمان هذه الأسهم من الأرضين التي أفاءها الله على المجاهدين بالحجاز على البيع، فابتاعها أغنياء الصحابة كطلحة والزبير وغيرهم. وفرج الله بذلك عن الناس، فصار الحجازي يبيع سهامه بالعراق ويشتري بثمنها عقارا في بلده، وأصبح الناس في سعة من أمرهم. فباع طلحة مثلا «عامة سهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك، واشترى بهذه الأموال من نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن أقام و لم يهاجر

---

[١٦] انظر الحاشية السابقة.

www.alkottob.com

إلى العراق[١٧]» وكان طلحة واسع الغنى فصار له ولأمثاله الأرضون الواسعة في العراق، وفعل فعله رجال من كل قبيلة فصار أكثر العراق ملكا لعدد من المجاهدين الأولين وكانوا بذلك أشبه (مع الفارق) بأصحاب الإقطاع. وظل أغلب الأهلين أصحاب البلاد السابقين فقراء لا ملك لهم، ولم يفدهم إسلامهم المتأخر — من هذه الناحية فقط — شيئا؛ إذ كانت الأرضون قد قسمت على الجنود الفاتحين، فكان في نفوسهم من ذلك شيء لا يخفى على القارئ؛ فيصف الطبري هذه الطبقة الناقمة وحالها بقوله:

«....إلا أن الذين لا سابقة لهم ولا قدمة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقدمة في المجالس والرياسة والحظوة. ثم كانوا يعيبون التفضيل (يريد في العطاء) ويجعلونه جفوة، وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لأنه لا حجة لهم والناس عليهم. فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشى أو أعرابي أو محرر، استحلى كلامهم، فكانوا في زيادة وكان الناس في نقصان حتى غلب الشر».

مرت بك هذه الملاحظة في إحدى الحواشي (ص) وأعدتها هنا لخطرها وبعد أثرها في كل ماوقع، أما شرحها فقد سبقها ولعلك لم تنسه، إنه في تفاصيل الحوادث التي مرت بك حين شرح حركة عبد الله بن سبأ. وينبغي ألا يهمل — في تعداد العوامل — نقمة الرعاع وطموحهم، واستغلال أبطال الشر تلك النقمة وهذا الطموح؛ فقد كان إسلام كثير منهم مدخولا، وكان حنينهم إلى نظمهم البائدة ونحلهم القديمة مكبوتا خفيا، ثم كان هذا الحرمان الذي يشعرون بمرارته إزاء غنى واسع يرتع في بحبوحته الأبطال الفاتحون.

والطريف أن هذه الملاحظة لم تكن لتخفى على البصراء حينئذ وإن لم ينتفعوا بها، إلا أن مؤرخينا لم يهتموا بالتنبيه إليها اهتمامهم بسرد الحوادث نفسها، فمرت خافية مستكنة في طنين الحوادث وزحمتها: لا فيها هي ما يلفت النظر العادي، ولا المؤرخون احتفلوا بها فأبرزوها، وقد طالعتك أنت نفسك فلم تلتفت إليها في أغلب الظن، طالعتك في عبارة تقدمت من كلام الإمام علي (ص ١٧٢) إذ فطن إلى ما يحفز الرعاع على الثورة فقال مشيرا إلى قتل عثمان:

---

[١٧] الطبري ٣/٣٣٣.

www.alkottob.com

«... ثم حدث هذا الحدث الذي جره على هذه الأمة أقوام طلبوا هذه الدنيا: حسدوا من أفاءها الله عليه على الفضيلة، وأرادوا الأشياء على أدبارها والله بالغ أمره ومصيب ما أراد...».

ولعلك لم تنس أيضا عن السبئيين – وهم جند علي – خلصوا بعد سماع هذا الكلام نجيا يأتمرون، وكان في جملة الحلول التي اقترحت في هذه المؤامرة قتل علي نفسه إذ فطن إلى شرورهم، وآنسوا منه عزيمة على ملاقاة الشر بمثله، ثم أجمع رأيهم على إنشاب القتال لعلهم يستريحون من رؤوس المهاجرين السابقين جميعا.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

في توزيع التبعات

الآن، وبعدما تقدم، نستطيع إرسال القول فيما يخص كلا من تبعة هذه الحرب المشؤومة، وقد تقدم كثير من الأحكام في حينه ومناسبته، ولا بأس في ضم ذلك وإجماله وقد انتهيت من تفاصيل الحوادث التي سنشير إليها إشارة، فنقول:

إن الذي يحمل شر هذه الفتنة مباشرة هم الذين حملوا إثم قتل عثمان والتأليب عليه، فالسبئيون هم الذين ائتمروا بالجيشين وقد أشرفا على الصلح وأسرعوا فباغتوا الطرفين بإنشاب القتال، وأعجلوهما عن التروي والتثبت، فعليهم إذن وحدهم جريمة هذه الألوف الخمسة عشر من الدماء المهراقة، كما كان عليهم وحدهم إثم قتل عثمان مباشرة.

فإذا بلغنا من عليهم التبعات الثانوية (غير المباشرة) ممن قصر أو أخطأ في اجتهاده أو انصاع إلى طموح نفسه أو غلبته منافسته لأخيه، وجدنا ترتيب أنصبائهم من التبعة في حرب الجمل على ترتيبها في الحملة على الخليفة عثمان رحمه الله: من غش له استئثارا بالمنافع، أو تقصير في حقه، أو خذلان له أو مجاهرة بنقده. فأوفاهم نصيبا منها — فيما أرى — الأمويون ثم طلحة فالزبير فعائشة فعلي:

أما الأمويون فقد كانوا استغلوا قرابة عثمان — على ما عرفت — أسوأ استغلال، وأبدلوه بما كان يجب له عليهم من المناصحة والعفة: احتكارا للأعمال، واستئثارا بالأموال، وإبعادا لمن كرهوا من أهل الكفايات، حتى كانت أعمالهم هذه أشد ما أرث الشر على عثمان. فلما أن قتل انسلوا من أطراف البلاد واجتمعوا بمكة بعددهم وعددهم وما حملوا من أعمالهم من أموال الله: ينفخون في الشر ويحرضون على الطلب بدم عثمان، ويستغلون أهواء كل من أحسوا منه كرها لعلي أو منافسة له، وأظهروا ذلك كله وأضمروا من ورائه أمرا آخر: قتل طلحة والزبير ورؤوس

www.alkottob.com

الناس من سواهم، وودوا أن يقتل غيرهم عائشة... ليخلص لهم الأمر ويرجع في بني أمية وقد خلت الأرض من منافس لهم.

ولقد عرفت أن يعلي بن منية أنفق أموال اليمن في هذه الحرب، وحفظ له الأمويون هذه اليد، وأدرك معاوية بعد أن آلت إليه الخلافة أنه مدين بخلافته لهذه الأموال، فيذكرون أنه أعطى زيد بن منية (أخا يعلي بن منية) ثلاثين ألفا لقضاء دينه، فلما ولي قال معاوية «وليوم الجمل ثلاثين ألفا[1]»!!.

بل إن يوم الجمل للأمويين هو اليوم الذي كان لهم ما بعده بحيث تولوا من قاتلوا فيه عليا وكافؤوهم، و لم يغتفروا لمن قصر فيه بله من كف، هذا معاوية وقد صار خليفة يدخل عليه الأحنف بن قيس سيد أهل البصرة فيجبهه بهذا القول: «أنت الشاهر علينا السيف يوم صفين، والمخذل عن أم المؤمنين؟!»[2].

وأكاد أجعل الأمويين (ورأسهم في هذه الفتنة مروان) حلقة وسطى تلي السبئين أصحاب التبعة المباشرة في هذه الدماء.

وأما طلحة، فكما كان أشد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم على عثمان[3]، كان هنا أيضا أشد الناس على علي وأكرههم لخلافته وأوفرهم سعيا في التأليب عليه، وأطولهم يدا في تحريض الجماهير على المطالبة بدم عثمان وسوقهم إلى البصرة وقد علم: أن إقامة الحدود من حق الإمام لا حق الغوغاء، وأن أولياء عثمان – وليس هو منهم – أولى منه بهذه الدعوى، وأن هذا الطلب لم يكن في وقته المناسب، وأن ثمرته إضعاف أمر علي لا الثأر الحقيقي لعثمان.

وأما الزبير فأمره قريب من أمر طلحة وإن لم يبلغ مبلغه في لدد الخصومة والقوة فيها ولعل ابنه عبد الله أوفى منه نصيبا من التبعة.

وأما السيدة عائشة: فنقدها عثمان كان أشد عليه لما لها من الحرمة الإجلال ونفاذ الكلمة، وقد عرف الأمويون وطلحة والزبير ما يكون لدعواهم من القوة إذا نهضت بها معهم عائشة،

---

(1) المستجاد من فعلات الأجواد طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ص ١٢٠.

(2) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٧/٨.

(3) كلمة محمد بن سيرين – انظر العقد الفريد ٨٦/٣.

www.alkottob.com

وعرفوا ما تكن من الكره لخلافة علي، فما زالوا يفتلون لها في الذروة والغارب حتى نهضت لما أنهضوها وحملت من هذه الفتنة نصيبها.

وأنا أقطع أن الأمور لم تكن لتصل إلى العاقبة السيئة التي رأيناها لو غابت عائشة عن فتنة الجمل، ولقد عرف علي مصيبته فيها حق المعرفة حين قال: «حاربت خمسة، أطوع الناس في الناس: عائشة[٤]». لقد كانت السيدة لهذه الفتنة – من حيث لا تريد[٥] – روحها، وكان مقامها فيها أقوى ما حفز الجماهير على التطوع لها وعلى تهافتهم على الاستماتة بين يدي جملها. لقد كان في طبعها ولوع عظيم بالبطولة وإعجاب بالشجاعة ومقت للجبن، لذلك لم تكن تنفك عن تحريض الناس، وتقوية قلوبهم، وكان لهذا التحريض والتقوية أثرهما البالغ في الاستماتة بين يديها على ما مر بك، ولقد أثر عنها قولها: «إن لله خلقا قلوبهم كقلوب الطير: كلما خفقت الريح خفقت، فأف للجبناء».

هذا وقد أكثر لها الناصحون من أخواتها أمهات المؤمنين، وأصحاب رسول الله الأجلاء، وعقلاء أهل المصرين البصرة والكوفة، فلم تستجب لنصح أحد ونفذ قضاء الله. والله سبحانه أعفى النساء من الدخول فيما هو من شأن الرجال، فلم يكلفهن سياسة، ولا إدارة، ولا إثارة جماهير، ولا تجييش جيوش، ولا تأليبا على الخلفاء، فإن باشرن شيئا من هذا كان ذلك هو الفتنة عينها، وكان المجتمع حينئذ يعالج داء دخيلا في كيانه ينذر بالشر المستطير. وسترى بعد قليل أن السيدة ذاتها حكمت على نفسها هذا الحكم، ورأت أنها أتت أمرا إدا لا يغتفر.

وأما علي، فالحق أنه لا يحمل هنا من التبعة شيئا، لقد فر من الشر فرارا: صبر عليه، وطاوله، وغاب عن وجهه والشر يلاحقه، وكان أكره الجميع للفتنة ولإراقة الدماء؛ لكن المحافظة على وحدة الأمة وواجب القضاء على الفتن – وهما من آكد واجبات الخليفة – ألزماه المبادرة إلى المخالفين، فأرسل الرسل والمفاوضين وبذل من نفسه خير ما يبذل امرؤ بعيد عن الشر هراب منه، وقد وجه الفريقين إلى الصلح حتى كاد يتم لولا عنصر الشر في جيشه: السبئيون.

فإن يكن من تبعة تلزمه فهي فيما قاله المرحوم عبد الوهاب النجار:

---

[٤] انظر التتمة في الأمالي لليزيدي ص ٩٦ وقد مر بك بلفظ آخر ص ١٧٨.

[٥] لعلك لم تنس قولها الذي مر بك ص ١٨٨ (الحاشية ٢) «وما برأيي خرجت مع هؤلاء».

www.alkottob.com

«على أن عليا لم يكن القوي على جنده. المالك لزمام عسكره، الحذر لكل ما يخاف، الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم. ولقد كان عمر بن الخطاب — وهو بالمدينة — واقفا على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وإرمينية والشام ومصر وتخوم الروم: لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم. ولكن عليا كان تاركا لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الأمور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين، حتى لقد كان في ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمهما ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين، وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يريدون. ولو كان من الضبط لأمره والحيطة في شؤونه بالمكان الذي يجب أن يكون به ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال[٦]».

وهذا أشبه باحق وليس الحق كل الحق، إذ ما تصح موازنة بين عمر وعلي وقد اختلفت (ظروفهما) الاختلاف كله. فأين عهد الثورات والخلاف والتناحر والفتن والأطماع من عهد الاستقرار والوحدة والزهد والطاعة. على أن الحزم — لو إليه سبيل — كان يقضي على علي أن يبث عيونه على هؤلاء الدساسين ذوي النيات الخطرة، ولم يكن علي يجهلهم ولكن الأمور انتشرت عليه كما رأيت. والنصفة تقضي على المؤرخ أن يحيط بكل ما لابس الحادثة من (ظروف) قبل أن يصدر فيها حكما.

وبذلك تدرك أن حكم الأستاذ النجار الآتي بعيد عن الصواب أيضا، قال:

«لم يكن عند علي من الأناة وحسن التأني للأمور ما يتألف به الشارد، ويسلس به قيادة الجامح. ولو أنه أرضى الرجلين (يريد طلحة والزبير) ببعض ما في يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثرا في العاقبة وأرجى للسلامة. وقد أورد صاحب الإمامة والسياسة أن عليا حين أحس بما في نفس طلحة والزبير، استشار ابن عباس فأشار عليه أن يولي طلحة البصرة والزبير الكوفة، فأبى إشفاقا منه أن يؤلبا عليه الناس، حتى إذا اتسق له صنع ما أراد، لكان ذلك أحسن في السياسة وأحقن للدماء[٧]» اهـــ.

---

[٦] تاريخ الإسلام: الخلفاء الراشدون ص ٤١١.

[٧] الصفحة السابقة.

www.alkottob.com

وعجيب أن يصدر المرحوم الشيخ النجار مثل هذا الحكم والحوادث بين يديه ناطقة بخلافه، فلئن عذرنا ابن عباس في خطئه حين أشار بتولية الرجلين: بأنه كان يصدر رأيا في أمور مغيبة عنه، أنا لا نجد للشيخ النجار هذا العذر. لقد كان حدس علي صادقا، ولقد دلته بصيرته على الخطر في توليتهما، إنه لو فعل لألبا عليه العراق بالرجال والأموال، فكلاهما طامح إلى الخلافة منافس لعلي فيها. وليس يصح في السياسة إلا ما فعل علي من إبقائهما إلى جانبه وزيرين يستعين بهما.

إني لم أجد في مآتي علي ما أعده خطأ أو تقصيرا (مئة في المئة كما يقول الرياضيون) إلا غفلته عما يدب في جيشه من مؤامرة، وإلا ضعفه عن قتلة عثمان لما كانوا في المدينة. نعم، لقد اعتذر علي بغلبتهم على المدينة — وهذا صحيح بعض الصحة — وطلب من طلحة والزبير وغيرهما أن يثوروا بهم فإن عجزوا فهم غدا أعجز، فلم يفعلوا، إلا أن الواجب كان يقضي على علي — والنفوس قتلها الحزن على عثمان وملأها الغضب على الثائرين — أن يستنهض الناس ويوقع بالقتلة بمن نهض معه مهما قل عددهم، فإن أنصار القتلة متى رأوا الجد تهاونوا في نصرتهم لهم وتبرؤوا منهم، وبذلك يقضي على جراثيم الشر.

ولست أرى اللين بحال مع قتلة عثمان مهما كان شأنهم وبلغ عددهم: إذ إن في ذلك إضعافا لهيبة الخلافة وتهاونا في الحدود وإفسادا للناس... وأخرى أن المدينة خالية من الحامية دائما، وفيها أقطاب الناس، وهي مستودع القادة والقضاة والولاة والخلفاء؛ فإن تركناها هدفا لكل كتيبة ثائرة لم يبق للحكم شأن في النفوس، واضطرب النظام و لم تبق المدينة عاصمة، بل تنقلب بادية.

* * *

إن فيما مر بك من تفاصيل الموقعة لغنية عن إشعارك بفداحة الخطب، لقد كان هذا السيف مرفوعا عن هذه الأمة، فلما أعملته في نفسها بقي مسلطا على رؤوسها إلى يوم القيامة.

وليس شيء أدل على استفظاع الناس ما قامت عنه فتنة الجمل، من حال أصحاب الجمل أنفسهم: «لقد ندم طلحة وأصابته حيرة قاتلة، وكان يكثر التفكير ويكثر أن يقول: «اللهم خذ مني لعثمان حتى يرضى». وكان الزبير أكثر ندما وأسرع إقلاعا ويقول «مغلوب مطلوب: يغلبني

www.alkottob.com

ابني ويطلبني ذنبي». حتى لقد هم بترك القتال في أوله لولا تعيير ابنه عبد الله وتعيير عائشة، ثم ترك القتال واعتزل.. أما علي فقد عرفت حسرته لما رأى القتلى وعظم الخسارة بهم.

وأما السيدة عائشة، فقد قلبت صفحات التائبين والنادمين، فما رأيت حسرة أشد من حسرتها، ولا توبة أصدق ولا أخلص من توبتها، ولا ندما أعظم إيلاما من ندمها، لقد قتلها الندم قتلا، فما أكثر ما تمنت أن لم تكن خلقت، وما أكثر ما تمنت أن تكون حجرا أو مدرة، وكانت تكثر أن تقول:

«لأن أكون قعدت في منزلي عن مسيري إلى البصرة، أحب إلي من أن يكون لي عشرة من الولد: كلهم مثل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام[٨]».

والظاهر أنها كانت تكثر من هذه الحسرة، فقد روى الدينوري عنها مثل هذا الحديث بزيادة مفيدة: قالت: «وددت لو قعدت في بيتي و لم أخرج في هذا الوجه (تعني: إلى البصرة)، لكان أحب إلي من عشرة أولاد لو رزقتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم على فضل عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعقله وزهده[٩]».

ولقد ذكر عندها يوم الجمل مرة «فبكت حتى ظنوا أنها لن تسكت[١٠] وكانت إذا قرأت قوله تعالى: (وقرن في بيوتكن...) (الأحزاب ٣٣/٣٢) بكت حتى تبل خمارها[١١].

حتى إذا وافاها أجلها وقالوا لها: «تدفنين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم» قالت: «لا، إني قد أحدثت بعده، ادفنوني مع أزواج النبي[١٢]» في البقيع.

ولا يهولنك عظم ما رأيت من ندم وتوبة وبكاء وحيرة عند أصحاب الجمل، فما مر بك في هذا النزاع من عصبية وتحزب ونعرات في أراجيز الفريقين وما تمثل به كبار الناس من شعر.... صورة صغيرة مجددة عن أحوالهم في جاهليتهم، إن هذه الروح التي أضعفها الإسلام، وكاد يقضي عليها عادت — هنا في حرب الجمل — إلى الظهور في بعض الناس كأن الله لم يرسل رسولا و لم

---

(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/١ (طبعة ليدن).

(٩) الأخبار الطوال ص ١٥٦ (طبعة ليدن).

(١٠) الطبري ٥٢٩/٣.

(١١) الطبقات الكبرى ٥٦/٨.

(١٢) الجزء السابق ص ٥٠.

www.alkottob.com

يترل كتابا، وكأن الإسلام لم يكن. فإلى جانب هذه الدماء الغزيرة من آلاف المسلمين نجمت روح سيئة تعصف بأقوى الأمم: روح الخلاف والعصبية، ورجوع الأمة الواحدة قبائل متناحرة وفرقا شتى؛ فلذلك كان شعور هؤلاء الأبرار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالتبعة قويا جدا على رغم ما لمست من إيثارهم جميعا للعافية.

www.alkottob.com

الباب الخامس

في حياة عائشة السياسية بعد حرب الجمل

توطئة في خطتها العامة

رجعت السيدة بعد هذه الفاجعة مزعزعة النفس، مثقلة — في رأيها — بالتبعة، لا تغيب عنها أشباح هذه الألوف من القتلى، تتمنى أن لم تكن خلقت، تكثر أن تقول:

«ليتني لم أخلق»، «يا ليتني كنت شجرة أسبح وأقضي ما علي».

«والله لوددت أني كنت شجرة، والله لوددت أني كنت مدرة».

«لوددت أن الله لم يكن خلقني شيئا قط[1]».

«ليتني مت قبل يوم الجمل بعشرين سنة[2]».

عظم ندمها وانكسرت نفسها، ونهجت لبقية عمرها منهجا عزمت على ألا تخرج عنه: انقطعت للعبادة، وقسمت ليلها ونهارها بين صلاة وصيام واستغفار وصدقات، ونشر علم وبيان سنة.

ولقد استطاعت أن تمضي عزمها هذا دون نكول، لكن الناس والحوادث كانا يخرجانها أحيانا قليلة إلى دفاع تلقيه، أو بيان ترد فيه على من نالوا من أبيها، أو إشارة تشير بها على ولي الأمر، أو شفاعة أو توصية، أو إنكار على وال في أمر من الأمور. وكل ذلك لم يلجئها إلى استفزاز جماهير أو إعلان بعيب الولاة، ومضت الأمور هكذا بسلام حتى لقيت ربها. وسترى أن بعض هذه القضايا كانا من الخطر بحيث يستدعي شيئا من المعارضة، وبعضها أشد مما نقمت على عثمان أو علي، ولكن فاجعة الجمل كانت ماثلة أبدا أمام ناظريها بما طفحت به دماء الآلاف من

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ٨/٥٠.

(2) الطبري ٣/٥٤١، وقد تقدم هذا ص، وأنه روي هذا القول نفسه عن علي، وقد ذكرت أمامه وقعة الجمل.

www.alkottob.com

المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان. فكانت السيدة: كلما رأت منكرا، فغضبت، فهمت بإنكاره... رأت هذا المشهد الماثل لعينيها، فارتعدت له من فرقها إلى قدمها، فخففت من الإنكار، ولطفت من حدته. وسترى أيضا أن بعض الأذكياء فطن لهذه الحالة النفسية في السيدة فلوح لها بيوم الجمل كلما رآها تهم بإنكار أو تغيير، وحتى استغل هذا الضعف بعض الظرفاء فركبها بالدعابة والتنكيت.

ونحن هنا معنيون بعرض هذه المواقف السياسية التي وقفتها السيدة بعد حرب الجمل إلى أن توفاها الله موقفا موقفا، مستقلا بعضها عن بعض؛ فلا يهولنك ضعف موقفها في أمور لا شك في أنها كانت خرقا في الدين، ولا شك أيضا في أنها لو سبقت (يوم الجمل) لكان من السيدة فيها ثورة عنيفة ربما كان حادث الجمل أمامها ضعيفا لا يذكر، لا يهولنك ذلك، فقد استولى على السيدة إشفاق شديد من كل ما يمكن أن يؤدي إلى إهراق دم، وحتى هذا الإشفاق لمن كان تذكر (الجمل) فقط يهز نفسه هزا ويملأ قلبه حسرة وكمدا:

وإذا امرؤ لسعته أفعى مرة   تركته حين يجر حبل يفرق

www.alkottob.com

الفصل الأول

في موقفها من خصومها السياسيين

ودعت عائشة عليا على ما رأيت ص ثم لم تره بعد ذلك أبدا. وكانت خطتها منه حتى ماتت خطة تناس وإضراب عن ذكره، ما فاهت بحقه بكلمة سوء بعد ذلك أبدا إلا ما مر بك من إنشادها لما نعي إليها هذا البيت:

فالقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر[1]

وهذا البيت:

فإن يك ناعيا فلقد نعاه غلام ليس في فيه التراب

وعرفت أن ذلك – إن صح – كان منها خروجا على طريقة شرعتها لنفسها إزاءه، ولما ذكرت بنبو هذا الاستشهاد رجعت وأقرت بالغفلة والنسيان.

لقد كانت تحترمه ولكنها تتضايق منها على رغم هذا البعد الفاصل بينهما، فهي في المدينة وهو في العراق يغامر في هذا الخضم من الفتن.

ولعل مما زاد في ثقل حياته على نفسها، انطلاق بعض الأسنة من أنصاره بالحجاز في الدعاية له والثناء عليه، وفي زعم أنه أحق الناس بخلافة رسول الله... انطلاقا كان يجر إلى شيء من اللوم لأبي بكر وعمر إذ حالا بينه وبين خلافة ابن عمه. واستتبع ذلك – فيما أقدر – عيب بعض أعمالها، فكان ذلك يستفز السيدة حمية للحق من جهة ونضالا عن سيرة أبيها وصاحبه عمر من جهة، ووضعا من أثر هذه الدعاية من جهة ثالثة. لقد كانت ترسل الخطبة إثر الخطبة في رثاء أبيها أو الثناء عليه وعلى صاحبه عمر، في حجرتها جالسة للناس أو واقفة على قبره مؤبنة، إلا أنها

---

[1] الطبري ٤/١١٥.

www.alkottob.com

كانت في معرض الثناء عليهما، تنال من غيرهما دون أن تسميه، وتعرض بتخلف من بعدهما عن اللحاق بهما.

وأنا أجعل زمن هذه الخطب التي أثبتتها مصادر كثيرة بعد حرب الجمل على كل حال، لأنه الزمن الذي كان الناس حولها جميعا أنصارا لعلي: بايعوه وأخصلوا له، ولأنه هو الزمن الذي اقتضت دعايتهم من أجله ذكر أبي بكر وعمر، واقتضى ذلك من جهتها هذا الدفاع المجيد الحق عنهما، وذلك التعريض اللين بعلي فيما أذهب إليه.

ولست أرى في خطب الدفاع السياسي، أو التعريض بالخصوم مما زخر به تاريخنا الحافل، أبلغ ولا أسد ولا أصدق لهجة وأشد حرارة وأوفى إخلاصا، ولا أضبط إحكاما للرمية من أقوال عائشة هذه.

فأنا أورد لك أكثرها بعد هذه المقدمة، وقد بلغت من نضالها السياسي إلى فترة الهدوء والحسرة والاعتزال، لتتأملها مستعينا بما حف بها من أجواء وملابسات:

-١-

قالت عند قبره (يوم الحكمين):

«رحمك الله يا أبت، فلئن أقاموا الدنيا لقد قمت بالدين لما وهى شعبه، وتفاقم صدعه، ورجفت جوانبه، انقضبت مما أصغوا إليه، وشمرت فيما ونوا فيه، واستخففت من دنياك واستوطنوا، وصغرت منها ما عظموا، ورعيت دينك فيما أغفلوا. أطالوا عنان الأمن واقتعدت مطي الحذر، و لم تهضم دينك، و لم تشن غدك،، ففاز عند المساهمة قدحك، وخف مما استوزروا ظهرك[٢]».

-٢-

وقالت:

---

[٢] عيون الأخبار ٣١٣/٢ ومفتاح الأفكار، وبلاغات النساء لابن أبي طاهر (سنة ٢٠٤-٢٨٠هـ) ص ١٤- أصغوا: مالوا. العنان: الرسن (والمراد ميلهم إلى الراحة). القدح: واحد السهام التي يتقارع عليها أيها الفائز: استوزروا: حملوا (من الذنوب).

www.alkottob.com

«توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوالله لو نزل بالجبال الراسيات ما نزل بأبي لهاضها: اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدت العرب... فوالله ما اختلفوا في خطة إلا طار أبي بحظها وغنائها في الإسلام... ومن رأى عمر بن الخطاب عرف أنه خلق عناء للإسلام، كان والله أحوذيا نسيج وحده، وقد أعد للأمور أقرانها[٣]».

-٣-

وقالت في مناسبة مماثلة:

«لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، اشرأب النفاق بالمدينة، وارتدت العرب قاطبة، وانحازت الأنصار، وصار المسلمون كالغنم الشاردة في الليلة الماطرة... حتى جمعهم الله على أبي بكر، فلقد نزل والله بأبي بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها».

-٤-

بلغ عائشة أن أناسا يتناولون من أبيها، فأرسلت إلى جماعة منهم، فلما حضروا قالت:

«أبي وما أبيه، لا تعطوه الأيدي، ذاك والله طود منيف وظل مديد، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ ونيتم سبق الجواد إذا استوى على الأمد.

فتى قريش ناشئا، وكهفها كهلا: يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب صدعها، ويلم شعثها... حتى حليته قلوبها، واستشرى في دينه فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى اتخذ بفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون[٤].

وكان رحمة الله عليه غزير الدمعة، وقيذ الجوانح، شجي النشيج، فانصفقت له نسوان مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزؤون به، وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها، وفوقت

---

[٣] هاضها: أعجزها وكسرها. الغناء: النفع والفائدة. الأحوذي: الخفيف الحاذق المشمر للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شيء — لقد وقعت السيدة في وصف عمر على الكلمة التي لا كلمة غيرها في العربية تصدق على عمر. وهذه من جوامع كلمها وآيات بلاغتها.

[٤] تعطو: تتناول أكدى: خاب (وأصله أن يحفر طالب الماء فيبلغ صخرة فييأس). الأمد: الغاية: العاني: الأسير. يريش مملقها: يصلح حال فقيرها. رأب الصدع: أصلح الشق: لم شعثها: جميع ما تفرق منها. حليته: استحلته: استشرى: جد وتمادى. الشكيمة. يراد بها الصلابة.

www.alkottob.com

إليه سهامها فامتثلوه غرضا، فما فلوا له صفاة ولا قصفوا له قناة. ومر على سيسائه[٥]... حتى إذا ضرب الدين بجرانه، وأرست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجا من كل فرقة: أرسالا وأشتاتا؛ اختار الله لنبيه ما عنده، فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد طنبه، ونصب حبائله، وأجلب بخيله ورجله، وألقى بركه واضطرب حبل الدين، ومرج عهده، وماج أهله، وعاد مبرمه أنكاثا، وبغي الغوائل... وظن رجال أن قد أكثبت أطماعهم نهزها ولات حين الذي يرجون[٦].

«وأنى والصديق بين أظهرهم؟! فقام حاسرا مشمرا قد جمع حاشيته، وضم قطريه فرد نشر الدين على غره، ولم شعثه بطيه، وأقام أوده بثقافه، فوخذ النفاق بوطأته، وانتاش الدين فنعشه...

فلما أراح الحق على أهله، وأقر الرؤوس على كواهلها، وحقن الدماء في أهبها، وحضرته منيته، سد ثلمته بشقيقه في المرحمة ونظيره في السيرة والمعدلة: ذاك ابن الخطاب: لله أم حفلت له ودرت عليه، لقد أوحدت[٧] به، ففنخ الكفرة وديخها، وشرد الشرك شذر مذر. وبعج الأرض وبخعها فقاءت أكلها ولفظت خبأها، ترأمه ويصد عنها، وتصدى له ويأباها، ثم وزع فيئها فيها وتركها كما صحبها. فأروني ماذا ترتؤون؟ وأي يومي أبي تنقمون؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم؟!

أقلو هذا وأستغفر الله لي ولكم[٨]».

—٥—

---

[٥] وقيذ الجوانح: كأنه مكسور الأضلاع من خوف الله. انصفقت: اجتمعت. السيساء: عظم الظهر (أي استمر ولم يثنه شيء).

[٦] الجران: مقدم عنق البعير، والضرب بالجران يراد به الثبات والاستقرار. أرسالا: جماعات. الرواق: مقدم الخيمة (المراد: حل الفساد). الطنب: حبال الخباء. أجلب: صاح. الرجل: جمع راجل. البرك: الصدر. مرج: فسد واختلط. المبرم: المفتول طاقين. النكث: ما نقض من الثياب ليغزل ثانية. أكثبت: قاربت. نهز: فرص.

[٧] الحاشية والقطر: الجانب (والمراد بضم القطر: التشمير لتارك الأمر). غره: طيه (الأول) الأود: العوج. الثقاف: آلة التقويم. وقذ: كسر: انتاش: استنقذ. أراح: أعاد. إقرار الرؤوس على الكواهل: يراد به إشاعة الأمن. حفلت: جمعت درها لترضعه. أوحدت به: أتت به واحدا لا نظير له.

[٨] فنخ وديخ: ذلل وقهر. شذر مذر: التفرق في كل وجه. بعج : شق. بخع: ذلل (والمراد استخراج خيراتها). ترأمه: تعطف عليه — الفائق للزمخشري ١/٢٦٥.

www.alkottob.com

قيل لعائشة أم المؤمنين: «إن قوما يشتمون أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم» فقالت: «قطع الله عنهم العمل، فأحب ألا يقطع عنهم الأجر[٩]».

* * *

وكان منها في شأن علي من نفي الوصاية وما إليها بلهجة غير طرية، ما سبقنا إلى ذكره (ص) فلا نعيده هنا، إلا أنا ننص على أن زمنه بعد حادث الجمل.

ولعل آخر تعبير عن موقفها السلبي من علي بن أبي طالب، انقباضها عن ولديه الحسن والحسين، فلقد كانت تحتجب منهما وهما لها من المحارم: إنهما سبطا زوجها لا تحل لهما ولا يحلان لها، ومن المعروف بداهة أنه «لا تحل امرأة الرجل لولده ولا لولد ولده ولا لأولاد بناتهم[١٠]».

وهي تعرف ذلك حق المعرفة، لكنها – على ذلك – حجبتهما و لم تكن تأذن لهما إلا من وراء حجاب، مبالغة في مباعدتهما، وقد علق على هذا الحادث ابن عباس بقوله: «إن دخولهما عليها لحل».

ثم كانت الأمنية الأخيرة للحسن بعد وفاة علي وتنازله لمعاوية عن الخلافة، أن يدفن عند جده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أمنية حق ما كان ينبغي أن يحرمها إذ كان أقرب الأحياء يومئذ من رسول الله، وهو أمسهم به رحما بعد بنته وأزواجه. ولكن للأهواء السياسية منحى لا يخضع لحق ولا لمنطق:

أوصى الحسن وهو يحتضر أخاه الحسين فقال: «قد كنت طلبت من عائشة أن أدفن مع رسول الله فقالت: «نعم»، فإذا مت فاطلب ذلك إليها، وما أظن القوم إلا سيمنعونك..[١١]»، «إذا أنا

---

[٩] بلاغات النساء ص ١١.

[١٠] طبقات ابن سعد ٨/٥٠.

[١١] تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٣٠.

www.alkottob.com

مت فادفني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أجد أولى بقربه مني؛ إلا أن تمنع مع ذلك فلا تسفك فيه محجمة دم[١٢]».

ثم مات الحسن، فأتى الحسين إلى أم المؤمنين عائشة يسألها دفن أخيه في حجرتها إلى جوار جده فقالت: «نعم وكرامة» ثم أخرج نعشه يراد به قبر رسول الله، فمانع الحزب الحاكم حزب بني أمية، وركب مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وهم الحسين أن يلبس ومن معه السلاح لولا أن رده أبو هريرة وكادت تقع الفتنة. ثم دفن بالبقيع إلى جنب أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. كان ذلك سنة تسع وأربعين للهجرة.

---

(١٢) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٦٦ – لكن ابن الشحنة في كتابه (روضة المناظر في أخبار الأوائل الأواخر: (هامش مروج الذهب ٢/٢٢٥) ينص على أن عائشة نفسها هي التي منعت، وليس ذلك بشيء. حتى إن اليعقوبي يورد هذه الرواية بصيغة التضعيف مصحوبة بتظرف رواة الأخبار، فلقد ذكر أن عائشة منعت وركبت بغلة شهباء وقالت: «بيتي ولا آذن فيه لأحد». فأتاها ابن أخيها القاسم بن محمد ن أبي بكر فقال لها: «يا عمة، ما غلسنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر، أتريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء؟!».

وهذا خبر وضع ليعبر عن تنكيت الرأي العام أكثر من تعبيره عن واقع، وسيمر بك أن مثل هذه النكتة رويت أيضا عن غير القاسم في هذا الحديث.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

في مواقف متفرقة:

في مقتل أخيها محمد بن أبي بكر

أنت لم تنس أن محمد بن أبي بكر كان من أشد المؤلبين على عثمان، وأن عائشة استتبعته أيام الحصار معها إلى مكة فأبى، وأنه دخل على عثمان الدار مع الداخلين، وأنه لما زجره عثمان انزجر وخرج ثم كان من أكبر أنصار علي، وشهد معه الجمل، فكان ذا أثر لا ينكر في هزيمة جيش أخته عائشة.

فاعلم الآن أن عليا عزل قيس بن سعد الأنصاري من ولاية مصر، وكان ضابطا لها، واقفا بالمرصاد لمعاوية بن أبي سفيان وحزبه حتى أهمهم أمره، ولم يستطيعوا له شرا إلا بأن يأتوه من قبل أميره علي، فأظهر معاوية أن قيسا من حزبه وأشاع ذلك حتى بلغ عليا من جواسيسه، فأسرع إلى عزله، وبذلك خسر مصر وأكسبها معاوية.

ولي علي محمد بن أبي بكر مصر مكان قيس، ومحمد حدث قليل التجربة، لم يستفد من خطة سابقة، فخالفها فوقع في شرك معاوية، وتحكم فيه جنده فقتلوه شر قتلة:

كان أهل مصر جميعا بايعوا عليا إلا قوما غضبوا لمقتل عثمان فاعتزلوا في (خربتا) ينتظرون ما يؤول إليه أمر الناس. وكان من دهاء قيس وحنكته وبعد نظره، أن تركهم وسالمهم وعاهدهم وجبى خراجهم. وحاول معاوية بكل كيده أن يوقع حربا داخلية في مصر فلم يستطع لأن واليها كان بالمرصاد يتدارك الشر قبل استفحاله؛ فلما كاد له عند علي وعزله، نصح لخلفه محمد بن أبي بكر بمسالمة أهل (خربتا) فاستغشه محمد وخالفه، وناجزهم القتال، وبلغ الخبر معاوية وكان ساهرا على تسقط أخبار مصر، لا يغفل عن شاردة، فجهز عمرو بن العاص بجيش كثيف، وكاتب سرا العثمانية من أهل مصر وفيهم أهل (خربتا) بمجيء المدد، فلما احتاز عمرو بن العاص

www.alkottob.com

اجتمعت جموعه بجموع الثائرين وعليهم معاوية بن حديج السكوني[1]، ولم يستطع محمد بن أبي بكر أن يخرج بأكثر من ألفين، وانتدب الناس ليخرجوا مع كنانة بن بشر فكان معه ألفان أيضا، فالتقت الجموع وكان القتال، ودارت الدائرة على جيش كنانة وقتل، ثم على جيش محمد انهزموا حتى بقي محمد وحده، فدخل خربة في ناحية الطريق.

* * *

لما بلغ عائشة أن معاوية قد عقد لعمرو بن العاص، وأمره بالمسير لقتال أخيها محمد بن أبي بكر أمير مصر لعلي: أرسلت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليتكلم في أمر محمد، ففعل فلم يغن عنه شيئا. ولما كلم عمرو بن العاص، تنصل هذا من التبعة وقال لعبد الرحمن: «ما جعل لي معاوية من الأمر شيئا، وما أنا إلا براء، وما الأمر إلا لهذا السكوني (يريد معاوية بن حديج[2])».

دخل عمرو بن العاص الفسطاط عقب القتال، وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر «حتى انتهى إلى علوج في قارعة الطريق فسألهم: «هل مر بكم أحد تنكرونه؟» فقال أحدهم: (لا والله إلا إني دخلت تلك الخربة فإذا أنا برجل فيها جالس). فقال ابن حديج: (هو ورب الكعبة) فانطلقوا يركضون حتى دخلوا عليه فاستخرجوه وقد كاد يموت عطشا، فأقبلوا به نحو فسطاط مصر ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر إلى عمرو بن العاص وكان في جنده فقال:

(أتقتل أخي صبرا؟؟ ابعث إلى معاوية بن حديج فانهه[3]).

وطلب عبد الرحمن إيفاد أخيه محمد إلى معاوية ينظر في أمره، وهو يعلم أنه إذا أرسل إلى معاوية وسعه حلمه وإحسانه، فإن لم يصفح عنه كان في شفاعة أخته أم المؤمنين له ما يحمل معاوية على العفو عنه إرضاء لها وتزلفا.

---

(1) حديج بالحاء المهملة والشائع على ألسنة الخاصة اليوم وبعض التآليف بالخاء وهو خطأ مشهور – انظر ترجمته في الإصابة.

(2) ابن عساكر.

(3) الطبري ٤/٧٩.

www.alkottob.com

فبعث عمرو بن العاص إلى معاوية بن حديج يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر، فقال معاوية بن حديج: «أكذاك قتلتم كنانة بن بشر، وأخلي أنا عن محمد بن أبي بكر؟ هيهات {أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر} [القمر: ٥٤/٤٣](٤).

وأراد بن حديج أن يعاجله خشية أن يخلي معاوية بن أبي سفيان سبيله.

فقال لهم محمد: «اسقوني من الماء» قال له معاوية بن حديج: «لا سقاه الله إن سقاك قطرة أبدا، إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتى قتلتموه صائما محرما فتلقاه الله بالرحيق المختوم، والله لأقتلنك يا بن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغساق».

قال محمد: «يا بن اليهودية النساجة، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت، إنما ذلك إلى الله عز وجل يسقي أولياءه ويظمئ أعداءه: أنت وضرباءك ومن تولاه. أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم مني هذا».

فقال له معاوية: «أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار ثم أحرقه عليك بالنار(٥)». فقال محمد: «إن الله يحرقك وإمامك (يعني معاوية) وهذا (وأشار إلى عمرو بن العاص) بنار تلظى كلما خبت زادها الله سعيرا».

قال معاوية: «إني إنما أقتلك بعثمان».

قال له محمد: «وما أنت وعثمان، إن عثمان عمل بالجور ونبذ حكم القرآن... فنقمنا ذلك عليه فقتلناه. وحسنت أنت له ذلك ونظراؤك، فقد برأنا الله من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه و (الله) جاعلك على مثله».

فغضب معاوية فقدمه فقتله، ثم ألقاه في جيفة حمار، ثم أحرقه بالنار».

كان ذلك سنة ثمان وثلاثين للهجرة، وإياك أن تظن أن هذا حكم معاوية بن حديج وحده، وتخدع بهذا التنصل الذي تنصله عمرو بن العاص، أو بما سيمر بك من تنصل معاوية يوم دخل

---

(٤) الزبر: الكتب. والخطاب لكفار قريش بعد أن قص الله عليهم ما حل بكفار الأمم من قبلهم لما كذبوا رسلهم.

(٥) الطبري ٧٩/٤- ولا تنس أن في ذلك إجابة لدعوة عائشة عليه إذ كانت تقول: «اللهم اقتل مذمما بسعيه على عثمان» وقد مر بك ذلك في ص ١٢٧.

www.alkottob.com

حجرة عائشة بالمدينة فآخذته على قتل أخيها. إني أجزم بأن الأمر متفق عليه بين عمرو ومعاوية بن أبي سفيان من أول الأمر، ولو خلص منهم محمد ودخل الكعبة ملتجئا ما كان ذلك بمنجيه عندهم من القتل؛ إنهم لن يتركوا امرءا سعى ذلك السعي في عثمان، ثم كان منه يوم الجمل ما كان، ثم كان من أعظم أركان علي، وأشدهم له حبا وإخلاصا. لم يكن التنصل من تبعة قتله إلا دهاء من معاوية بن أبي سفيان وصاحبه عمرو.

* * *

وصل خبر مقتله هكذا إلى المدينة، فعظم الحزن عليه: أما أمه أسماء بنت عميس، فقد قامت لما بلغها الخبر — إلى مسجد بيتها وكظمت غيظها (من شدة حزنها وعظم مصابها) — حتى شخب ثدياها دما[٦].

وأما أخته عائشة بنت أبي بكر أم المؤمنين، فقد جزعت عليه جزعا شديدا، وصارت تقنت في دبر كل صلاة: تدعو على معاوية بن حديج[٧] وعمرو بن العاص. واشتد حزنها عليه شدة ما استطاعت أن تخفف منها بتغيير أو إنكار أو طلب ثأر (لما عرفت من أثر الجمل في نفسها)، وحرمت على نفسها الشواء، فلم تأكل شواء من ذلك الوقت حتى ماتت[٨]. ثم ضمت عيال محمد إليها وربت ابنه القاسم في حجرها فنشأ أفقه أهل المدينة، واحتل هذا الحادث من قلبها مكانا إلى جانب حادث الجمل، واحتسبت مصابها عند ربها، ما تطيق له تنفيسا إلا ما لا بال له — على ما سترى — بين الفينة والفينة: من جمل تشعر بضغينتها على معاوية بن أبي سفيان وعهده، على رغم ما صار بينهما من مجاملة ومداراة.

في مقتل حجر بن عدي

---

(٦) انظر ترجمتها في الإصابة.

(٧) لم يمنع فعل معاوة بن حديج السية عائشة حين سمعت خبرا عنه من الثناء عله مع عظيم جرمه إليها: فقد كان ابن حديج هذا ممن لهم البلاء الحسن في غزو المغرب. رووا أن عائشة زارها وفد من جند الغزو فسألتهم: «كيف كان أميركم في غزاتكم؟» فقالوا: «ما نقمنا عليه شيا» وأثنوا عليبه. فقالت السيدة: استغفر الله، إن كنت لأبغضه من انه قتل أخي، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه».

(٨) التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان (مخطوط ص ٢٠٩).

www.alkottob.com

حجر بن عدي سيد من سادات العرب في الكوفة، نافذ الكلمة، عظيم الوجاهة، من أولئك الذين لهم في قومهم مكانة الزعماء يشيرون فتمضي إشارتهم، ويأمرون فيطاعون. عرف إلى ذلك بالعدالة وحسن السيرة ولزوم الدين، فكان من أخص شيعة علي بن أبي طالب ممن نصروه وقاموا بأمره وأحبوه حيا وميتا، وأقاموا على مودته والوفاء له والذياد عنه بعد مماته، تحدى في ذلك سلطة الخلفاء وسطوة الأمراء.

لما قضى علي وتنازل الحسن لمعاوية واجتمعت الأمور له، ولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة أحد دهاة العرب وحلمائهم، وقبل سفر المغيرة دعاه معاوية (في جمادى سنة ٤١) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«أما بعد فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا، وقد قال المتلمس:

لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا　　　　وما علم الإنسان إلا ليعلما

وقد يجزئ عنك الحكيم بغير التعليم، وقد أردت إيصاءك بأشياء كثيرة فأنا تاركها اعتمادا على بصرك بما يرضيني ويسعد سلطاني وتصلح به رعيتي.

ولست تاركا إيصاءك بخصلة: لا تتحم عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب علي والإقصاء لهم وترك الاستماع منهم، وإطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه والإدناء لهم والاستماع منهم[٩]».

* * *

وأقام المغيرة في الكوفة واليا عليها لمعاوية سبع سنين وأشهرا، فأحسن سياستها وأحكم إدارتها، و لم يكن الناس ينقمون عليه إلا شتمه لعلي تنفيذا لوصية معاوية، فإنه ما كان «يدع ذم علي والوقع فيه، والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم، والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه».

[٩] تاريخ الطبري ٤/١٨٨.

www.alkottob.com

فكان حجر إذا سمع ذلك لم يسكت عليه لما جعل الله فيه من الشجاعة والوفاء والحمية والصدع بالحق، فكلما وقف المغيرة يشتم عليا وأنصاره (وهم جمهور الناس في الكوفة) رد عليه فقال:

«بل إياكم فذمم الله ولعن....» ثم قام فقال:

«إن الله عز وجل يقول: {كونوا قوامين بالقسط شهداء لله} [النساء: ٤/١٣٥] وأنا أشهد: إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل، وإن من تزكون وتطرون أولى بالذم..» فيجيبه المغيرة: «يا حجر، لقد رمي بسهمك إذ كنت أنا الوالي عليك، يا حجر ويحك اتق السلطان... اتق غضبه وسطوته، فإن غضبة السلطان أحيانا مما يهلك أمثالك كثيرا...» ثم يكف عنه المغيرة ويصفح.....

واستمر الحال بينهما على هذه الصورة، يرد حجر على المغيرة مقالته كلما وقف يشتم عليا وأنصاره ويزكي عثمان وأشياعه.... حتى إذا كانت أواخر أيام المغيرة وقف يخطب ويقول على عادته من شتم علي والثناء على عثمان:

«اللهم ارحم عثمان بن عفان وتجاوز عنه واجزه بأحسن عمله، فإنه عمل بكتابك واتبع سنة نبيك وجمع كلمتنا وحقن دماءنا وقتل مظلوما. اللهم فارحم أنصاره وأولياءه ومحبيه الطالبين بدمه.....» ويدعو على قتلته. فقام حجر بن عدي فصرخ بالمغيرة صرخة سمعها كل من كان في المسجد وخارجا منه وقال:

«إنك لا تدري بمن تولع من هرمك أيها الإنسان، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنك قد حبستها عنا وليس ذلك لك، ولم يكن يطمع في ذلك من كان قبلك، وقد أصبحت مولعا بذم أمير المؤمنين (يريد عليا) وتقريظ المجرمين».

فقام مع حجر أكثر من ثلثي الناس يقولون: صدق والله حجر وبر، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدي علينا شيئا[١٠]». وأكثروا في مثل هذا القول ونحوه حتى نزل المغيرة.

---

[١٠] تاريخ الطبري ١٨٩/٤- مات المغيرة وتولى بعده ولاة ... فكان أحد شيوخ الحي يذكر هذا الحديث ويقول: «قد والله جربناهم فوجدناه خيرهم: أحمدهم للبريء وأغفرهم للمسيء، وأقبلهم للعذر».

www.alkottob.com

استأذن على المغيرة بعد هذا الموقف الشديد، قومه فأذن لهم، فقالوا: «علام تترك هذا الرجل يقول هذه المقالة ويجترئ عليك في سلطانك هذه الجرأة؟؟! إنك تجمع على نفسك بهذا خصلتين: أما أولاهما فتهوين سلطانك، وأما الأخرى فإن ذلك إذا بلغ معاوية كان أسخط له عليك».

فكشف لهم المغيرة عن خطته ودهائه وبعد غوره وسعة صدره بقوله لهم:

«إني قد قتلته: إنه سيأتي أمير بعدي فيحسبه حجر مثلي، فيصنع به شبيها بما ترونه يصنع بي، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة.

إنه قد اقترب أجلي وضعف عملي، ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز في الدنيا معاوية ويذل يوم القيام المغيرة، ولكني قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم، وحامد حليمهم، وواعظ سفيههم حتى يفرق بيني وبينهم الموت، وسيذكرونني لو قد جربوا العمال بعدي».

ولقد وقع الأمر كما فصله المغيرة حرفا حرفا.

* * *

ولي الكوفة بعد المغيرة زياد بن أبيه، فرأى الناس أبطش الناس وأقساهم وأضيقهم صدرا، بعد أن رأوا أرحم الناس وأوسعهم صدرا. لقد تتابع من زياد وعامله وشتم علي والبراءة منه، فكان موقف حجر من ذلك موقفه الأول، فهدده زياد على ملأ من الناس... فإنه لواقف يوما يخطب على منبر الكوفة فأطال وأخر الصلاة حتى قال حجر: «الصلاة» فمضى زياد في خطبته، ثم قال حجر: «الصلاة» فمضى زياد يخطب، ثم قال حجر: «الصلاة» فمضى زياد في خطبته، فلما خشي حجر فوت الصلاة ضرب بيده إلى كف من الحصى (في وجه زياد) وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى زياد ذلك قطع خطابه ونزل فصلى بالناس.

ضاق زياد ذرعا بحجر وردوده ومناوأته فكتب فيه إلى معاوية وكثر عليه في أمره، فكتب إليه معاوية أن «شده في الحديد ثم احمله إلي[11]».

---

[11] الطبري ٤/١٩٠- لخصت في هذه الأسطر أخبارا بسطها الطبري في أكثر من عشرين صفحة ٤/١٨٧-٢١٣، تلخيصا يوائم حاجتنا في هذا البحث.

www.alkottob.com

فلما أراد زياد حمله منعه قوم حجر، واختفى ملتجئا من محلة إلى محلة... في خبر طويل وبلاء مستطير، ثم أسلم نفسه فحمل مع بضعة عشر رجلا من رؤوس شيعة علي إلى معاوية، فأمر معاوية نفرا من أهل الشام أن يعرضوا عليهم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلوا وإلا قتلوا. وعاين أهل الشام منهم صلاة طويلة حسنة وتبتلا ودينا غالبا. فلما عرضوا عليهم لعن علي رفضوا وقالوا: «بل نتولاه ونتبرا ممن تبرأ منه» فأمر رسول معاوية بحفر قبورهم فحفرت، وأدنيت أكفانهم، فأقاموا الليل كله يصلون».

فلما أخرج حجر ليقتل استأذن جلاديه أن يصلي ركعتين، فأذنوا، فصلى ركعتين خفف فيهما ثم قال: «لولا أن تظنوا بي غير الذي أنا عليه لأحببت أن تكونا أطول مما كانتا». ثم قال:

«اللهم إنا نستعديك على أمتنا، فإن أهل الكوفة شهدوا[١٢] علينا وإن أهل الشام يقتلوننا. أما والله لئن قتلتموني بها إني لأول فارس من المسلمين هلك في واديها».

ثم قال لمن حضر من أهله: «لا تطلقوا عني حديدا ولا تغسلوا عني دما: فإني ألاقي معاوية غدا على الجادة» ثم قدم فضربت عنقه.

* * *

كان محمد بن سيرين بعد ذلك إذا سئل عن الشهيد: يغسل؟ حدثهم حديث حجر. وفي هذا دلالة على نظرة الرأي العام حينئذ لمقتل حجر، فقد كانوا يرونه المسلم الصادق الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، قضى شهيدا في سبيل الجهر بالحق، ما خلع طاعة ولا فارق جماعة، وإنما أنكر على الولاة لعنهم خيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وردد الناس مرثية امرأة من الأنصار له، وهي هند ابنة زيد بن مخزمة، فقد كان في هذه المرثية ما يعبر عن شعورهم ويشبع التياعهم على حجر وسخطهم على معاوية قالت:

ترفع أيها القمر المنير   تبصر: عل ترى حجرا يسير؟
يسير إلى معاوية بن حرب   ليقتله كما زعم الأمير

---

(١٢) زور زياد محضرا كتب فيه: «إن حجرا خلع الطاعة وفارق الجماعة ولعن الخليفة ودعا إلى الحرب والفتنة وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء». وأشهد عليه سبعين من أماثل الكوفيين.

www.alkottob.com

تجبرت الجبابر بعد حجر — وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها محولا — كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بني عدي — تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديا — وشيخا في دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقا، — له من شر أمته وزير
ألا يا ليت حجرا مات موتا — و لم ينحر كما نحر البعير
فإن يهلك فكل زعيم قوم — من الدنيا إلى هلك يصير[١٣]

وتناقل الناس بعدئذ هذه الجملة وفيها الدليل الناطق على مكانة حجر من قلوب الناس، قالوا: «أول ذل دخل الكوفة: موت الحسن وقتل حجر[١٤]». وكان الحسن البصري إذا عد أمورا أربعة من أكبر ما ارتكب معاوية، عد رابعها قتله لحجر، وعقب على ذلك بقوله: «ويل له من حجر وأصحاب حجر». ويكرر ذلك.

فذكر ابن سيرين أن معاوية «لما حضرته الوفاة جعل يغرغر بالصوت ويقول: يومي منك يا حجر يوم طويل[١٥]».

* * *

فيما بين ولاية زياد ومقتل حجر، انتشر خبر القبض عليه في الأمصار الإسلامية — ومنها الحجاز — وبلغ عائشة فأهمها أمره جدا، فأرسلت سفيرا خاصا إلى معاوية هو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ليشفع — على لسانها — لحجر وأصحابه، فقدم عليه عبد الرحمن وقد قتلهم، فأسف أشد الأسف و لم يملك إلا أن يعاتب معاوية أمر العتاب، فقال له: «أين غاب عنك حلم أبي سفيان؟» فأجاب معاوية: «حين غاب عني مثلك من حلماء قومي، وحملني ابن سمية (زياد) فاحتملت».

---

(١٣) الطبري ٢٠٩/٤- الخورنق والسدير: قصران مشهوران. وأرض محول: قاحلة، وأرادت بالشيخ معاوية وبالوزير زيادا. وانظر الأغاني ١٠/١٦ وفيه مكان تجبرت الجبابر: تربعت الجبابر وأول البيت الخامس هكذا (أخاف عليك سطوة آل حرب...).
(١٤) المصدر السابق ص ٢٠٨.
(١٥) الطبري ١٩١/٤ والأغاني ١٠/١٦ طبعة الساسي.

www.alkottob.com

فلما طبق خبر مقتله المدينة جزعت عائشة عليه أشد الجزع، وعظم غضبها على معاوية، وثارت ثورتها، ولست أشك في أنها كانت تثير الناس وتجيش الجيوش وتخرج إلى قتاله لولا الدرس المؤلم الذي كانت لا تنساه: درس (يوم الجمل) ولا أدل على ذلك من قولها:

«لولا أنا لم نغير شيئا إلا آلت بنا الأمور إلى أشد مما كنا فيه، لغيرنا قتل حجر أما والله إن كان — ما علمت — لمسلما حجاجا معتمرا[١٦]».

ولا يفوتنك أن كلمة (لغيرنا) لا يقولها إلا من أيقن أن سلطانه يطاول سلطان الذي يغير عليه، كانت السيدة معتدة بنفوذها وسلطانها واثقة من أنها — في بعض النواحي — خليفة فوق الخليفة، وإن نفرتها الشديدة من الدماء بعد أن عاينت فظاعتها يوم الجمل هي التي تحول بينها وبين كثير مما يجب، وكثير مما تريد.

ولقد جمع قولها هذا حسرتين: حسرتها على حجر، وحسرتها على أنها لا تملك أن تثأر له.

وسترى بعد قليل أنها لما اجتمعت بمعاوية كان مقتل حجر من أول ما قرعته عليه. وزعم اليعقوبي أن معاوية لما حج استأذن على عائشة فقالت له: «يا معاوية، أقتلت حجرا وأصحابه، فأين عزب حلمك عنهم؟ أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يقتل بمرج عذراء نفر يغضب لهم أهل السماوات[١٧]».

لم تكن السيدة — مع اعتزالها — ليغيب أثرها عما يهز المجتمع العربي حينذاك من هزاهز.

في قضية هدبة بن الخشرم

هدبة بن الخشرم شاعر من بني عامر، خرج قومه حجاجا فاصطحبهم هو وأخته فاطمة، ومع قومه شاعر آخر هو زيادة بن زيد أحد بني رقاش، فتعاقب هدبة وزيادة سوق الإبل، فحدا زيادة بالإبل فرجز يتغزل بأخت هدبة وهي تسمع. فأحفظ ذلك هدبة فرجز بأخت زيادة الغائبة، فلم

---

[١٦] تاريخ الطبري ٤/٢٠٨ والأغاني ١٦/١٠.

[١٧] تاريخ اليعقوبي ٢/٢٧٥ ومرج عذراء شرقي دمشق، حيث دفن حجر وأصحابه، وعذراء قرية هناك سمى المرج بها — هذا ولم يصنع معاوية شيئا حين اعتذر للسيدة بقوله: «لم يحضرني رجل رشيد يا أم المؤمنين».

www.alkottob.com

يشف نفسه. وكان بينهما شر استطار إلى قوميهما؛ فلما انقضى الحج أصاب هدبة غرة من زيادة فقتله ثم هرب.

قبض والي المدينة — حين فر هدبة — على عم هدبة وأهله فحبسهم، فلما بلغه ذلك أسلم نفسه إلى السلطان فحبسه وأطلق عمه وأهله.

أهم أهل المدينة شأن هدبة، فشفع كثير منهم عند عبد الرحمن أخي زيادة في أن يقبل الدية فأبى. وجعل القرشيون بالمدينة يكلمونه في هدبة وأضعفوا له الدية، وكان في جملة الساعين أكابر الناس: الحسين بن علي، وسعيد بن العاص والي المدينة، وعبد الله بن عمرو، وعمرو بن عثمان بن عفان... وهو يأبى. وأشفق الوالي من قتل هدبة فرفع أمره إلى معاوية، وذهب إليه عبد الرحمن نفسه أخو القتيل.

نظر معاوية في الأمر وهو لا يريده، فلاح له مخلص جيد، فسأل عبد الرحمن: «هل لزيادة ولد؟» قال: «نعم، له غلام صغير دون البلوغ، اسمه المسور وأنا عمه وولي دم أبيه».

فقال معاوية: «إنك لا تؤمن على أخذ الدية أو قتل الرجل بغير حق، والمسور أحق بدم أبيه» وأمر بحبس هدبة حتى يبلغ المسور.

مات خلال ذلك عبد الرحمن وانقضت على حبس هدبة ست سنين حين بلغ المسور. وسعى الناس، والظاهر أن مسعاهم أثمر لدى المسور فمال إلى العفو وأخذ الدية لولا موقف أمه، فقد قالت له:

«والله لئن لم تقتل هدبة لأنكحنه، فيكون قد قتل أباك ثم نكح أمك، فتسبك بذلك العرب يد المسند (الدهر)»، فصرفه ذلك عن مذهبه، فثأر لأبيه من هدبة فقتله.

* * *

أما السيدة عائشة، فالظاهر أنها ذهبت في أمر هدبة الذي أهم قريشا وأهل المدينة والبوادي مذها آخر: إنه أول عدوان فيه إحياء لأمر الجاهلية، وهي تريد أن يقضى على الجاهلية وعدوانها قضاء مبرما، وترى السيدة أن ذلك من أهم رسالات الإسلام، فكانت تحب أن يقتل هدبة بزيادة

www.alkottob.com

فيكون ذلك أول قود من نوعه في الإسلام، ويزجر كل من لم تنتزع من نفسه عادات الجاهلية وحميتها.

استنتجنا ذلك من جوابها لهدبة: فقد أرسل إليها يقول: «استغفري لي» فأجابته السيدة: «إن قتلت استغفرت لك».

فلما قتل برت له بوعدها فاستغفرت له(١٨).

جرت الأمور في قضية هدبة على ما يرضي السيدة: من إقامة حدود الله وإحباط الشفاعات حسما لمادة الجاهلية وعقابيلها في النفوس، فكانت بموقفها هذا من هدبة وهوى الرأي العام: الساهرة الراعية لحق الشريعة.

* * *

متفرقات

وفوق ما تقدم، كانت تكون بين السيدة والخليفة وعماله مراسلات: يسألونها فتجيبهم أو تشفع فيمضون شفاعتها، إذ يعدونها واجبة الطاعة ويرعون مقامها. فإذا تقدمت إلى وال بأمر ما، كان هذا الوالي أعظم إنسان سرورا إذ رأته السيدة أهلا لمكاتبته أو تكليفه حاجة طلبت منها.

فإذا كانت النظرة الأولى لهذه الاستفتاءات من الخليفة أو عماله، توحي إليك برد الأمر إلى ما شاع من أن عائشة أعلم الصحابة في شؤون الرسول البيتية وأمور النساء، فإني أذهب إلى أبعد من ذلك، أجعل الحافز الأول في استفتائهم لها تطييب خاطرها وإشعارها بما يكنون لها من تعظيم وحرمة، رجاء أن يخف إنكارها عليهم فيما يبلغها عنهم من اعوجاج؛ وإلا ففي كل مصر من فقهاء الصحابة من يغني المستفتي عن أن يكتب إلى عائشة في مسألة من المسائل. وإليك بعض هذه المسائل مما لم يمر بك:

–١–

(١٨) انظر تفصيل أخبار هدبة في كتاب الأمالي للقالي ٤ (كتاب التنبيه) ص ٨٣، ٨٤ والأغاني ٢١/١٧٧ (طبعة الساسي) وقد اعتمدنا المصدر الأول وخاصة في تقدير السنوات التي لبثها هدبة في السجن.

www.alkottob.com

كتب إليها معاوية أن: «اكتبي إلي بشيء سمعتيه من أبي القاسم صلى الله عليه وسلم». فوجدت السيدة الفرصة المواتية، فعمدت إلى الأسلوب الذي يقرع به مثل معاوية فاختارت هذا الحديث الجامع فكتبت إليه:

سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم يقول:

«من عمل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذاما[١٩]».

وقد عرفت جوابها معاوية لما سألها أن تروي له حديثا عن عثمان رحمه الله[٢٠].

-٢-

كتب زياد بن أبي سفيان — والي العراق لمعاوية — إلى السيدة يستفتيها في حكم يقرره ابن عباس:

«إن عبد الله بن عباس قال: (من أهدى هديا حرم عليه ما يحرم على الحاج حتى ينحر الهدي) وقد بعثت بهديي فاكتبي لي بأمرك».

فأجابته:

«ليس كما قال ابن عباس، أنا فتلت قلائد هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ثم قلدها رسول الله بيده، ثم بعث بها مع أبي، فلم يحرم على رسول الله شيء أحله الله له حتى نحر الهدي[٢١]».

-٣-

كتب معاوية إلى زياد: «انظر رجلا يصلح لثغر الهند فوله». فكتب إليه: «إن قبلي رجلين يصلحان لذلك. الأحنف بن قيس، وسنان بن سلمة الهذلي» فكتب إليه معاوية:

---

[١٩] روضة المحبين ص/٤٧ ومسند أحمد ٦/ والبيان والتبيين (٢/٢٤٢ طبعة السندوبي الثانية).

[٢٠] ص ٣٢ الحاشية ٢ من هذا الكتاب.

[٢١] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص - وقال الزهري: أول من كشف الغمى عن الناس وبين لهم السنة في ذلك عائشة.

www.alkottob.com

«بأبي يومي الأحنف نكافئه: أبخذلانه أم المؤمنين، أم بسعيه علينا في صفين؟ فوجه سنانا[٢٢]».

ولا يخفى عليك ما يبتغي معاوية بقوله: «أبخذلانه أم المؤمنين» من الهدف السياسي فإنه إذا بلغ عائشة أن خاذلها حرم الولاية لخذلانه لها، عظم رضاها عن معاوية فأسكتها ذلك عما ترى بعض الإسكات، ونال معاوية بذلك الزلفى عندها فأمن جانبها.

-٤-

طمح زياد أن يظفر من السيدة عائشة بالاعتراف بنسبته إلى أبي سفيان، فجعل يكتب إليها عناوين كتبه «إلى عائشة أم المؤمنين من ابنها زياد بن أبي سفيان» رجاء أن يرد في الجواب: «... إلى زياد بن أبي سفيان» لكن عائشة لم تفعل[٢٣]، بل اكتفت أن تكتب إليه: «من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد». حتى حدثت لها عنده هذه الحاجة:

كان لعبد الرحمن بن أبي بكر مولى اسمه مرة بن أبي سفيان؛ فلما مات عبد الرحمن وكانت عائشة شديدة المحبة والإكرام له، أتاها مرة يسألها أن تكتب له وصاة إلى زياد والي البصرة إذ عزم مرة على الإقامة بها، وسألها أن تبدأ في العنوان باسم زياد قبل اسمها. فكتبت عائشة إلى زياد كتابا توصيه بمرة وجعلت العنوان:

«إلى زياد بن أبي سفيان من عائشة أم المؤمنين».

وحمل مرة الكتاب إلى زياد بالبصرة.

فلما رأى زياد أنها كاتبته وقدمته ونسبته إلى أبي سفيان، سر بذلك، وأكرم مرة وألطفه، وجعل يقول للناس: «هذا كتاب أم المؤمنين إلي فيه» ويعرضه عليهم ليقرؤوا عنوانه ويروا فيه

---

[٢٢] عيون الأخبار ٢٢٧/١- وكان من جواب زياد معاوية: «إن الأحنف قد بلغ من الشرف والحلم والسؤدد مالا تنفعه الولاية ولا يضره العزل».

[٢٣] كان لزياد أخ يدعى أبا بكرة، وكان مقاطعا لزياد، فلما استحلق معاوية زيادا بنسبه أنكر ذلك أبو بكرة.

ثم عزم زياد على الحج، فبلغ ذلك أبا بكرة، فسعى إلى أحد أبناء زياد فقال له: «يا بني قل لأبيك: إنني سمعت أنك تريد الحج، ولا بد من قدومك إلى المدينة، ولا شك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم (وهي أخته بموجب استلحاق معاوية له)؛ فإن أذنت لك فأعظم به خزيا مع رسول الله، وإن منعتك فأعظم به فضيحة في الدنيا».

فترك زياد الحج. — انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١٠/٥ وتاريخ الأمم الإسلامية للشيخ الخضري ٤٧٧/١ (الطبعة الأولى — مطبعة المعارف بمصر).

www.alkottob.com

نسبته إلى أبي سفيان... وكان موقعه عنده عظيما جدا، فأقطع مرة مئة جريب على نهر الأبلة، وأمر أن يحفر له نهر يسمى باسمه: «نهر مرة[٢٤]»، ثم كان ابن هذا المولى عثمان بن مرة من أثرياء البصرة بعده.

وليس هذا الخبر يحتاج إلى ما ينبه إلى ما فيه مما يشعر بمكانة السيدة، لقد كان كتابها فقط — في رأي زياد — تشريفا له ونصرا سياسيا، وحجة يحتج بها على نسبه إلى أبي سفيان، إذ ماذا يريد وراء شهادة السيدة له بهذا النسب.

في بيعة يزيد بن معاوية

الشورى أساس من أسس الحكم في الإسلام، فكلما كان حظ الحكم منها أوفى كان أقرب إلى روح الإسلام. والحاكم الأعلى في العرف الإسلامي أجير الناس كافة: يسهر على مصالحهم ويستوفي أجره من بيت مالهم، وليس يملك من الأمر غير ذلك.

انقضى عهد الراشدين، وفهم أجلاء الصحابة ورؤوس الناس للحكم هذا الفهم؛ فلما اتفق أن ولى عثمان بعض الأكفياء من أقربائه أعمالا، أنكر الناس ذلك وأعظموه، وخافوا أن تصير مصالحهم العامة حكرة لأحد، أيا كان، ففشت القالة في عثمان حتى آلت الأمور إلى ما عرفت.

أما معاوية: فإن أربعين عاما سلخها في حكم الشام إلى جوار إمبراطورية الرومان، وفي ديارها السابقة، قد انحرفت به عن الجادة في أمر الحكم، فلم يسلك به الطريق الإسلامي الذي رأينا أساليب مختلفة له في عهد الراشدين، وإنما سلك به طريقا (رومانيا) وأراده أسلوبا ملكيا على أسلوبهم، وانتوى نية فطفق يتألف لها الناس، ويهيئ لها الأمور[٢٥]. فلما وجد الأحوال مواتية، أعلنها بيعة بولاية العهد من بعده لابنه يزيد.

---

[٢٤] فتوح البلدان للبلاذري ص ٣٦٠ (طبعة ليدن) ومعجم البلدان لياقوت (مادة نهر مرة) والمعارف لابن قتيبة وتهذيب تاريخ ابن عساكر ٤١١/٥.

[٢٥] وقد راوغ عن نيته أول الأمر فقد سئل: «لمن ترى هذا الأمر من بعدك؟» فأجاب: «بين أربعة من بني عبد مناف: كريمة قريش: سعيد بن العاص، وفتاها حياء وزهاء وسخاء: عبد الله بن عامر؛ وأما الحسن بن علي فرجل سيد كريم، وأما القارئ لكتاب الله الفقيه في دين الله الشدبد في حدود الله فمروان، وأما رجل نفسه فعبد الله بن عمر، وأما رجل يرد الشريعة مع دواهي السباع ويروغ روغان الثعلب فعبد الله بن الزبير». — تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٣٧/٦.

www.alkottob.com

ولم يفعل ذلك حتى سبر أغوار الأمصار وطباع الناس، وكانت قد استلانت واستكانت بسبب سياسته وسياسة ولاته الحازمين الأشداء مدة عشرين عاما. نعم، لقد استكانت إلى الطاعة، حتى من يجيش حمية من زعماء القوم وأحرارهم روض معاوية إباءهم وأنفتهم بلطفه وعطائه الجم، فإن لم يسلسوا له جعلهم جزر السيوف كما رأيت في أمر حجر وأصحابه. وقد حصد الموت مدة أربعين سنة أكثر الصحابة، ورؤوس الناس ممن يهابهم معاوية.

ومع كل ذلك لم يخل إعلان البيعة ليزيد من صدمة للنفوس عامة، فأكثرها وقف ثم رضي بالقضاء المحتم، وبعضها أنكر ورفع عقيرته بالإنكار.

أما السيدة عائشة فقد لزمت بيتها وسكينتها، وأنا أقطع أنها جاهدت نفسها أعظم الجهاد بهذه السكينة، وكبتتها أعظم الكبت، وكظمت غيظا ما كانت لتكظمه؛ فما كان هذا بالأمر الحقير، إنه أعظم ما مر بالسيدة من خروج على الإسلام وتنكر لروحه، ولكنها الدماء، الدماء دائما هي الشبح الذي يلوح لعائشة كلما همت بإنكار منكر فترعد فرائصها وتستجير بالله من كل خير يؤدي إلى شر.

لكن أعوان معاوية فاتهم اللطف في تأتيهم لهذا الخرق العظيم، ولم يدركوا ما فيه من كسر لحرية ألفها العرب، وشورى يتعبدون بها، ونظم سامية تجري منهم مجرى الدم من العروق. ظن أعوان معاوية أن البيعة ليزيد أمر من هذه الأمور الكثيرة التي يرد بها البريد فتعلن للناس وتنفذ في يسر وصمت... مما لا يصدم عقيدة ولا يجافي روحا ولا يكسر تقاليد أصيلة ولا يذل أنفة قومية.

* * *

أرسل معاوية إلى الأمصار أمره بأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده، فوقف عامله على المدينة مروان بن الحكم يعلن هذه البيعة على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إنكار الناس لها واحدا، وكان متكلمهم عبد الرحمن بن أبي بكر أخو السيدة عائشة فقد رد على مروان كلامه فقال:

لقد كان يحذر أشد الحذر من ابن الزبير، وقد قرظ سعيدا وعبد الله بن عامر ومروان بما لم يقرظ به الحسن ولا ابن عمر، وكل هذا يتألف به الكبار والدهماء حتى تتطامن نفوسهم لأمر سيجد فيه فيما بعد.

www.alkottob.com

«كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك، لا يكون ذلك، لا تحدثوا علينا سنة الروم: كلما مات هرقل قام مكانه هرقل».

«لقد جئتم بها هرقلية وقوقية[٢٦]؛ تبايعون لأبنائكم!!؟».

قال مروان: «سنة أبي بكر وعمر».

فقال عبد الرحمن: «بل سنة هرقل وقيصر». ، «ما لأبي بكر لم يستخلفني؟ وما لعمر لم يستخلف عبد الله؟».

واشتد الغضب والحنق بمروان فقال:

يا أيها الناس، إن هذا الذي قال الله فيه: {والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج} [الأحقاف: ١٧/٤٦][٢٧].

حينئذ، فرغ صبر عائشة - وهي تسمع من حجرتها - وقد رأت أن عبث مروان تطاول إلى القرآن، فغضبت وقالت:

«ألابن الصديق يقول هذا؟؟» ثم قالت: «استروني» فستروها فجهرت قائلة:

«كذبت والله يا مروان، ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته، إن ذلك رجل معروف نسبه... ولكن (رسول) الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت قضض (قطعة) من لعنة الله[٢٨]».

«يا بن الزرقاء، أعلينا تتأول القرآن؟ ... لولا أني أرى الناس كأنهم يرتعشون لقلت قولا يخرج من أقطارها» فقال مروان: «ما يومنا منك بواحد[٢٩]».

لقد كان جبهها مروان شديدا عنيفا حاطما وما باختيارها جبهته، ولكن أحرجها: إن الذي بوسعها أن تفعله، هو حيادها في أمر هذه البيعة غير المشروعة، وحسبها ذلك قهرا لنفسها

---

(٢٦) الدنانير القوقية: من ضرب قيصر لأنه كان يسمى قوقا — القاموس المحيط.

(٢٧) وتتمتها: (وقد خلت القرون من قبلي، وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق، فيقول: ما هذا إلا أساطير الأولين).

(٢٨) تاريخ ابن عساكر (مخطوط) ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر.

(٢٩) الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ١٢٩ وأمالي القالي ١٧٥/٣ وانظر الإتقان للسيوطي ص ٢٩ وتاريخ دمشق لابن عساكر.

www.alkottob.com

وللواجب عليها. وكذلك كان، فلم ترد على مروان شيئا لما أعلن بيعة يزيد، لكن مروان امتد أذاه إلى أخيها بغير حق، ثم كان هناك ما هو أشد حرمة من أخيها وما لا يجوز لمسلم أن يقر عبثا فيه، لقد امتد عبث مروان إلى كتاب الله يدعي أن آية منه نزلت في عبد الرحمن وهي لم تترل فيه....

لم يكن للسيدة ولا لغيرها أن تسكت على هذا العبث الذي ارتكبه مروان نصرة لعصبيته السياسية.

امتنع عبد الرحمن بن أبي بكر عن البيعة وامتنع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر. وامتنع لامتناعهم أهل الحجاز.

* * *

كتب مروان بالذي كان إلى معاوية، فأقبل نحو المدينة، فلما دنا منها «استقبله أهلها وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر فسبه وقال: «لا مرحبا بك ولا أهلا».

فلما دخل الحسين عليه قال: «لا مرحبا بك ولا أهلا، بدنة يترقرق دمها - والله - مهريقة».

فلما دخل ابن الزبير قال معاوية: «لا مرحبا بك ولا أهلا، ضب تلعة مدخل رأسه تحت ذنبه».،

فلما دخل عبد الله بن عمر قال معاوية: «لا مرحبا بك ولا أهلا» وسبه، فقال عبد الله «إني لست بأهل لهذه المقالة». قال معاوية: «بلى، ولما هو شر منها[٣٠]».

* * *

معاوية في بيت عائشة:

دخل معاوية المدينة وكله خوف من السيدة عائشة أن تشتد عليه فيما ابتدع وما يريد أن يبتدع في الإسلام، مما يهون معه كل ما كان الناس نقموا على عثمان. ثم هو يخشى أن تكون

---

(٣٠) أمالي القالي ١٧٥/٣.

www.alkottob.com

السيدة سندا وملجأ قوة لهؤلاء الأربعة أعلام الحجاز من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومعاوية من الذين يتأتون للشر قبل وقوعه، ولا تحملهم قوتهم عليه أن ينتظروه فيقضوا عليه، توفيرا لقواهم ورجالهم، وسياسة لهؤلاء الخصوم عسى أن يصبحوا في جملة أنصارهم فيزيدوا بهم قوتهم.

أراد معاوية أن يتلطف لما في قلب السيدة عليه، فقد قتل قائده - بأمره على الأرجح - أخاها محمد بن أبي بكر شر قتلة وأشدها نكالا، ولم ينجه من القتل والإحراق شفاعة عائشة ولا إرسالها فيه رسولا خاصا من أشراف بني أمية، وكذلك أرسلت تشفع في حجر بن عدي وأصحابه فلم تستفد شيئا. ولا ريب أن في نفس السيدة على معاوية - لذلك - ما فيها، ولكنها كظمت غيظها وردت حنقها. ثم كان من مروان مع أخيها عبد الرحمن في أمر البيعة ما رأيت آنفا.

ومعاوية يخشى أن يفيض الإناء فيكون له من عائشة يوم مثل يوم الدار أو يوم الجمل، والحملة عليه اليوم مواتية ناجحة لاقحة: لهذا الخرق الذي أتاه في الإسلام بأخذ البيعة لابنه يزيد، مع أن أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأولي الحل والعقد من رجال العلم والدين متوافرون ينظرون ويسمعون، قد تخطى معاوية مشيختهم وأجلاءهم إلى شاب مستهتر سكير سيء السيرة رقيق الدين فيما زعموا.

لهذا كله، عزم معاوية أن يروض أصعب الناس عليه يومئذ وأشدهم وأجدرهم إذا قال (هلم) أن يلبيه الناس ويثوروا تحت لوائه. عزم قبل كل شيء على زيارة السيدة عائشة والتذلل لها وتملقها ومودتها، فأقبل «ومعه[31] خلق كثير من أهل الشام، حتى أتى عائشة أم المؤمنين، فاستأذن، فأذنت له وحده لم يدخل عليها معه أحد، وكان عندها مولاها ذكوان، فلما استقر به المجلس ابتدرته عائشة تقول:

«يا معاوية، أكنت تأمن أن أقعد لك رجلا فأقتلك كما قتلت أخي محمد بن أبي بكر؟» كان التقريع عنيفا مفاجئا كما ترى، لكن داهية الأمويين - على ما يظهر - كان يتوقع مثله، فلم تصدمه المفاجأة فأجاب متملقا متوددا: «ما كنت لتفعلين ذلك» قال: «ولم؟» قال: «لأني في بيت آمن؛ بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم».

---

(31) الإمامة والسياسة ص ١٥٠.

www.alkottob.com

فطامن ذلك من عنفها.

ثم إن عائشة حمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله وذكرت أبا بكر وعمر، وحضته على الاقتداء هما والاتباع لأثرهما... ثم صمتت.

وكان على معاوية أن يجيب على خطبتها هذه، لكنه لم يخطب مخافة ألا يبلغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالا في الأمر الذي قدم من أجله وتطلف في هوينه وتقريبه، قال:

«أنت والله ا يا أم المؤمنين العالمة بالله وبرسوله، دللتنا على الحق وحضضتنا على حظ أنفسنا، وأنت أهل لأن يطاع أمرك ويسمع قولك.

وإن أمر يزيد قضاء من القضاء وليس للعباد الخيرة من أمرهم. وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك ومواثيقهم أفترين أن ينقضوا عهودهم ومواثيقهم؟؟»

فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضي أمره فأوصته هؤلاء المخالفين: أخيها عبد الرحمن وأصحابه فقالت:

«أما ما ذكرت من عهود ومواثيق فاتق الله في هؤلاء الرهط ولا تعجل فيهم، فلعلعهم لا يصنعون إلا ما أحببت».

ثم قام معاوية، فلما قام ذكرت عائشة فعلته الشنعاء في حجر وصحبه فقرعته قائلة: «يا معاوية، قتلت حجرا وأصحابه العابدين المجتهدين؟؟».

فقال معاوية مراوغا «دعي هذا، كيف أنا في الذي بين وبينك وفي حوائجك؟» قالت: «صالح». قال: «فدعينا وإياهم حتى نلقى ربنا[٣٢]».

---

[٣٢] المصدر السابق – ذكروا أن معاوية كان يتعهد السيدة دائما بالعطايا الجسام:

قال عروة: بعث معاوية إلى عائشة بمئة ألف درهم، فوالله ما أمست حتى فرقتها، فقالت لها مولاتها:

«لو اشتريت لنا بدرهم لحما» فقالت عائشة: «ألا قلت لي؟»؟

وبعث إليها مرة بقلادة بمئة ألف فقسمتها بين أمهات المؤمنين.

وقيل: إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار – انظر سير النبلاء للذهبي الجزء الخاص بترجمة عائشة ص ٨٣ و(الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) ص ٦٧.

www.alkottob.com

هكذا انتهى هذا اللقاء الأول بين الخليفة الداهية العظيم وعائشة أم المؤمنين، وأصاب الخليفة بعض ما يستحق من التعنيف على لسان السيدة.

ثم خرج معاوية ومعه ذكوان مولى عائشة، فاتكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول: «تالله ما رأيت كاليوم خطيبا أبلغ من عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم[٣٣]». ثم مضى.

ولا تظنن وأنت تقرأ كلام معاوية آنفا أن فيه حجة أو أن السيدة اقتنعت، فليس مثل السيدة يقنعها أن يقال لها في منكر تنكره: (هذا قضاء من قضاء الله)، لكن عزيمة سبقت منها في الاعتزال جعلتها تمر بهذه الحجة الواهية متغافلة. ومعاوية يعلم ذلك منها[٣٤]، وكلا الاثنين يجامل صاحبه ويدافع شره.

ثم كان لقاء آخر بمكة، زور له معاوية جوابا فيه شبه الحجة في قتل حجر وأصحابه.

* * *

اطمأنت نفس معاوية بعد هذا اللقاء، وأراد أن يشرع في أمر الأربعة الذين أبوا بيعة يزيد، وأمرهم يشغله ويهمه بعد أن أمن جانب السيدة. فيروي الطبري أن معاوية أرسل إلى كل من هؤلاء الأربعة وابن عباس على انفراد، وقال له:

«يا بن أخي، قد استوثق الناس لهذا الأمر (يعني يزيد) غير خمسة نفر أنت تقودهم، فما إربك إلى الخلاف؟» فتنصل كل منهم من أن يكون متبوعا في هذا الخلاف وضمن لمعاوية أن يبايع إذا بايعوا... إلا ما كان من عبد الرحمن بن أبي بكر:

فإن معاوية أرسل إليه فقال: «يا بن أبي بكر، بأية يد أو رجل تقدم على معصيتي؟». فأجابه ابن أبي بكر جوابا صريحا غير متعتع فقال:

---

(٣٣) الإمامة والسياسة وسير النبلاء ٧٨/٢.

(٣٤) ويعلم من نفسه أنها – في البيعة ليزيد – تسعى فيما يخالف الكتاب، ولقد نقل عنه قوله لابنه يزيد في احتضاره: «إن أعظم ما أخاف الله فيه: ما كنت أصنع لك». يعني من أمر البيعة له.

www.alkottob.com

«أرجو أن يكون ذلك خيرا لي» قال معاوية: «والله لقد هممت أن أقتلك». قال عبد الرحمن: «لو فعلت لأتبعك الله به لعنة في الدنيا وأدخلك به في الآخرة النار[٣٥]».

* * *

خرج هؤلاء الرهط إلى مكة معتمرين، ولما كان وقت الحج خرج معاوية حاجا، «فأقبل[٣٦] بعضهم على بعض فقالوا: «لعله قد ندم» فأقبلوا يستقبلونه، فلما دخل ابن عمر قال: «مرحبا بك وأهلا يا بن الفاروق، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة».

وقال لابن أبي بكر: «مرحبا بابن الصديق، هاتوا لد دابة».

وقال لابن الزبير: «مرحبا بابن حواري رسول الله، هاتوا له دابة».

وقال للحسين: «مرحبا بابن رسول الله، هاتوا له دابة»... وجعلت ألطافه (هداياه) تدخل عليهم ظاهرة يراها الناس، ويحسن إذنهم وشفاعتهم.

ثم أرسل إليهم، فقال بعضهم لبعض: «من يكلمه؟» فأقبلوا على الحسين فأبى، فقالوا لابن الزبير: «فأنت صاحبنا» قال: «على أن تعطوني عهد الله: ألا أقول شيئا إلا تابعتموني عليه». فأخذ عهودهم رجلا رجلا.... فدخلوا على معاوية، فدعاهم إلى بيعة يزيد فسكتوا، فقال: «أجيبوني» مرتين، فسكتوا، فقال لابن الزبير: «هات فأنت صاحبهم».

قال: «اختر منا خصلة من ثلاث». قال: «إن في ثلاث لمخرجا».

قال ابن الزبير: «إما أن تفعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يستخلف أحدا، أو تفعل كما فعل أبو بكر: نظر إلى رجل من عرض قريش فولاه، أو تفعل كما فعل عمر بن الخطاب: جعلها شورى في ستة من قريش».

قال معاوية:

---

[٣٥] تفصيل ذلك في تاريخ الطبري ٢٢٦/٤ حوادث سنة ٥٦ هـ.

[٣٦] تتمة الحديث هذه للقالي.

www.alkottob.com

«ألا تسمعون! إني قد عودتكم على نفسي عادة وإني أكره أن أمنعكموها قبل أن أبين لكم: إن كنت لا أزال أتكلم بالكلام فتعترضون علي فيه وتردون علي؛ وإني قائم فقائل مقالة فإياكم أن تعرضوا حتى أتمها؛ فإن صدقت فعلي صدقي، وإن كذبت فعلي كذبي، والله لا ينطق أحد منكم في مقالتي إلا ضربت عنقه».

ثم وكل بكل رجل من القوم رجلين يحفظانه لئلا يتكلم، وقام خطيبا فقال:

«إن عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا فبايعوا».

فانجفل الناس عليه يبايعونه، حتى إذا فرغ من البيعة ركب نجائبه إلى الشام وتركهم. فأقبل الناس على الرهط يلومونهم، فقالوا:

«والله ما بايعنا، ولكنه فعل بنا وفعل....[٣٧]».

* * *

الظاهر أنه كان لقاء ثان بين معاوية والسيدة عائشة بمكة، عرفنا منه أن اللقاء الأول لم يشف ما بنفسها، فعادت إلى تأنيب معاوية بالأسلوب نفسه على قتل أخيها وقتل حجر فيذكر الطبري أنها قالت له لما دخل عليها:

«يا معاوية أأمنت أن أخبأ لك من يقتلك؟؟».

فأجاب معاوية نحوا من جوابه الأول: بيت الأمن دخلت».

قالت: «يا معاوية، أما خشيت الله في قتل حجر وأصحابه؟»، «أين كان حلمك عن حجر؟».

فقال: «لست أنا قتلتهم، إنما قتلهم من شهد عليهم» و« لم يحضرني رشيد[٣٨]».

---

[٣٧] أمالي القالي ١٧٦/٣ باختصار يسير.

[٣٨] تاريخ الطبري ١٩١/٤ و٢٠٨.

www.alkottob.com

والذي أذهب إليه أن السيدة هنا في مكة لا تريد ظاهر هذا الخطاب، وإنما تلوح لمعاوية بقضايا قد تلجأ إلى التشنيع بها عليه إذا هو حاول أن يمس أخاها عبد الرحمن وصحبه بأذى أو بطش، ففهم كل منهما عن صاحبه[٣٩].

* * *

ترك معاوية هؤلاء الأربعة وشأنهم، ثم فرغ لتوثيق أمر يزيد يحكمه ويتأنى له حتى رضي عن مسعاه. فلما أحس بالضعف يدب فيه أصى ابنه يزيد نفسه فقال:

«يا بني إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد... وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر.

فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته (كسرته) العبادة، وإذا لم يبق أحد غيره بايعك؛

وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقا عظيما،

وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم، ليس له همة إلا النساء واللهو،

وأما الذي يجثم جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصة وثب... فذاك ابن الزبير؛ فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربا إربا[٤٠]».

وأنا أجعل تاريخ هذه الوصية قبل سنة سبع وخمسين، لأن عبد الرحمن بن أبي بكر مات سنة ثلاث وخمسين أو ست وخمسين[٤١] فلا يعقل أن يوصي ولده بما يفعل بميت.

وأما الوصية الثانية فقد خلت من ذكر عبد الرحمن إذ كانت بعد مماته، وزمنها سنة ستين حين مرض معاوية مرضته التي كان فيها هلاكه. فذكر الطبري أن معاوية لما حضره الموت «(وذلك

---

(٣٩) كانت قدمة معاوية هذه إلى الحجاز سنة ست وخمسين.

(٤٠) الطبري ٤/٢٣٨.

(٤١) تاريخ دمشق لابن عساكر (مخطوط).

www.alkottob.com

سنة ستين) وكان يزيد غائبا، دعا بالضحاك ابن قيس الفهري صاحب شرطته وبمسلم بن عقبة المري، فأوصى إليهما فقال:

«بلغا يزيد وصيتي: انظر أهل الحجاز فإنهم... الخ»

....، وإني لست أخاف من قريش إلا ثلاثة: حسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير:

فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك،

وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه؛ وإن له رحما ماسة وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم. ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه؛

وأما ابن الزبير فإنه خب ضب، فإذا شخص لك، فالبد له إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت[٤٢]».

لله در معاوية، كيف غاص على سرائر الناس ففطن إلى ما في القلوب، وخبر الناس وطبائع الأمصار، حتى كان إذا وصف من ذلك شيئا كأنه يقرأ من صحيفة أو يصف عن عيان، واخترقت بصيرته حجب الغيب فتنبأ بما يكون بعده، فجمع سداد ذلك كله وألقاه إلى فلذة كبده.

* * *

كانت وفاة السيدة عائشة رحمها الله بين هاتين الوصيتين (سنة ثمان وخمسين).

ذكروا أنها لما احتضرت جزعت، فقيل لها: «أتجزعين يا أم المؤمنين وأنت زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين وابنة أبي بكر الصديق؟!!».

فقالت:

«إن يوم الجمل معترض في حلقي.... ليتني كنت نسيا منسيا[٤٤]».

---

[٤٢] الطبري ٤/٢٣٩.

www.alkottob.com

*   *   *

---

(٤٤) بلاغات النساء لابن أبي طاهر ص ١٢.

www.alkottob.com

الباب السادس

عائشة في الفرق الإسلامية

الفصل الأول

موقف الرأي العام من حياتها

تمهيد

أرادت السيدة لما انحرف الناس عن سنة الرسول وصاحبيه، أن تغير ما ترى من انحراف بلسانها، فكان ما رأيت منها أيام عثمان من صدع بالنقد، وإنكار للمنكر على رؤوس الأشهاد، واستغل أهل الشغب تغييرها ذلك، وإنكارها هذا حتى وقعت الفاجعة بالخليفة الشهيد. فرأت أن ما وقع فيه الناس من عدوان على عثمان أشد كثيرا مما كانت تنكر وينكرون، وانتظرت إيقاع القصاص على المعتدين بأسرع وقت ليزدجر الناس عن العدوان. فلم يكن من ذلك شيء، فثارت، وهاجها أن يضيع دم صحابي جليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذي سوابق في الخير معه وهو الآن خليفة أيضا، فنهضت مطالبة بدمه، وخرجت في وجهها إلى البصرة تدعو الناس للقيام معها في هذا الواجب الذي لا يجوز تركه، وفي إهماله تعطيل لحدود الدين، وإضافة لأحكام القرآن الكريم. نهضت ومن معها للإصلاح، لكن الأمور لم تكن مواتية لما يطلبون، فأفلت الزمام من أيديهم حتى سيق الجميع إلى حرب لم يكن أحد منهم – حاشا المؤلبين على عثمان – لتخطر له على بال، فكانت حرب الجمل.

دفعت السيدة وأصحابها وعلي وأنصاره إلى هذا الصدام دفعا لا خيار لهم فيه، فأسفر عن دماء ألوف كثيرة، وتمنى كل من علي وعائشة أن يكون مات قبل يوم الجمل بعشرين سنة. ثم أيقنت السيدة بخطأ اجتهادها فسلخت عمرها نادمة باكية مستغفرة متحسرة، حتى وافتها منيتها وحسرتها شديدة جديدة ما تبلى.

www.alkottob.com

وفي بعض هذا الندم والحسرة والبكاء والتوبة، كفارة لمجتهد عن خطأ لم يتعمده، أراده خيرا فأسفر عن شر. لكن كثيرا من الناس أو الرأي العام (بتجوز) لم يغفر لها خطأها ذلك. لقد اعتزلت السيدة الأمور العامة، ولكن الأمور لم تعتزلها، ولم تنج عائشة من قسوة الناس عليها لا في حياتها ولا عند مماتها ولا بعد ذلك حتى يومنا هذا.

إنهم افتنوا في التعبير عن نقمتهم في حياتها: هجرا وتعريضا وتقريعا، ثم كان منهم من وقف منها موقفا سلبيا إثر وفاتها، وتتابع الناس يشرحون أقوالها وأعمالها ناقدين: منكرين ومبررين، وأسرف هؤلاء وهؤلاء حتى كثر الأخذ والرد، وتعددت الآراء. ونصبت مجالس المناظرة والحكم، ثم شاعت هذه الآراء وأصبحت موضوعا من موضوعات الجدل وعلم الكلام، ثم تبلورت ودخلت في (العقائد)، وصار لكل فرقة من فرق المسلمين رأيها الرسمي في عائشة، وطفق التطرف يخرج بعض الناس من الاعتذار لها إلى الانتصار المطلق والتصويب الكامل، ويخرج بعضا آخر من النقد إلى الشتم إلى التكفير واللعن.

وإذن لم ينته تأثيرها في المجتمع الإسلامي بانتهاء حياتها، بل أخذ ينمو ويترعرع حتى بعث للسيدة حياة جديدة في الأجيال الإسلامية حتى اليوم.

ونحن هنا ملمون بهذا الأثر، في أطواره الأربعة: في حياتها وعند وفاتها ولدى معايشتها، ثم بعد انقضاء عصرها حتى اليوم، عارضون لخطوطه البارزة التي تكفي لعرض صورة كاملة على القارئ عن حياتها السياسية بعد موتها كما عرف عائشة السياسية في حياتها.

* * *

-١-

لعلك لم تنس كيف استقبل رؤوس الناس من أهل البصرة قدوم عائشة ولا مقالة زيد بن صوحان والأحنف بن قيس وأضرابهما، فقد ضربوا جميعا على وتر واحد عبر عن استهجان الرأي العام خروجها من بيتها إذ لم يفرض على النساء الجهاد والأسفار في سبيل إنكار منكر.

حتى الذين نصروها أدركوا أن خفتهم لنصرتها خطأ من الخطأ، فبدرت من بعضهم في القتال أو بعده كلمات تعبر عن هذا الشعور بالخطأ: مر بك (ص ١٩٩) أن جريحا من بني ضبة أنصار

www.alkottob.com

عائشة كان يفحص الأرض برجله ويقول هذه الأبيات التي نعيدها عمدا هنا لتنعم فيها ثانية، لما بها من صدق التعبير عن رأي كثير من الأنصار وجميع الخصوم:

لقد أورثنا حومه الموت أمنا فلم ننصرف إلا ونحن رواء
لقد كان عن نصر ابن ضبة أمه وشيعتها مندوحة وغناء
أطعنا بني تيم بن مرة شقوة وهل تيم إلا أعبد وإماء

ونحت هذا المنحى أم كعب بن سور قاضي البصرة الذي خرج — كما مر بك — وفي عنقه مصحف يدعو إليه فقتلوه وقتلوا ثلاثة إخوة له خرجوا معه أو أربعة، فجاءت أمهم حتى وقفت عليهم فقالت:

فيا عين جودي بدمع سرب على فتية من خيار العرب
وما لهم غير حين النفوس من أي أميري قريش غلب[١]

وأظرف من ذلك ما رواه المسعودي عن الرجل الأول، فقد قطع أذن رجل من الكوفيين[٢] وقال له: إذا صرت إلى أمك فقالت: من فعل هذا بك؟ فقل: عمير بن الأهلب الضبي مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين[٣]».

لقد جاد هذا الرجل بنفسه وهو أظرف الناس.

وامتعض من مغامرة عائشة في السياسة كثير من الناس أهل الدين والجد، وكفوا ألسنتهم عنها، إلا أنهم هجروها، وقد ذكر لنا منهم الإمام أحمد في مسنده رجلا اسمه حكيم بن أفلح (عم عائشة من الرضاعة):

أتاه سعد بن هشام يريد الدخول معه على عائشة ليسألها عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبى حكيم وقال:

«ما أنا بقاربها، إني نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين، فأبت فيهما إلا مضيا[٤]».

---

(١) الكامل للمبرد ص ٧١٧ طبعة ليدن.

(٢) انظر التفصيل في ص ١٩٩ من هذا الكتاب.

(٣) مروج الذهب ١١/٢.

(٤) مسند أحمد ٥٣/٦.

www.alkottob.com

والظاهر أن بعض أنصار علي سلكوا مسلك حكيم هذا في هجرها، فإن سعد ابن هشام نفسه كان أتى ابن عباس يسأله عن وتر رسول الله، فأحاله ابن عباس على عائشة قائلا: «ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ائت عائشة فاسألها، ثم ارجع إلي فأخبرني بردها عليك[٥]».

كان يستطيع ابن عباس — وبه هذه الرغبة إلى المعرفة — أن يسمع الجواب مشافهة من عائشة، ولا يوسط بينه وبينها هذا الرجل لولا أن موقفه منها ما قدمنا لك.

وقد يفرط بعضهم في القسوة عليها ولا يكتفي بهجرها، بل يدخل عليها بيتها وهي مكسورة النفس فيه، ممتلئة حسرة وندامة، تبكي وتستغفر؛ فلا يرفه عنها، بل يقسو ويقرعها على خروجها، ويذكرها دماء الآلاف المهراقة، وهو ما لا تستطيع نفس السيدة أن تحتمل تصوره، ومن حسن الحظ أن كان هذا القاسي الذي أتى ما ينبو عنه الذوق امرأة — بحمد الله — لا رجلا:

دخلت أم أفعى العبدية على عائشة فقالت: «يا أم المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابنا لها صغيرا؟» قالت عائشة: «وجبت لها النار».

فقالت: «فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفا في صعيد واحد؟!» فاضطرت السيدة إزاء هذه الأذية أن تطردها قائلة: «خذوا بيد عدوة الله[٦]».

على أن من الحق أن نقرر أن كثيرا من خصوصمها الألداء احترموها وانطووا لها على المودة الخالصة وإن أساءهم. ونستطيع أن نعد في هؤلاء أكثر الصحابة: عليا نفسه فمن دونه، فقد عرفت أنه لم يكن ليسمح لأحد أن يذكرها بسوء، وأنه عاقب من وقع فيها كما مر (ص ٢٢٨) وكان يعبر عن احترامه لها إذا ذكرت عنده بقوله: «حليلة رسول الله صلى الله عليه وسلم[٧]».

حتى عمار، عمار الذي دخل عليها قائلا: «يا أمه» فبرئت منه السيدة وجبهته من فورها بقولها: «لست لك بأم»، فأجابها: «بلى وإن كرهت[٨]»... عمار هذا أتاه يوما رجل فنال من

---

[٥] الصفحة السابقة.

[٦] عيون الأخبار ٢٠٢/١ والعقد الفريد ١٠٨/٣.

[٧] الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة ص ٤٢.

[٨] مسند أحمد ٢٠٥/٦.

www.alkottob.com

عائشة عنده، فلم يكن من عمار إلا أن قال له: «اعزب مقبوحا منبوحا (منبوذا)، أتؤذي حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم»، وزاد: «إنها لزوجته في الجنة[٩]».

أما أسرتها فقد كانت عائشة تتلقى نقدهم، وهم — وإن لم يكونوا قساة في نقدهم — قد بلغوا من ذلك ما لم يبلغه أولئك، فإنهم كانوا يختارون لها المزاح أسلوبا يزجون نقدهم فيه فيسير بين الناس ويروى ويتلمح به:

اقتل يوما غلمان عبد الله بن عباس وغلمان عائشة، فأخبرت عائشة بذلك، فخرجت في هودج لها على بغلة لها، فلقيها ابن أبي عتيق حفيد أخيها عبد الرحمن فقال لها: «يا أمي، جعلت فداك، أين تريدين؟» قال: «بلغني أن غلماني وغلمان ابن عباس اقتتلوا، فركبت لأصلح بينهم»؛ فقال: «أعتق ما أملك إن لم ترجعي!!» فقالت: «ما حملك على هذا؟».

قال: «ما انقضى يوم الجمل حتى تأتينا بيوم البغلة!![١٠]».

ولما مات الحسن وأوصى أن يدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن أذنت عائشة فأخرج نعشه يراد به قبر رسول الله، ركب مروان والأمويون ليمنعوا الدفن عنده وكادت تكون فتنة؛ فروى اليعقوبي — ولا أظنه واقعا إلا إذا كانت السيدة قد خشيت الفتنة وأرادت حسم النزاع — ما عرفت من أنها ركبت بغلة شهباء وقالت: «بيتي ولا آذن فيه لأحد» فأتاها ابن أخيها: القاسم بن محمد بن أبي بكر فقال لها..

«يا عمة، ما غسلنا رؤوسنا من يوم الجمل الأحمر: أتريدين أن يقال: يوم البغلة الشهباء؟!![١١]».

---

[٩] الإصابة (ترجمة عائشة) والإجابة ص ٤٢ وابن سعد في الطبقات ٤٥/٨.

[١٠] المزاح في المزاح ص ٣٨ وانظر جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ٣- ويشك مؤلف الكتاب الثاني في مقصد راويها وهو الشرقي بن القطامي، فيقول تعليقا على هذا الخبر الذي رواه الجاحظ عن الشرقي ما يفيدنا في موضوعنا أن نورده لك، قال: «وهذه حكاية أوردها الشرقي لغله ودغله على وجه النادرة لتحفظ ويضحك منها ويتعلق بها من ضعف عمله وقل عزمه، فيكون ذلك أنجع وأنفع لما أراد من التعرض لعرض أم المؤمنين رضي الله عنها» اهـ.

[١١] تاريخ اليعقوبي ٢٦٦/٢ والرواية هكذا لا تصح لأن المعروف أن عائشة أذنت ولكن الأمويين منعوا بقوة.

www.alkottob.com

هذا بعض ما عاينته السيدة في حياتها من جفاء بعض الناس وشدة موقفهم منها: لم يراعوا انكسارها ولا ندمها ولا شعورها بالتبعة الذي أثقلها، وكان حقها عليهم أن يرفهوا عنها ويسلوها وينسوها حزنها.

* * *

-٢-

ماتت السيدة، فعظم الحزن على من شغلت الناس نحوا من خمسين سنة: تعلمهم وتهديهم إلى سنة نبيهم وتحيي فيهم سيرته، واجتهدت للمسلمين وكانت ملجأ المهتدين والملتجئين والمتعلمين على السواء.

والناس حين مماتها فريقان، شأنهم في حياتها: منهم المشيع لها بالرحمة والحزن، ومنهم من منعه موقفها السياسي من المشاركة بالحزن. وأنا أحب أن أشير هنا إلى واحد من أجلاء التابعين وعلمائهم وهو مسروق، فقد قال لما بلغه وفاتها:

«لولا بعض الأمر لأقمت المناحة على أم المؤمنين[١٢]».

يقول هذا من كان إذا حدث عنها قال: «حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله، المبرأة من فوق سبع سموات:... عائشة أم المؤمنين[١٣]».

فما بالك بمن ليس في علم مسروق ولا دينه من خصومها السياسيين، أو الحياديين المعتزلين الذين لم يرقهم موقف أحد من الفريقين.

إلا أن هناك من انتقد موقف هؤلاء من مأتمها نقدا حكيما قويا ظريفا، حفظه لنا ابن سعد في طبقاته؛ فقد سأل أحد الأكابر قادما قدم عليه:

«كيف كان وجد الناس على عائشة؟».

قال: «كان فيهم وكان....» يعني منهم من حزن ومنهم من لم يحزن.

---

[١٢] طبقات ابن سعد ٨/٥٤.

[١٣] طبقات ابن سعد ٨/٤٤ وانظر الإجابة ص ٤١.

www.alkottob.com

فأجاب بهذا الجواب الحكيم: «أما إنه لا يحزن عليها إلا من كانت أمه[١٤]».

يريد أن من لم يحزن عليها فليس بمؤمن.

وهكذا ترى انقسام الناس طائفتين في أمرها، ظهر أجلى ظهور في مماتها: دليلا قويا على أثرها البعيد في حياة المسلمين السياسية.

* * *

---

[١٤] انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٨.

www.alkottob.com

الفصل الثاني

انقسام الرأي العام في أنصارها

لم يقف الأمر عند عائشة، بل كانت نقمة الناس على أنصارها طلحة والزبير وابنه عبد الله الذين أخرجوها أشد وأعظم، وقد لقي عبد الله بن الزبير من ذلك عنتا كبيرا. فكأني بالناس لما تهادنوا ووضعوا السلاح، أنهوا معركة السيف ليبدؤوا معركة اللسان والجدل والبيان. فعقدت المجالس ودار فيها الجدل وتصاول فرسان الكلام من الفريقين تصاولا أذكر الناس بصيالهم في المعارك.

وسترى أن كلمة الأحزاب اجتمعت على عيب عبد الله بن الزبير وتعييره وأباه على إخراج عائشة من الحجاز.

وقد تلقى ابن الزبير وحده هذا اللوم كله، فالناس أجلوا عائشة عن مجابهتها باللوم وقد انقضى الأمر، وقتل طلحة وابنه والزبير في معركة الجمل نفسها، و لم ينج من أقطاب الجمل ذوي الأثر البالغ غير عبد الله بن الزبير، فكان عليه أن يصمد لهجمات الحزبين المتنافسين حينئذ بني هاشم وبني أمية على السواء:

قال ابن الزبير لابن عباس في كلام كان بينهما:

«... قاتلت أم المؤمنين وحواري رسول الله... الخ».

فكان من جواب ابن عباس ما يصدع صدعا، قال:

«..وأما قتالنا أم المؤمنين فبنا سميت أم المؤمنين، لا بك ولا بأبيك، (وكنا لها خير بنين فتجاوز الله عنها[1]...)، فانطلق أبوك وخالك (يعني طلحة) إلى حجاب مده الله عليها فهتكاه عنها، ثم

---

[1] العقد الفريد ٢/٣٣٠.

www.alkottob.com

اتخذاها فتنة يقاتلان دونها، وصانا حائلهما في بيوتهما، فما أنصفا الله ولا محمدا من أنفسهما: أن أبرزا أزواج نبيه وصانا حلائلهما[٢]...».

حتى معاوية الداهية الحليم، كان إذا أتاه أحد من بني هاشم أو ابن الزبير أثار هذه القضية وفتح باب الجدل والمفاخرة وذكر القديم فأوقع بين الوافدين عليه واستقبلهم بما يكرهون، ولا يمنعه في سبيل ذلك أن كان له في حادث الجمل موقفان متضادان: الواحد مع بني هاشم والآخر مع ابن الزبير:

وفد عليه ابن عباس داهية الهاشميين فكان من كلامه له:

«... لا يزال يبلغني عنكم ما لا تبرك له الإبل، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم: خذلتم عثمان بالمدينة وقتلتم أنصاره يوم الجمل...».

وكان من جواب ابن عباس:

«... وأما خذلنا عثمان فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل فعلى خروجهم مما دخلوا فيه[٣]....».

واستقبل معاوية يوما في بعض هذه المجالس الحالفة بالأمويين والهاشميين، عبد الله بن الزبير بهذا الكلام:

«.... وخدعتم أم المؤمنين و لم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مددتم على نسائكم السجوف (الستور) وأبرزتم زوجته للحتوف ومقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هاربا، فلم ينجه ذلك أن طحنه أبو الحسن بكلكله طحن الحصيد بأيدي العبيد، وأما أنت فأفلت بعد أن خشمتك براثنه ونالتك مخالبه. وايم الله ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصبحن منها صباح أبيك بوادي السباع[٤].».

---

[٢] شرح نهج البلاغة ٣/٤٨٩.

[٣] العقد الفريد ٢/٣٢٧.

[٤] العقد الفريد ٢/٣٣٣.

www.alkottob.com

ويبدو لي أن هذا الكلام مصنوع لا يشبه مذهب معاوية، حاكى صانعه غضبة الهاشميين في كلامهم. ولست أذهب إلى أنه مصنوع من أجل ما فيه من السجع فحسب إذ إن السجع أخف الأدلة هنا، ولكن هذا الكلام يصح أن يصدر عن هاشمي لا أموي، فبنو أمية هم روح الحركة الثائرة على علي المطالبة بدم عثمان؛ وهم خدعوا عائشة في الخادعين وقدموا لها الرجال والأموال، ولولا خروج عائشة ما ضعف أمر علي ولا قعد معاوية مقعده ذلك خليفة ملكا، والأمويون كانوا أتباع طلحة والزبير، ومعاوية نفسه كان يحقد على كل من لم ينصر عائشة يوم الجمل، فبعيد جد بعيد أن يعيب الزبير بخداعه أم المؤمنين وقتاله بوم الجمل... فهذا الاتجاه في التأنيب منطق الهاشميين لا الأمويين. بل لقد مر بك أن معاوية حرم الأحنف بن قيس ولاية الهند لسببين أحدهما خذلانه أم المؤمنين(٥). وهذا هو الأشبه أن يكون وهو الموافق منطق الحوادث وفقهها.

وأيا كان فلهذا الخبر المصنوع دلالته على ما تكن نفوس بعض الناس لمن خرج بعائشة هذا الخروج.

لئن كان معاوية لا يحمل هذه الحملة على الزبير وطلحة لخروجهما بعائشة، إنه لم يأل جهدا في إثارة من يحملها بحضرته على ابن الزبير ليشفي نفسه منه. ولعل رواية العقد الفريد فيها خطأ النسبة إلى معاوية، وإلا فلا مانع أن تكون الواقعة وقعت بحضرته، فقد أورد ابن عبد ربه ما يؤيدها على النحو الذي ذهبنا إليه:

كان أبو سعيد بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي يوما عند معاوية فقال لابن الزبير وكان حاضرا:

«... ودعا الزبير إلى أمر كان فيه الرأس امرأة، فلما تراءت الفئتان والتقى الحيان نكص الزبير(٦)...».

ولا بأس بإطلاعك على تتمة هذا الخبر، فقد بدأ بدمشق عند معاوية، وانتهى بالمدينة في الطريق المجاور لحجرة عائشة:

---

(٥) انظر ص من هذا الكتاب.

(٦) العقد الفريد ٣٣١/٢.

www.alkottob.com

أخبرت عائشة بمقالة أبي سعيد ومقالة ابن الزبير[٧]، فمر أبو سعيد بفنائها يوما فنادته «يا أحول، يا خبيث، أنت القائل لابن أختي كذا وكذا؟؟» فالتفت أبو سعيد فلم ير شيئا فقال: «إن الشيطان ليراك من حيث لا تراه!» فضحكت عائشة وقالت: «لله ما أخبث لسانك».

على أن معاوية لم يقصر تقريعه في أمر الجمل وعثمان على هؤلاء فحسب، بل امتد إلى الأنصار أنفسهم: لقد ذكروا أن رهطا من الأنصار دخلوا عليه فقال لهم: «يا معشر الأنصار، قريش خير لكم منكن لهم، فإن يكن ذلك لقتلى أحد فقد قتلتم يوم بدر مثلهم، وإن يكن لإمرة فوالله ما جعلتم لي إلى صلتكم سبيلا: خذلتم عثمان يوم الدار وقتلتم أنصاره يوم الجمل وصليتم بالأمر يوم صفين[٨]».

وقصد الخوارج ابن الزبير في القضية نفسها إذ كان هو القطب الباقي على قيد الحياة من أصحاب الجمل. فلما أرسل يزيد بن معاوية — فيما بعد — مسلم بن عقبة وأهل الشام إلى الحجاز المنتقض عليه، قصد الحروريون (الخوارج) مكة ليمنعوها من جيش الشام، فأحبوا أن يفهموا ما عند ابن الزبير — وكان هو المتغلب على الحجاز — في أبي بكر وعمر والبراءة من عثمان وعلي وطلحة والزبير... الخ فقالوا له من كلام طويل:

«وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا عليا وهو إمام عادل رضي لم يظهر منه كفر، ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا، وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن في بيوتهن....».

وكان في رد ابن الزبير عليهم مما تعلق بعائشة قوله:

---

(٧) انظر تفصيلهما في العقد.

(٨) الإمتاع والمؤانسة ١٦٨/٣ وفيه بعد ذلك: فتكلم رجل منهم فقال: «يا أمير المؤمنين، أما قولك (إن يكن لقتلي أحد...) فإن قتيلنا شهيد وحينا تائب، وأما ذكرك الإمرة فإن رسول الله أمر بالصبر عليها. وأما قولك إنا خذلنا عثمان فإن الأمر في عثمان إلى قتلته، وأما قولك (إنا قتلنا أنصاره يوم الجمل) فذلك ما لا نعتذر منه، وأما قولك (إنا صلينا بالأمر يوم صفين فإنما كنا مع رجل لم نأله خيرا. فإن لمتنا فرب ملوم لا ذنب له). ثم قام هو وأصحابه يجر ثوبه مغضبا، فقال معاوية: «ردوهم» فردوا، فترضاهم حتى رضوا ثم انصرفوا.

وأقبل معاوية على رهط من قريش فقال: «والله ما فرغ من منطقه حتى ضاق بي مجلسي».

www.alkottob.com

«... ومهما ذكرتموهما به (يريد طلحة والزبير) فقد بدأتم بأمكن عائشة، فإن أبى آب أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه: قال الله جل ذكره وقوله الحق: النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم[٩]».

وواضح أن ابن الزبير انحرف في جوابه عن الموضوع.

وبعد حادث الجمل بمئة سنة يسيء عبد الله بن مصعب الزبيري أحد أولاد الزبير الأدب مع عالم الكوفة أبي بكر بن عياش في مجلس الأمير موسى بن عيسى والي الكوفة فيجبهه ابن عياش قائلا: «اسكت، فبأبيك غدر ببيعتنا (يريد بيعة علي بن أبي طالب)، وبقول الزور خرجت أمنا (يريد تحريض الزبير عائشة على الخروج) وبابنه هدمت كعبتنا (يوم اعتصم بها ابن الزبير)، وبك أحرى أن يخرج الدجال فينا!» فضحك موسى حتى فحص برجليه[١٠].

وامتد اللوم إلى غير الأقطاب، والظاهر أن أكثر القبائل التي خفت لنصرة عائشة استهدفت لكثير من التأنيب فيما بعد، هذه الأزد مثلا وهي من أقوى أنصار عائشة كان فيها من يعيب على عامة القبيلة تلك النصرة، فيذكرون في حوادث سنة ٣٨ أن شيمان الأزدي — ولم يكن شهد يوم الجمل — قال لقومه: يا معشر الأزد، ما أبقت عواقب الجمل عليكم إلا سوء الذكر، وقد كنتم أمس على علي فكونوا اليوم له[١١]...» حتى ابنه صبرة بن شيمان وكان ممن نصر عائشة وحضر يوم الجمل قال بعد ذلك:

«إنا والله ما أصبنا بمصيبة في دين ولا دنيا كما أصبنا أمس يوم الجمل».

* * *

وتنقضي مئة عام ويذكر يوم الجمل فيتبرأ عقلاء البصريين من مسارعة بعضهم في أمر عائشة، فيقول أحدهم أبو بكر الهذلي وقد سأله أبو العباس السفاح عن قوله في قتالهم عليا يوم الجمل وشقهم عصا المسلمين: «ما تقول يا أبا بكر» فقال:

---

[٩] الكامل للمبرد (طبعة ليدن ص ٦٠٨) والآية السادسة من سورة الأحزاب ٣٣.

[١٠] أخبار الظراف والمتماجنين ص ٥٨.

[١١] جمهرة خطب العرب ٢٤٧/١.

www.alkottob.com

«معاذ الله أن يجهل أهل البصرة، إنما كانت شرذمة منا شذت عن سبل المنهج واستحوذ عليها الشيطان، وفي كل قوم صالح وطالح». فتأمل[١٢].

وبعد، ففيما قدمت بين يديك ما يقفك على ما في نفوس الناس من طبقات مختلفة نحو خروج عائشة إلى حرب الجمل، ونحو الذين أخرجوها ونصروها ونحو الذين خذلوها، ويبين لك ثانية بوضوح، الأثر الذي أثرته في (عصرها) سلبا وإيجابا. فهذه هي البذور الأولى لقضية عائشة في التاريخ: ألقيت في تربة المجتمع الإسلامي فأنبتت ما سأعرضه عليك بعد قليل من انقسام في أمرها بين فرق المسلمين.

* * *

-٢-

لا جرم أن تفرق السياسة الأمة فرقا لكل فرقة رأيها ومذهبها، وحرب الجمل – كما علمت – وقف جمهور البصريين فيها مع عائشة وجمهور الكوفيين مع علي، ثم انقضت بأيامها وتتابعت عليها السنون، لكنها بقيت مادة لا تنضب في الجدال والمفاخرة: كل قبيلة تفاخر بمواقفها وتؤنب القبائل المعادية على مواقفها... فنرى فيما بعد، أن جريرا الشاعر يعير الفرزدق بما فعل عمه الحتات ابن يزيد المجاشعي من غدره بالزبير، وقد زعموا أنه أجاره لما انصرف من وقعة الجمل، فكان الحتات سبب قتله:

لو كنت حرا يا بن قين مجاشع	شيعت ضيفك فرسخين وميلا[١٣]
قتل الزبير وأنتم جيرانه	غيا لمن غر الزبير طويلا
قال النوائح من قريش: إنما	غدر الحتات ولين والأقرع

وعرفت أن بني تميم منهم من اعتزل الفريقين يتربص، ورأس هؤلاء الأحنف ابن قيس، ومنهم من قاتل مع أصحاب الجمل.، ثم كان بعد ذلك تلاوم بين الفريقين على ما يظهر من هذه الأبيات للحتات بن يزيد المجاشعي نفسه في كعب بن سور الأزدي:

---

[١٢] كتاب البلدان للهمذاني ص ١٦٧.

[١٣] تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ٢٥٨/٣ وشرح ديوان جرير للصاوي (سنة ١٣٥٤ هـ) ص ٤٥٤، ٤٥٥ – لين: لقب غالب بن صعصعة جد الفرزدق.

www.alkottob.com

يلوم على القتال بنو تميم — وما أنا في الحوادث بالمليم
خضبت الرمح من قتلى (علي) — وزحزحت الفوارس عن (تميم)
مقيا في الجماعة ليس حولي — سوى السمر الشرامحة الصميم
وأم المؤمنين لها عجيج — على جمل به عبق العميم
تنادى بالحتات وبابن سور — كأنا في الكتيبة من أديم(؟)
يجالد في الوغى كعب بن سور — كليث الغاب ذي اللبد النشيم
إلى أن حان مصرعه ودارت — رؤوس القوم للكرب العظيم
وكان أخي إذا ما ناب أمر — وقد يبكي الكريم على الكريم(١٤)

وطفق الأولاد والأحفاد من البصريين والكوفيين يثيرون حديث هذه الحرب، ويذكرون مواقفهم مفتخرين، ومواقف خصومهم معيرين عائبين، ويحمى الجدل، وتنشد الأشعار والأراجيز يتناقلها الناس، وصارت العصبية والحمية تكسوان التحزب حللا مغرية، وأخذ الشعراء والرجاز من هذين المصريين ينشئون قصيدهم ورجزهم متملقين الرأي العام في مصرهم، فكان في السياسة بصريون وكوفيون كما في النحو تماما... فيقول أعشى همدان منافحا عن رأي الكوفيين ومهاجما البصريين:

اكسع البصري إن لاقيته — إنما يكسع من قل وذل
واجعل الكوفي في الخيل ولا — تجعل البصري إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا: — ما صنعنا بكم (يوم الجمل)
بين شيخ خاضب عثنونه — وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يرفل في سابغة — فذبحناه ضحى ذبح الجمل
وعفونا فنسيتم عفونا — وكفرتم نعمة الله الأجل(١٥)

---

(١٤) المصدر السابق ٣/٢٦٠ — المليم الفاعل ما يلام عليه، السمر الشرامحة: الرماح الطوال.. العميم: الكثير، النشيم: ما فيه نقط بيض وسود.

(١٥) فجر الإسلام ص ٢٢٣ (الطبعة الثالثة) والأغاني ٥/١٤٩ (طبعة الساسي) كسعه: ضربه على دبره بصدر قدمه. الرفل: جر الثوب تبخترا وخيلاء. الرفل: المتبختر، أما الرفل (بكسر ففتح فتشديد) فهو الكثير اللحم الطويل الذنب. السابغة: الدرع الطويلة.

www.alkottob.com

وتتناقل الألسنة أبيات الأعشى وتمر السنون وتعقد المجالس تتذاكر البصريين والكوفيين ومآتي كل... حتى إذا كانت أيام ابن الزبير، أتى الشعبي البصرة فدخل مسجدها فجلس إلى قوم من بني تميم فيهم الأحنف بن قيس...، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، وفاخروا بينهم إلى أن قال قائل من أهل البصرة: «وهل أهل الكوفة إلا خولنا استنفذناهم من عبيدهم «يعني الخوارج»... فيحمى الشعبي لبلده الكوفة ويريد أن يدفع البصريين فتسعفه ذاكرته بأبيات أعشى همدان التي منها الأبيات الآنفة، فيتمثل بها مجادلا، فيضحك الأحنف ويقول: «يا أهل البصرة قد فخر عليكم الشعبي وصدق وانتصف، فأحسنوا مجالسته[١٦]».

وحضر رد عند الشعبي هذا فقال له: «كل أمهات المؤمنين أحب إلا عائشة» فأجاب الشعبي: «أما أنت فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم: كانت عائشة أحبهن إلى قلبه[١٧]».

وتجاوزت هذه العصبية الشعراء والزعماء إلى العلماء فصار غير واحد من كل بلد يؤلف منافحا عن بلده مثل تأليف الهيثم بن عدي (-٢٠٧) كتاب (فخر أهل الكوفة على البصرة[١٨]).

واستمرت الفرقة السياسية بين البلدين حتى بعد حادث الجمل بعشرات السنين، (وتبلر) لكل مصر منهما رأي سياسي واضح فيما كان من أحداث الجمل وفي أبطاله أيضا حتى قالوا:

«من نزل الكوفة فلم يقر لهم بفضل بثلاث فليست له بدار؛؛ بفضل ماء الفرات ورطب المشان وفضل علي عليه السلام.

---

[١٦] الأغاني ١٤٩/٥، ١٥٠. والظاهر أن الأحنف بن قيس لقي من الكوفيين عنتا كبيرا من كثرة إنشادهم أبيات الأعشى الآنفة في حلقته، فكان أحيانا يضطر إلى لقاء مجالسيه بغير ما عهد من حلمه متمثلا بقول النابغة الجعدي:

ولا خير في حلم إذا لم تكن له ... بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

فقد أتاه يوما كوفي يفاخر في حلقته ويقول: «أفتدرون ما قال أعشى همدان فينا وفيكم؟» وأنشد من الأبيات السابقة، فغضب الأحنف وقال لجاريته: «هاتي تلك الصحيفة» فإذا فيها: «من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف بن قيس ومن قبله من مضر: أما بعد، فويل لمضر من شر أمر قد حضر، وإن الأحنف مورد قومه حر سقر، حيث لا يقدر لهم على صدر. ولقد بلغني أنكم تكذبون رسلي؛ ولئن فعلتم لقد كذبت الرسل من قبلي ولست بخير منهم والسلام». فيلتفت الأحنف إلى الكوفي ويقول: «هذا (الدجال) منا أو منكم؟ كيف تفاخر أهل البصرة وهذا منكم؟!). انظر مخطوطة تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٢١/٢.

[١٧] روضة المحبين ص ١٨٧.

[١٨] الفهرست لابن النديم ص ١٤٦.

www.alkottob.com

«ومن نزل البصرة فلم يقر لهم بثلاث فليست له بدار: بفضل عثمان وفضل الحسن البصري ورطب الأزاذ[١٩]».

ثم ذك الهمذاني أنه اجتمع عند أبي العباس (السفاح) أمير المؤمنين عدة من بني علي وعدة من بني العباس وفيهم بصريون وكوفيون، منهم أبو بكر الهذلي وكان بصريا، وابن عياش وكان كوفيا؛ فقال أبو العباس تناظروا... الخ فاعترض بعض العلوية وهو الحسن بن زيد فقال:

«يا أبا بكر: أما قاتلتم عليا يوم الجمل؟».

فقال: «بلى، قاتله شرذمة منا وكف الله عز وجل أيدينا وسلاحنا عن قتله نظرا منه لنا، ثم رجع إلى الكوفة فقتلوه وولده وولد ولده وبني عمه، وأخرجوا الحسن بن علي بعد بيعتهم له حتى هرب منهم».

فقال ابن عياش: «بل قصر الله أيديكم بطول أيدي (أهل) الكوفة وبنصرهم عليكم. وكيف تعيرنا بباطل رجل واحد منا يبلغ بباطله ما عجز عنه عامتكم؟ ولقد حدثني أشياخ من النخع أن أهل الكوفة كانوا يوم الجمل تسعة آلاف رجل مع أمير المؤمنين عليه السلام وكان عليه ثلاثون ألفا مع طلحة والزبير وعائشة، فلما التقوا لم يكن أهل البصرة إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف».

فقال أبو بكر: «ومتى كان أهل البصرة ثلاثين ألفا يقاتلون أمير المؤمنين عليه السلام وقد اعتزلهم الأحنف بن قيس في سعد والرباب وقد دخلنا بعد ذلك الكوفة فذبحنا بها ستة آلاف رجل من أصحاب نبيهم (المختار) كما يذبح الحملان...الخ».

قال ابن عياش: «أتاكم أهل الكوفة يوم الجمل مع علي فقتلوكم، فأرى أهل الكوفة غالبين ومغلوبين: على الحق، وأرى أهل البصرة غالبين ومغلوبين على الباطل[٢٠]».

فأنت ترى تغلغل حادث الجمل وأبطاله عائشة وصحبها في حياة الجماهير في البصرة والكوفة وما صار له من الأثر في العامة حتى ليضارع ما لأبطال القصص كعنترة والزير وأضرابهما من

---

[١٩] كتاب البلدان للهمذاني ص ١٦٦-١٦٨.

[٢٠] كتاب البلدان للهمذاني ص ١٦٦-١٦٨.

www.alkottob.com

الاشتغال بهم والتعصب لهم أو عليهم. فهذا خلف بن تميم الدرامي يسمع ابن المبارك يقول: «من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ بالكوفة فيترحم على عثمان!» فتحدثه نفسه بذلك فيدخلها فيرى فيها الأرطال والكيالج ويتصور أنه سيموت ضربا بها فيكره هذه الميتة فلا يقول شيئا[٢١].

ويقرأ يوسف بن مقلد جزءا على أبي البركات العلوي الزيدي الكوفي فيمر به ذكر عائشة فيترضى عنها فيقول له الأستاذ الكوفي: «أتدعو لعدو علي؟!»[٢٢] ثم تذكر لنا كتب الأدب أسماء ثلاثة من العامة أو أشباههم أوصلهم استغراقهم في حب أبطالهم إلى شيء من الغفلة أورد لك خبرهم مثلا لكثير من الناس غيرهم:

كان بالبصرة ثلاثة إخوة من ولد عتاب بن أسيد:

كان أحدهم يحج عن حمزة (عم النبي صلى الله عليه وسلم) ويقول: استشهد قبل أن يحج»!.

وكان الآخر يضحي عن أبي بكر ويقول: «أخطأ السنة في ترك الأضحية»

وكان الثالث يفطر عن عائشة أيام التشريق!! ويقول: «غلطت في صومها أيام العيد؛ فمن صام عن أبيه وأمه فأنا أفطر عن أمي عائشة[٢٣]»!!.

وأوضح مما تقدم في تعلق العامة بعائشة وحبهم لها ما روي عن ابن الجصاص — وإن كان في باب النكتة ألصق — من قوله يوما «اللهم امسخني حوية وزوجني بعمر بن الخطاب» فقالت له زوجته: «سل الله أن يزوجك بالنبي صلى الله عليه وسلم!» فقال: «ما أحب أن أكون ضرة لعائشة رضي الله عنها»!.

حتى المدلسون من الرواة طمحوا على التكثر بشرف الرواية عنها، فيذكر السخاوي أن سهيل بن ذكوان أبو السندي روى عن عائشة وزعم «أنه لقيها بواسط!!» قال السخاوي: «وهكذا يكون الكذب، فموت عائشة كان قبل أن يخط الحجاج مدينة واسط بدهر[٢٤]».

---

(٢١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ١٦٩/٥.

(٢٢) بغية الوعاة ٣٥٩.

(٢٣) عيون الأخبار ٥٥/٢.

(٢٤) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التوريخ ص ٩.

www.alkottob.com

هذا أثرها في حياة عامة الشعب يبين لك ناحية مغايرة للناحية التي رأيتها آنفا عن أثرها في الخاصة.

www.alkottob.com

الفصل الثالث

في تناول الفرق الإسلامية أعمال عائشة

ما انقضت المئة الأولى على الهجرة النبوية حتى كانت بذور التفرقة قد نجمت في الجسم الإسلامي، وتناول رؤوس الفرق مسائل من مسائل الاعتقاد يبحثون فيها وجوهها المختلفة وينتهون من بحوثهم إلى رأي من الآراء يستقرون عليه.

كان من جملة مسائلهم أعمال الخلفاء الراشدين والحكم على الفريقين المتحاربين يوم الجمل ويوم صفين. ويعنينا هنا عرضهم لعائشة وأصحاب الجمل بالتصويب أو التخطئة وحكمهم عليهم بالكفر أو الإيمان. ودخول عائشة وأفعالها موضوعا لبحوثهم (يشرحون) مآتيها، آخر دليل وأقواه على أثرها في المجتمع الإسلامي وتكفير طوائفه... أثرا ماثلا في حياة المسلمين الفكرية والوجدانية أربعة عشر قرنا ونصف قرن منذ وفاة الرسول حتى يوم الناس هذا. أما إفرادهم حادث الجمل بالتصنيف فقد قام به نفر غير قليل ومن المنتظر أن يؤلف فيه خاصة الأخباريون من العلماء، وقد فتحت صفحة ١٣٦ وإلى جانبها ١٣٧ من كتاب الفهرست لابن النديم وفيهما تراجم ستة علماء، أربعة ألف كل منهم (كتاب الجمل) أبو مخنف ونصر بن مزاحم وإسحاق بن بشر وسيف بن عمر وهذا الأخير زاد في تسمية كتابه فجعلها (كتاب الجمل ومسير عائشة وعلي) وهذا كاف في الدلالة على اهتمام المجتمع بعائشة وأحداثها بل هو مجاوز حد الكفاية إلى الإكثار.

رأي أهل السنة

فأما أهل السنة فقد عدلوا جميع الصحابة وتولوهم واعتقدو نجاتهم، وكان رأيهم في فريقي الجمل المتحاربين رأيا جميلا، فقد ذهبوا إلى أنهم جميعا أرادوا الخير والإصلاح واجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد. أما أي الفريقين مصيب وأيهما مخطئ فليس لأهل السنة رأي رسمي حاسم في ذلك، بل الحكم متروك لاجتهاد كل مجتهد، فمنهم من رأى أن عليا مصيب، ومنهم من رأى أن عائشة وصحبها هم المصيبون، وفريق ثالث وقف و لم يصوب أحدا منهم و لم يخطئه.

www.alkottob.com

أما الذين ذهبوا إلى أن الحق مع علي فقد رأوا أنه هو الإمام الذي بايعه الناس، وهو الذي يقيم الحدود ويقاضي الناس، فليس لأحد حق في أن يثأر لمظلوم أو مقتول، وعلى الناس إمام عادل لم يجر. ورأوا أيضا أن على الإمام رد الخارجين عليه أيا كانوا: عائشة فمن دونها، وعلى هذا يكون محقا في خروجه إلى أصحاب الجمل، ويكون جنوده جميعا أعوانا له على هذا الحق.

وأما الذين رأوا أن عائشة وصحبها هم المحقون فإنهم رأوا أن عثمان قتل مظلوما في الشهر الحرام، وأن هذا حدث في الإسلام لا يصح السكوت عليه، ورأوا أن كثيرا من المؤلبين عليه والمباشرين لسفك دمه التحقوا بعلي و لم يعجل قصاصهم، وأن هذا تعطيل للحدود، وهو منكر كبير ينبغي تغييره باليد والسيف، فخرجوا لإقامة هذا الحد والقصاص من قتلة عثمان، ولو أسرع علي بإقامة هذا الحد ما خرجوا عليه، وقالوا: «من آوى الظالمين فهو إما مشارك لهم، وإما ضعيف عن أخذ الحق منهم، وكلا الأمرين حجة في إسقاط إمامة من فعل ذلك ووجوب حربه[1]». ثم رأوا لزوم تغيير هذا المنكر بالقوة وهم يستطيعونها، فلا يجزئهم إنكاره بالقلب ولا باللسان ولهم قدرة على التغيير باليد، فقاموا بهذا الغرض الأساسي في الإسلام وهم خرجوا للإصلاح لا للقتال.

وأما الفريق الثالث فقد رأى أن كلا من الفريقين يعتد بحجج غير ضعيفة وأن معه وجها من الحق، فالأمر ملتبس. والفريقان حسنا النية مجتهدان في الخير ولهما الماضي الجليل في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأييد الدعوة بأموالهم وأنفسهم فليس من السهل أن ينحرفا عمدا عن الجادة، فوقفوا و لم يقطعوا لأحد بالصواب أو الخطأ. ورأوا أن تغيير المنكر باليد مؤد إلى فتنة كبيرة لا يقاس إليها هذا المنكر الذي يراد تغييره، فاعتزلوا الفريقين وعلى رأس هؤلاء سعد بن أبي وقاص الصحابي الجليل وعبد الله بن عمر وأبو موسى الأشعري وغيرهم. فاكتفوا بإنكار المنكر بالقلب وباللسان أحيانا واجتنبوا خوض الفتن جميعا.

ثم ارتضى أهل السنة مع الزمن الكف عما شجر بين الصحابة، لا يعرضون له بتصويب ولا تخطئة، وكثر بينهم ترديد هذه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(1) الفصل لابن حزم ١٥٣/٤ فما بعد.

www.alkottob.com

«أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم[٢]».

«الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضا من بعدي[٣]».

«خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم[٤]».

«لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه[٥]».

ثم رأوا أن هؤلاء الصحابة شهدوا المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهم السابقة في نصرة الدعوة واحتمال الأذى في سبيل الله، فأقل ما يجب علينا أن نحفظ رسول الله في أصحابه وأزواجه. فأصحاب هذه المقالة يتولون الجميع ويظنون بهم خيرا، ولعل كلمة الحسن البصري أو الإمام مالك تعبر عنهم خير تعبير فقد سئل عن هذه الفتن فقال:

«تلك دماء طهر الله منها أسيافنا فلا نلطخ بها ألسنتنا».

ومثلها يروى عن عمر بن عبد العزيز فقد قيل له: «ما تقول في علي وعثمان وفي حرب الجمل وصفين؟».

قال: «تلك دماء كف الله يدي عنها، فأنا أكره أن أغمس لساني فيها[٦]».

ثم (تبلور) هذا الرأي مع الزمن ودخل العقيدة الرسمية لأهل السنة، وصاروا يثبتونه في المتون التي يحفظونها طلبة العلم، فترى في متن الزبد للشافعية في هذا الموضوع:

وما جرى بين الصحاب نسكت   عنه، وأجر الاجتهاد نثبت[٧]

ونجد في (متن الشيبانية) للحنفية هذا البيت في الموضوع نفسه:

ونمسك عن حرب الصحابة والذي   جرى بينهم كان اجتهادا مجردا

---

(٢) تيسير الوصول ٣/٢٦٠.

(٣) صحيح الترمذي وتتمته: «... فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه».

(٤) تيسير الوصول ٣/٢٥٩، وانظر صحيح البخاري ك ٥٢ ب) (طبعة ليدن) ومسند أحمد ١/٣٧٨.

(٥) مسند أحمد ٣/١١ وتيسير الوصول ٣/٢٥٩. النصيف: النصف، أي نصف مد.

(٦) الإمتاع والمؤانسة ٣/١٨٣.

(٧) الزبد (لأحمد بن رسن) ص ٨.

www.alkottob.com

وقد صح في الأخبار أن قتيلهم وقاتلهم في جنة الله خلدا[٨]

وفي متن السنوسية هذا البيت:

وأول التشاجر الذي ورد إن خضت فيه واجتنب داء الحسد[٩]

ولا ينبغي أن ننسى أن هذا الذي انتهى إليه الزمن من رأي ارتضوه، ليس مما لا يجوز عندهم غيره، لا فالأمر على الاتساع: فلك أن تعتقد بإصابة علي في حرب الجمل أو خطئه، كما لك مثل ذلك في أصحاب الجمل... على شرط واحد هو ألا تظن سوءا بالمخطئ، وألا تخرجك التخطئة كما أخرجت بعض أهل الفرق: إلى تكفير أو تفسيق أو ذم أو نفي تعديل.

وأنت في ذلك إنما تترسم خطا الصحابة أنفسهم، وأرجو ألا تكون نسيت كلمة علي نفسه في مخالفيه: «إنما هم إخواننا بغوا علينا»، وقوله فيهم: «إن قومنا زعموا أن البغي كان منا عليهم، وزعمنا أنه كان منهم علينا. وإنما اقتتلنا على البغي و لم نقتتل على التكفير[١٠]».

فإن أنت أخرك الغلو إلى شيء من ذلك فقد انحرفت عن الجادة وخرجت على الجماعة، إذ قدحت بأحد أصحاب رسول الله وهو الشيء الذي لا يغتفرونه لأحد، ويرون فيه الخطر كل الخطر على دين القادح.

وخير تعبير عن رأيهم فيمن انتقص السيدة خاصة أو أباها قصيدة اشتهر بعض أبياتها، نظمت على لسان السيدة تحتج لنفسها وتذكر خصائصها وتحمل على خصومها وتجادلهم في فضل أبيها: وقد حظينا بها كاملة في مخطوط قديم[١١] نثبتها لك لما فيها من الدلالة الوافية على موقف أهل السنة أخيرا وحجاجهم في هذا الموضوع. ولكتابنا هذا الفخر بأنه أول كتاب ينشرها كاملة بعد أن عثرنا على أصل لها قديم نادر الوجود:

---

[٨] مجموعة المتون (مطبعة الحلبي سنة ١٣٤٠ هـ): متن الشيبانية ص ٣٧.

[٩] المصدر السابق ص ١٤.

[١٠] مر هذا في ص ٢٢٣ ومنها تعرف أن ميل بعض الناس إلى تكفير مخالفيهم في حرب الجمل نشأ بعد الموقعة نفسها.

[١١] بعض أبيات هذه القصيدة في كتاب (المحاسن المجتمعة في الخلفاء الأربعة للصفوري) مخطوط، في دار الكتب الظاهرية منه نسختان رقمهما: تاريخ ٨٢٨ (ص٢٩)، تاريخ ٤٤١ (ص ٦٠). وقد أظفرنا الحظ بالقصيدة كاملة في مخطوط قديم هو ورقة واحدة عاثت فيها الإرضة، وخطها سقيم لم نستطع حله إلا بصعوبة ووقت طويل. وهو في ملك السادة آل عبيد الأفاضل (أصحاب المكتبة العربية بدمشق)، كتبت — على تقدير الأستاذ أحمد عبيد — في المئة الثامنة للهجرة. وقد أعاننا الأستاذ أحمد علي حل بعض الكلمات وأباحنا نشر المخطوط فله الشكر على الإعانة والإباحة.

www.alkottob.com

«.... أنبأنا الشيخ أبو الطاهر عبد المنعم (؟) بن موهب المصري[١٢] الواعظ، قال: أنشدنا أبو عمران موسى بن محمد بن عبد الله الأندلسي الواعظ لنفسه في مدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وأجازه الأفضل أمير الجيوش عليها بمئة دينار مصرية:

ما شأن أم المؤمنين وشاني ... هدي المحب لها وضل الشاني
إني أقول مبينا عن فضلها ... ومترجما عن قولها بلساني:

* * *

يا مبغضي لا تأت قبر محمد ... فالبيت بيتي والمكان مكاني
إني خصصت على نساء محمد ... بصفات بر تحتهن معان
وسبقتهن إلى الفضائل كلها ... فالسبق سبقي والعنان عناني
قبض النبي ومات بين ترائبي[١٣] ... فاليوم يومي والزمان زماني
زوجي رسول الله لم أر غيره ... الله زوجني به وحباني
وأتاه جبريل الأمين بصورتي ... فأحبني المختار حين رآني
أنا بكره العذراء عندي سره ... وضجيعه في منزلي قمران[١٤]
وتكلم الله العظيم بحجتي ... وبراءتي في محكم القرآن
والله في القرآن قد لعن الذي ... بعد البراءة بالقبيح رماني
والله فضلني وعظم حرمتي ... وعلى لسان نبيه براني
والله وبخ من أراد تنقصي ... إفكا، وسبح نفسه في شاني[١٥]
إني لمحصنة الإزار بريئة ... ودليل حسن طهارتي إحصاني
والله خصصني بخاتم رسله ... وأذل أهل الإفك والبهتان
وسمعت وحي الله عند محمد ... من جبرئيل ونوره يغشاني

---

[١٢] وقد تكون: (المعري).

[١٣] مات رسول الله صلى الله عله وسلم في حجر عائشة: أسندت رأسه إلى صدرها — الترائب: عظام الصدر.

[١٤] القمران: أبو بكر وعمر، دفنا إلى جنب رسول الله في حجرة عائشة، فكأنهما ضجيعاه.

[١٥] إشارة إلى الآية الكريمة في قصة الإفك: {ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم} [النور: ١٦/٢٤].

www.alkottob.com

أوحى إليه وكنت تحت ثيابه ... فحنا علي بثوبه وحباني
من ذا يفاخرني وينكر صحبتي ... ومحمد في حجره رباني
وأخذت عن أبوي دين محمد ... وهما على الإسلام مصطحبان
وأبي أقام الدين بعد محمد ... فالنصل نصلي والسنان سناني
والفخر فخري والخلافة في أبي ... حسبي بهذا مفخرا وكفاني
وأنا ابنة الصديق صاحب أحمد ... وحبيبه في السر والإعلان
نصر النبي بماله وفعاله ... وخروجه معه من الأوطان
ثانيه في الغار الذي سد الكوى ... بردائه، أكرم به من ثان
وجفا الغنى حتى تخلل بالعبا ... زهدا وأذعن أيما إذعان
وتهللت بفم[١٦] ملائكة السما ... وأتته بشرى الله بالرضوان
وهو الذي لم يخش لومة لائم ... في قتل أهل البغي والعدوان
قتل الألى منعوا الزكاة بكفرهم ... وأذل أهل الكفر والطغيان
سبق الصحابة والقرابة للفدى ... هو شيخهم في الفضل والإحسان
والله ما استبقوا لنيل فضيلة ... مثل استباق الخيل يوم رهان-
- إلا وطار أبي إلى عليائها ... فمكانه منها أجل مكان
ويل لعبد خان آل محمد ... بعداوة الأزواج والأختان
طوبى لمن والى جماعة صحبه ... ويكون من أحبابه (الحسنان)
حب (التبول) و(بعلها) لم يختلف ... من ملة الإسلام فيه اثنان
أكرم بأربعة أئمة شرعنا ... فهم لباب البيت كالأركان
بين الصحابة والقرابة ألفة ... لا تستحيل بنزعة الشيطان
نسجت مودتهم سدى في لحمة ... فبناؤها من أثبت البنيان
رحماء بينهم، صفت أخلاقهم ... وخلت قلوبهم من الشنآن
هم كالأصابع في اليدين تواصلت ... هل تستوي كف بغير بنان

---

[١٦] في الأصل (وتحلب بفم) هكذا بلا نقط، فرأينا أقرب شيء ما أثبتناه.

www.alkottob.com

الله ألف بين ود[١٧] قلوبهم		ليغيظ كل منافق طعان
فدخولهم بين الأحبة كلفة		وسباهم سبب إلى الحرمان
حصرت صدور الكافرين بوالدي		وقلوبهم ملئت من الأضغان
وإذا أراد الله نصرة عبده		من ذا يطيق له على الخذلان
جمع الإله المؤمنين على أبي		واستبدلوا من خوفهم بأمان
من حبني فليجتنب من سبني		إن كان صان محبتي ورعاني
وإذا محبي قد ألظ[١٨] بمبغضي		فكلاهما في البغض مستويان
إني لطيبة خلقت لطيب		ونساء أحمد أطيب النسوان
إني لأم المؤمنين فمن أبي		حبي فسوف يبوء بالخسران
الله حببني لقلب نبيه		وإلى الصراط المستقيم هداني
والله يكرم من أراد كرامتي		ويهين ربي من أراد هواني
والله أسأله زيادة فضله		وحمدته شكرا لما أولاني
يا من يلوذ بأهل بيت محمد		يرجو بذلك رحمة الرحمن
صل أمهات المؤمنين ولا تحد		عنها فتسلب خلة الإيمان
إني لصادقة المقال كريمة		إي والذي دانت له الثقلان

* * *

خذها إليك فإنها هي روضة		محفوفة بالروح والريحان
صلى الإله على النبي وآله		فبهم تتم أزاهر البستان

ويبدو أن هذا الموضوع عني بالنظم فيه غير واحد، فقد رأيت في مخطوط في دار الكتب الظاهرية قصيدة للإمام عمر الأريحاوي تبلغ (٢٣) بيتا أولها:

خليلي ما من ثيب، لا ولا بكر		كعائشة بنت الإمام أبي بكر... الخ

رأي الخوارج:

---

[١٧] في الأصل: راد.
[١٨] ألظ بالشيء: لزمه.

www.alkottob.com

انتهى الخوارج في حرب الجمل إلى رأي حاسم لا جدل فيه عندهم[19]، وهو أن عليا مصيب في حربه أصحاب الجمل، وأصحاب الجمل عائشة وطلحة والزبير... كلهم مخطئون بمقاتلتهم عليا خارجون على الدين كافرون[20]. وتجمع فرقهم كلها على هذا الحكم، فأصحاب الجمل عندهم حلال دمهم وماهم وأعراضهم.

حتى إنهم احتجوا على علي عقب يوم الجمل قائلين:

«ما يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟».

فأجاب علي: «بأنهم إخواننا لا تحل أموالهم».

فقالت الخوارج: «ما ندري ما هذا؟».

فقال علي: «هذه عائشة رأس القوم: أتتساهمون عليها؟».

قالوا: «سبحان الله هي أمنا».

قال: «فهي حرام؟».

قالوا: «نعم».

قال: «فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها[21]».

ولم يقتنع الخوارج بهذه الحجة، ولا غفروا لعلي هذا الخطأ بزعمهم، فقد عاد أصحاب النخيلة (طائفة منهم) يحاجون ابن عباس في أخطاء علي التي كفر بها عندهم، فكان من جملتها كفه عن سبي النساء من أصحاب الجمل. ومن كلامهم له في ذلك:

---

[19] انظر: الفصل لابن حزم ١٥٣/٤ والفرق بين الفرق ص ٥٥ والتبصير في الدين للاسفرايني ص ٢٦ – هذا ويتولى الخوارج عليا منذ ولي الخلافة إلى حادث التحكيم بعد معركة صفين، ويبررون أعماله كلها في هذه الفترة. أما منذ قبوله التحكيم فقد كفر، وهم يتبرؤون من أعماله فيما بعد ذلك.

[20] سفر السعادة للسخاوي رقمه ١٤ آداب منثورة، وفي آخره خطوط أحدها كتب سنة ٦٣٨ هـ بسفح قاسيون. (دار الكتب الظاهرية).

[21] ص من هذا الكتاب.

www.alkottob.com

«إن كان علي على حق لم يشك فيه وحكم مضطرا فما باله حيث ظفر لم يسب؟» فقال ابن عباس: «... فأما قولكم في السباء أفكنتم سابين أمكم عائشة؟؟».

فوضعوا أصابعهم في آذانهم وقالوا:

«أمسك عنا غرب لسانك يا بن عباس فإنه طلق ذلق غواص على موضع الحجة[٢٢]».

رأي المرجئة:

قاعدة المرجئة المشهورة: «لا تضر المعصية مع الإيمان كما لا تنفع الطاعة مع الكفر[٢٣]».

وعلى ذلك لا يكفرون أحدا من المتقاتلين في حرب الجمل ويقولون بنجاتهم جميعا. وإن كان بعضهم ذهب على أن عليا هو المصيب في حربه[٢٤]، فذلك لا يدعوه إلى الحملة على المخطئ بتكفير. وبذلك سلمت السيدة عائشة وأصحابها من ألسنتهم ونقدهم.

رأي المعتزلة

هؤلاء أبعد الفرق الإسلامية في تحكيم العقل والاعتماد على منطقه، عرضوا أعمال الصحابة على النقد فحاكموها وقضوا فيها بما أداهم إليه عقلهم، لم يغلوا في حرب الجمل غلو الخوارج القائلين: «إن عائشة وطلحة والزبير كفروا بمقاتلتهم عليا وكان يومئذ على الحق ولكنه كفر بعد التحكيم[٢٥]»، ولا وقفوا في أمر الصحابة حياديين الوقفة التي ارتضاها كثير من أهل السنة فيما بعد، بل أعملوا عقولهم فذهب جمهورهم إلى أن عليا محق بقتاله أصحاب الجمل[٢٦]، واستدلوا على ذلك بأقوال طلحة والزبير وعائشة (وقد مرت بك) المشعرة بندمهم على الخروج،

---

[٢٢] الكامل للمبرد ص ٥٧٧ (طبعة ليدن).

[٢٣] التبصير في الدين ص ٦٠.

[٢٤] الفصل لابن حزم ٤/١٥٣.

[٢٥] التبصير في الدين ص ٤١.

[٢٦] الفصل ٤/١٥٣.

www.alkottob.com

وبتوبتهم[٢٧] التوبة النصوح المخلصة. لكن هذه التخطئة لا تحمل فريقا منهم (الإسكافي وصحبه) على تكفير أو تفسيق، فهم يتولوهم جميعا.

فأشبه هؤلاء جمهور الأمة الذين يقولون: «إن فريقي حرب الجمل كانوا مؤمنين مسلمين ولكن الحق كان مع علي رضي الله عنه، والآخرون كانوا على خطأ اجتهاد لا يلزم به الكفر ولا الفسق، ولا التبري والعداوة[٢٨]».

وهناك فريق من المعتزلة لم يقطع على عائشة وأصحابها طلحة والزبير... ولا على علي وجيشه بخطأ أو صواب لكنهم قطعوا أن إحدى الفرقتين — لا على التعيين — مخطئة ولا يعرفون أيهما هي[٢٩]؟». من هذا الفريق واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف وطوائف غيرهم. إلا أن وقوفهم لا يشبه وقوف من قدمنا لك من الصحابة كسعد بن أبي وقاص وابن عمر، ولا وقوف جمهور أهل السنة فيما بعد، بل رتبوا عليه نتائج افترقوا بها عن أولئك، فهم يقطعون بفسق إحدى الطائفتين لا على التعيين.

فأما واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فرأيا — على ما حكى عنهم صاحب الانتصار —[٣٠] أن عليا وطلحة والزبير وعائشة أبرار أتقياء مؤمنون، قد تقدمت لهم سوابق حسنة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهجرة وجهاد وأعمال جليلة، ثم وجداهم قد تحاربوا وتجالدوا بالسيوف فقالا: «قد علمنا أهم ليسوا بمحقين جميعا، وجائز أن تكون إحدى الطائفتين محقة والأخرى مبطلة، و لم يظهر لنا: من المحق منهم من الباطل؟ فوكلنا أمر القوم إلى عالمه وتولينا القوم على أصل ما كانوا عليه قبل القتال؛ فإذا اجتمعت الطائفتان قلنا: قد علمنا أن إحداكما عاصية ولا ندري أيكما هي؟».

---

(٢٧) الانتصار ص ٩٨- وقد عمم ابن أبي الحديد هذا الرأي كأنه جامع أهل الاعتزال عليه، فحكى عن المعتزلة أهم يقولون: (كل أهل الجمل هالكون إلا من ثبتت توبته مثل عائشة وطلحة والزبير) شرح نهج البلاغة ٢٩٦/٣ وهو تعميم — كما سترى — غير وارد.

(٢٨) التبصير في الدين ص ٤١.

(٢٩) الفصل لابن حزم ١٥٣/٤.

(٣٠) ص ٩٧.

www.alkottob.com

ثم ذهب واصل يفرع على ذلك ويقول: «لو شهد عندي رجلان من هذا العسكر ومن ذلك العسكر لم أقبل». فقيل له: «لو شهد من هذا العسكر علي والحسن والحسين وابن عباس وعمار بن ياسر... ومن ذلك العسكر عائشة وطلحة والزبير... هل تقبل شهادتهم؟» فقال: «لو شهدوا جميعا على باقة بقل لم أقبل[٣١]». وبذلك قال أتباعه (الواصلية) وهم من فرق المعتزلة.

ووافق عمرو بن عبيد (رأس فرقة العمرية من المعتزلة) واصلا على مذهبه. لكن رواية ثانية — لم أطمئن إليها — تذهب إلى أنه زاد عليه وغلا، وأنه كان يقول: «كلا الفريقين من أصحاب حرب الجمل فسقوا وهم خالدون مخلدون في النار[٣٢]». وتبعه على ذلك فرقته (العمرية) فهؤلاء كسابقيهم لا يقبلون شهادة أحد من فريقي حرب الجمل.

رأي الشيعة

أما وقد بلغنا في هذا الموضوع إلى رأي الشيع فإنا نرى من الواجب التنبيه إلى أمرين اثنين:

١- ليس كل ما يورده الناس على أنه من آراء الشيعة هو من مذهبهم المعترف به.

٢- ليس كل ما نقرؤه في كتاب لشيعي — في هذا الموضوع خاصة: موضوع الكلام على الصحابة وما جرى بينهم — هو الرأي الرسمي للشيعة.

بعد هذا التنبيه الذي لا بد منه أستهل الكلام بحكم لمتشيع مشهور هو ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة الشرح الكبير المستفيض، لأن بين يدي الآن كثرة هائلة من الأحاديث التي تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: بعضها في تفضيل قوم من أصحابه وبعضها في ذم قوم آخرين منهم، وأقل نظرة يلقيها منصف بصير على هذه الأحاديث كافية في استبعادها عن الرسول وصحبه والقرن الذي يليه.

قال ابن أبي الحديد العالم المتشيع:

---

[٣١] التبصير في الدين ص ٤١.

[٣٢] المصدر نفسه ص ٤٢. وهذا يخالف ما تقدم آنفا من أن عمرو بن عبيد يرى مع واصل والعلاف أن إحدى الفرقتين لا على التعيين عاصية.

www.alkottob.com

«أعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم. فلما رأت البكرية (يريد بعض السنيين) ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها (أبي بكر) أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث. فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية أوسعوا في وضع الأحاديث. ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسابه، ولقد كان في فضائل علي الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما[٣٣]».

وهو قول طريف، وأزيد أنا على ذلك فارقا: أن هناك ميدانا غير ميدان المناقب الذي وصف ابن أبي الحديد اشتراك الفريقين في الوضع فيه، هناك ميدان آخر صال فيه بعض المنتسبين إلى الشيعة وجالوا – وكف أهل السنة عن أن يحوموا حوله بله الدخول فيه. ذلك هو ميدان الطعن في الصحابة: فأهل السنة دانوا الله بإجلال الصحابة جميعا مصيبهم ومخطئهم، وحماهم مذهبهم أن يطعنوا في أحد منهم، أما أولئك فقد أباحوا لأنفسهم الطعن في خصومهم طعنا قاتلا، ووضعوا لذلك الأحاديث والأخبار المختلقة ترويجا لمذهبهم السياسي على نحو ما نرى من حرب الدعاية لعصرنا هذا.

* * *

يذهب الشيعة — فيما خص حرب الجمل — إلى أن عليا هو صاحب الحق، وأنه هو المصيب في حربه أصحاب الجمل، وأن الخارجين عليه عائشة وطلحة والزبير ومن معهم مخطئون لخروجهم على الإمام الحق.

هذا هو ما أجمعوا عليه عامة: معتدلهم ومتطرفهم جاهلهم وعالمهم، وليس فيه — كما ترى — انحراف عن الاعتدال، ويستطيع أن يقوله سني دون أن يحيد عن سنيته) شعرة واحدة، وكذلك المعتزلي. وحكى ابن حزم أن هذا مذهب جميع الشيعة وبعض أهل السنة وبعض المرجئة وجمهور المعتزلة[٣٤].

---

(٣٣) وجدت هذا النقل في كتاب (الإسلام الصحيح) للعلامة النشاشيبي ص ٣١٢، ولم يذكر رقم الصفحة التي هي فيه من شرح نهج البلاغة، غير أنه أشار إلى أن ابن أبي الحديد لم ينتفع بعلمه هذا في كثير مما يورده من أحاديث.

(٣٤) الفصل ٤/١٥٣.

www.alkottob.com

* * *

وهنا ينتهي تقريرنا المذهب الرسمي الجامع للشيعة الأولين فيما خص أصحاب الجمل وعائشة خاصة. ونشرع الآن لمعرفة أثر السيدة في أهل الفرق الشيعية أفرادهم وطوائفهم، ببيان هذه الآثار بادئين بأقدمها وأخفها. وسترى أن الآثار هنا عنيفة لا تشبه ما رأيت عند بقية الفرق لسبب واحد هو أن السياسة والشعوبية والزندقة الباطنة عملت عندهم عملها النشيط البليغ ظاهرا وخفية.

لم تكن الخلافة من هم المعتزلة ولا المرجئة ولا الخوارج، إذ لم يكن لفرقة من هذه الفرق أسرة مرشحة للحكم، وعلى هذا سلمت هذه الفرق من تعرض الحكام المتسلطين لهم إلا إذا أحرجتهم هي، وكادت لهم، وثارت عليهم، وحملتهم على الحرب حملا: كالخوارج.

أما الشيعة فهم الحزب السياسي الخطر على الأمويين والعباسيين وحتى [على] ملوك الطوائف ودولة العثمانيين من بعدهم، لأن أعظم الأسس في مذهبهم أن الخلافة حق صريح من حقوق بني هاشم فلا تصح إمامة غير هاشمي أيا كان. وهم مكلفون دينا ببذل كل وسع في رد الحق إلى أهله. فلذلك أهم أمرهم بني أمية وبني العباس ومن بعدهم، ونزل بهذه الطائفة من الويلات ما يعرفه كل مطلع على التاريخ. بل إن تاريخهم سلسلة متصلة من المآسي والنكبات.

وأمر آخر يعنينا هنا وهو أن عدواتهم لمن حاربوا عليا عداوة شديدة لم يخفف منها مضي قرنين أو ثلاثة على تلك الحروب، لأنهم يرون — وفي رأيهم حق — أنه لولا هذه الحروب لتوطد الأمر لعلي وفرغ لإدارة الإمبراطورية الواسعة فملأها عدلا ورخاء وسعادة وبقيت الخلافة في ذريته الأطهار ونعم الناس بحكمهم.

وخصوا عائشة من حملاتهم وطعناتهم بما لم يخصوا غيرها للسبب المتقدم إذ كانت زعيمة أصحاب الجمل والمطاعة فيهم. وإذا دققت النظر في الحوادث التي مرت بك، وجدت ما وجدوا تماما من بليغ أثرها في زعزعة ولاية علي من قواعدها.

فلولا عائشة ما استقام لطلحة والزبير الخروج، ولو خرجا ما استجابت لهما الجماهير التي لم يثرها شيء مثل وجود أم المؤمنين على رأس الجموع، ولكفي علي مؤونتهما على أيسر سبيل دون افتراق الناس واقتتالهم، ولوجد من الوقت ما يسعفه في القضاء على كيد معاوية والأمويين.

www.alkottob.com

فلا تستغرب بعد هذا ما سأعرضه عليك من هذه السلبية العنيفة التي قابل بها الشيعة فيما بعد — وخاصة عوامهم — عائشة أم المؤمنين، ولا بأس بتنبيهك ثانية إلى أنه إذا مررت برأي أو قول أو رواية لأحد من غلاة الشيعة فليس لك أن تحمل عليه المذهب أو أهله كلهم.

* * *

أخف ما يلفت نظر المدقق هو أنهم إذا اضطروا إلى رواية عنها أو خبر يتعلق بها في معرض خير، طووا ذكرها تورعا أن يذكروها بجميل: فتجد مثلا في أمالي المرتضى رواية ابن عباس: «إن الميت ليعذب ببكاء أهله...» وهو حديث صححته السيدة عائشة لابن عباس(٣٥).... فإذا بلغ المرتضى استدراك عائشة عليه، لم يذكرها وإنما اكتفى بقوله «وروي عن بعض أزواج الرسول... الخ(٣٦)».

ثم قولوها ما لم تقل ونسبوا إليها ما لم تأت، فزعموا أنها هي التي أمرت أباها أن يصلي بالناس في مرض الرسول، وأن رسول الله أوصى إلى علي واستدعاه فاستدعت أباها بدله(٣٧).

وأنكرت الوصاية، ونسبوا إليها أنها هي التي أمرت بقتل عثمان بن عفان كانت تقول: «اقتلوا نعثلا فقد كفر» وقد عرفت بطلان ذلك(٣٨).

حتى الأمور المتواترة المشهورة المعلومة من الدين بالضرورة والتي سارت مسير الشمس شهرة، لا يجد بعض الشيعة بأسا في العدول بها إلى غير جهتها إرضاء لأهوائهم العصبية وتعزيزا لمذهبهم السياسي:

لقد كان حادث الإفك المشهور، ونزلت في براءة السيدة عائشة آيات في سورة النور: {إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم} [النور: ٢٤/١١] وتضافرت على رواية خبر الإفك كتب السير والتواريخ والحديث والأخبار... وعرف كل مسلم وكل مطلع على التاريخ العربي أن هذه

---

(٣٥) انظر في ذلك ص ٧٧ من كتاب (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة).

(٣٦) أمالي المرتضى ١٨/٢- فإذا عرفت أن عائشة نفسها من تكن تطيب نفسها بذكر علي بخير (ص ٨٢ من هذا الكتاب) رأيت في عمل هؤلاء جزاء وفاقا.

(٣٧) شرح نهج البلاغة ١٩١/٣.

(٣٨) انظر ص ٥٥، ٢٦ من هذا الكتاب وانظر توهين ذلك في (منهاج السنة) ١٨٨/٢.

www.alkottob.com

الآيات نزلت في عائشة كما عرف أن محمدا هاجر إلى المدينة مثلا؛ ومع ذلك فقد حكى ابن أبي الحديد المتشيع أن الشيعة تقول: «إن البراءة التي في سورة النور هي في السيدة مارية القبطية لا في السيدة عائشة[٣٩]».

ثم ترقوا في الحب والبغض حتى دفعت بعضهم العصبية العمياء إلى أمور مضحكة شفت عما يتميزون من الغيظ، وما يأكل صدورهم من الكراهية والحقد حتى أنكروا عقولهم واندفعوا في سخف فاضح.

إنهم تكلفوا غاية التكلف الباطل في أن المراد بـــ (أهل البيت) في سورة الأحزاب ضمن آيات بدئت بـــ: «يا نساء النبي...»: علي وفاطمة وذزيتهما لا أزواجه صلى الله عليه وسلم، وبذلك خالفوا الصريح الواضح البديهي لهذه الآيات الكريمة:

{يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا (*) وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا (*) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا} [الأحزاب: ٣٣/٣٢-٣٤][٤٠].

أوردت لك ما قبل الآية التي فيها (أهل البيت) وما بعدها لترى كيف يغرب بعض الناس في أفهامهم، لا يردهم عن هواهم وحدة سياق ولا تناقض معنى ولا تحطيم نسق.

ثم ارتقوا درجة في التهوين من شأن أمهات المؤمنين جملة ليصلوا من ذلك إلى تهوين أمر عائشة، فلهجوا برواية حديث فيه:

«أذكركم الله في أهل بيتي...»، لما ورد فيه من سؤال وجواب هذا نصهما:

---

[٣٩] شرح نهج البلاغة ٣/٢٩٦.

[٤٠] ومن أجل هذه الآيات وما قبلها ذهب الإمام ابن حزم إلى أن نساء النبي أفضل الصحابة على الإطلاق، فعائشة وأخواتها أمهات المؤمنين أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي... واحتج لذلك بحجج منطقية سديدة تجدها في رسالته المنشورة في آخر كتابنا (ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة).

www.alkottob.com

فقلنا: «من أهل بيته؟ نساؤه؟» فأجاب راوي الحديث: «لا وايم الله، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها، أهل بيته: أصله وعصبته[٤١]».

وقول زيد بن أرقم راوي هذا الحديث — إن صحت نسبته إليه — فيه بعد، والله قد رفع شأن المرأة وكرم[٤٢] نساء النبي صلى الله عليه وسلم بصريح القرآن، فمن المستبعد جدا أن ينفي قول ينسب إلى صحابي ما صرح به التنزيل وما كانت دلالته صارخة واضحة[٤٣].

ثم ترقوا من ذلك إلى زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوض إلى علي بن أبي طالب أن يطلق من شاء من أزواج النبي بعد وفاته(!!!)، وأن عليا (مارس) هذا الحق فطلق عائشة من النبي يوم الجمل (بالنيابة عن زوجها المتوفى قبل التطليق المزعوم بخمس وعشرين سنة)، وحرمها بذلك شرف كونها من أمهات المؤمنين عقابا لها، وقد نقل في ذلك الأستاذ النشاشيبي في كتابه (الإسلام الصحيح) نقولا أنا مثبتها لك دون تعليق، قال:

«و لم يجتزئ ذو مأربة بمثل هذا الحدث (حديث زيد بن أرقم آنفا) وغيره، بل طلقوا بعض نساء النبي (يعني بعد مماته) عابثين غير مبالين بسخرية الساخرين، ففي روح المعاني[٤٤]:

رأيت في بعض كتب الشيعة نفي الأمومة عن عائشة. قالوا: لأن النبي فوض إلى علي أن يبقى من يشاء من أزواجه، ويطلق من يشاء منهن بعد وفاته وكالة عنه. وقد طلق عائشة يوم الجمل، فخرجت عن الأزواج و لم يبق لها حكمهن.

ورأيت في كتاب ألفه سليمان بن عبد الله البحراني في مثالب جمع من الصحابة ما نصه: روى الطبرسي في كتاب (الاحتجاج) عن سعيد بن عبد الله أنه سأل القائم المنتظر وهو طفل في حياة

---

[٤١] صحيح مسلم ١٦٢/٧ (المطبعة العامرة بالأستانة).

[٤٢] انظر الباب الثاني من كتابنا (الإسلام والمرأة) فهو خاص بنساء النبي أمهات المؤمنين.

[٤٣] روى عكرمة عن ابن عباس: {إنما يريد الله} إلخ) في نساء النبي خاصة.

وقال عكرمة: «من شاء باهلته أنها نزلن في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم».

وكان عكرمة هذا ينادي في السوق: «إن قوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت} نزل في نساء النبي صلى الله عليه وسلم — روح المعاني ٤٣/١ وانظر في تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر تعليقه لمهذبه في ص ٢٠٥ من الجزء الرابع.

[٤٤] انظرها في الجزء السادس ص ٤٦.

www.alkottob.com

أبيه! فقال له: «يا مولانا وابن مولانا، روي لنا أن رسول الله جعل طلاق نسائه إلى أمير المؤمنين حتى إنه بعث في يوم الجمل رسولا إلى عائشة وقال:

(إنك أدخلت الهلاك على الإسلام وأهله بالغش الذي حصل منك، وأوردت أولادك في موضع الهلاك بالجهالة، فإذا ما امتنعت وإلا طلقتك) فأخبرنا يا مولانا عن معنى الطلاق الذي فوض حكمه رسول الله إلى أمير المؤمنين».

فقال:

«إن لله تقدس اسمه عظم شأن نساء النبي فخصهن بشرف أمهات المؤمنين فقال (النبي) يا أبا الحسن، إن هذا الشرف باق ما دمن على طاعة الله، فأيتهن عصت بعدي بالخروج عليك فطلقها من الأزواج وأسقطها من شرف أمهات المؤمنين».

وروى الطبرسي في (الاحتجاج) عن الباقر أنه قال: لما كان يوم الجمل وقد رشق هودج عائشة بالنبل قال علي: «ما أراني إلا مطلقها، فأنشد الله رجلا سمع رسول الله يقول (يا علي، أمر نسائي بيدك من بعدي) لما قام فشهد». فقام ثلاثة عشر رجلا فشهدوا بذلك الحديث.

ورأيت في بعض الأخبار التي لا تحضرني الآن ما هو صريح في وقوع الطلاق» اهـ ما قال البحراني[٤٥]». ا هـ.

ولست أشك في أن أكثر هذه الروايات لفقها غير أهل البصر من الشيعة ونسبوها لأئمة مرضيين تملقا للعوام أشباههم، وترويجا لبضاعتهم عندهم.

ثم جاء منهم من قذفها وافترى عليها وأنكر اختصاصها بأم المؤمنين[٤٦]....

وتناولوها بسلاح آخر غير سلاح الروايات الملفقة، فشارك شعراؤهم في النيل منها ومن طلحة والزبير وسائر جموعها، وما أكثر ما تجد أمثال قول القائل:

جاءت مع الأشقين في هودج   تزجي إلى البصرة أجنادها

---

[٤٥] الإسلام الصحيح ص ٨٦، ولا تعترض بركاكة ما نسب لعلي أو للنبي، فركة عقول الوضاعين هبطت على ألسنتهم.

[٤٦] انظر تفصيل ذلك في منهاج السنة ١٨٢/٢ و لم أثبته مفصلا لأن عقيدة الشيعة وخاصة الإمامية اليوم بريئة من هذا القذف – انظر في ذلك جواب المجتهد الشيعي السيد محمد محسن الأمين العاملي لنا عن عقيدة الشيعة في أمهات المؤمنين، في كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥.

www.alkottob.com

كأنها في فعلها هرة تريد أن تأكل أولادها

وقد نظم بعضهم ما زعموا أنه حديث وهو: «يا حميراء، كأني بك تنبحك كلاب الحوءب تقاتلين عليا وأنت له ظالمة[٤٧]» فقال:

إني أدين بحب آل محمد وبني الوصي شهودهم والغيب
وأنا البريء من الزبير وطلحة ومن التي نبحت كلاب الحوءب[٤٨]

واشتط آخرون في تأويل بعض الآيات والانحراف بها عن مدلولها انحرافا مضحكا، فإذا تلوا قول الله تعالى حكاية عن موسى يخاطب قومه: {إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة} [البقرة: ٦٧/٢] زعموا: أن المراد بالبقرة عائشة[٤٩]!

ثم غلا الغلاة منهم في شأنها وشأن طلحة والزبير وأبي بكر وعمر وعثمان، فجاوزوا الطعن والبراءة إلى اللعن الصريح، ثم جاء قوم فجعلوا لعن عائشة ومن ذكرنا قربة يتقربون بها إلى الله، حتى إنك لترى لعنهم في أدعية مأثورة ونسبوا بعضها إلى علي بن أبي طالب نفسه بينما أقوال علي وأفعاله كلها متضافرة على تعظيم هؤلاء وحبهم والاستغفار لهم، وقد مر بك قوله في طلحة والزبير وعائشة عقب حرب الجمل... وبعض هذا كاف في إبطال ما ينسبونه إليه، وقد أجله الله عن أن يكون لعانا لأصغر الناس فكيف يلعن الأجلاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه.

---

[٤٧] قال الإمام الحافظ المحدث شيخ الإسلام ابن تيمية: «أما الحديث: تقاتلين عليا وأنت ظالمة» فهذا لا يعرف في شيء من كتب العلم المعتمدة، ولا له إسناد معروف، وهو بالموضوعات المكذوبات أشبه منه بالأحاديث الصحيحة، بل هو كذب قطعا: فإن عائشة لم تقاتل و لم تخرج لقتال، وإنما خرجت بقصد الإصلاح بين المسلمين.... الخ منهاج السنة ١٨٥/٢.

وهذا من ابن تيمية نقد داخلي لمتن الحديث، ومن أدلة الوضع عندهم مخالفة الحديث للواقع، وواقع التاريخ يؤيد ما ذهب إليه ابن تيمية.

[٤٨] العقد الفريد ١٠٨/٣.

[٤٩] انظر (مقدمة في أصول التفسير) لابن تيمية ص ٢٢ (دمشق مطبعة الترقي ١٩٣٦) ونقل بعدها من المضحكات شيئا كثيرا. كقولهم إن المراد بقوله تعالى: {فقاتلوا أئمة الكفر} طلحة والزبير.. الخ. سجل ابن قتيبة تفسير بعضهم (اضربوه ببعضها) قائلا: بعضها طلحة والزبير، والخمروالميسر: أبو بكر وعمر، والجبت والطاغوت: معاوية وعمرو — تأويل مختلف الأحاديث ص ٨٦؟

www.alkottob.com

وأي كان، فقد توارث بعض الشيعة هذا اللعن وتلك الأدعية، ونسبوها — زورا — إلى علي، وتقربوا إلى الله بهذا اللعن، فإذا فتحت كتابهم (مفتاح الجنان) وهو كتاب أدعية يشبه (دلائل الخيرات) الذي يقبل عليه العوام في مصر والشام، وجدت في جملة الأدعية دعاء صدروه بهذا الكلام:

(هذا دعاء صنمي قريش من كلام أمير المؤمنين عليه السلام).

ووجدته يبتدئ هكذا:

«اللهم صل على محمد وآل محمد، والعن صنمي قريش وجبتيهما وطاغوتيهما وإفكيهما وابنتيهما.... الخ[٥٠].

وكان بعض أهل السنة يقابلون هذا العدوان على صحابة رسول الله خبرا بخبر وشعرا بشعر، يدافعون هجمات خصومهم دون أن ينالوا من أئمة الشيعة لأنهم أئمتهم أيضا، فما أكثر ما تجد من مقالاتهم في إعظام عائشة وطلحة والزبير وأبي بكر وعمر الخ.

وقد يدفع التخرب بعضهم — كما قال ابن أبي الحديد آنفا — أن يقابل اختلاق الروايات باختلاق مثله. ثم ترى الشعراء أيضا ينافحون عن هؤلاء الصحابة ويردون مطاعن الشيعة عنهم، فترى كثيرا من أمثال القصيدة التي أثبتها لك آنفا في السيدة عائشة، ولا تنس أن إجازة الأمير لصاحبها بمئة دينار، لها دلالتها في هذا الباب فكان انتصار الشاعر للشعور العام المعتدى عليه مما يرضى عنه حينئذ.

ثم إن غلو بعض الشيعة غير المعقول حمل فريقا على كره علي، وكان ذلك بمثابة (رد الفعل) أو (عكس التأثير) كما يقولون، وسمي هؤلاء بالناصبة، وجعلوا يتتبعون أقوال الشيعة في حملاتهم فيحملون مثلها، فربما أتوا أحيانا بالسائغ المعقول (ظاهرا) وربما شاهوا أولئك في بعدهم عن الحق والمنطق. فمما يقبل من كلامهم مما يمس موضوعنا ما أورده ابن تيمية في صدد حرب الجمل وحملة الشيعة على طلحة والزبير، لأنهما أخرجا عائشة من بيتها و لم يراعوا حرمة الرسول في زوجه:

---

[٥٠] مفتاح الجنان ص ١١٤- وظاهر أنهم يريدون بالصنمين أبا بكر وعمر وبابنتيهما عائشة وحفصة زوجتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وانظر الكافي للكيني ٣/٣٩١.

www.alkottob.com

مما يقوله الناصبي (ردا على حملة الشيعة) في التشنيع على علي:

«... إن ذنب من جعل جملها هدف السهام وجعله غرض الإهانة من عسكره، أعظم من ذنب من أخرجها من بيتها كالملكة يأتمر بأمرها.... فبأي وجه يلقى رسول الله الأول؟....[٥١]».

هذا وربما أدى الخروج على الأدب في الطعن عليهم إلى شيء من العنف فيما بعد: فالطبري يذكر لنا في حوادث سنة (٢٤١) أن صاحب خان عاصم ببغداد واسمه عيسى بن جعفر شتم أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة جهارا أمام الناس، فشكوه إلى القاضي وشهد عليه سبعة عشر رجلا، فجاء أمر الخليفة أن يضرب في مجمع الناس حد الشتم، ثم خمس مئة سوط بعد الحد للأمور العظام التي اجترأ عليها من لعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر، «فإن مات ألقي في الماء من غير صلاة ليكون ذلك ناهيا لكل ملحد في الدين خارج من جماعة المسلمين[٥٢]».

ويروي ابن الجوزي حادثا مشابها وقع بعد قرن من الحادث السابق فيقول: «كان في الموضع المعروف ببراثا مسجد يجتمع فيه قوم ممن ينسب إلى التشيع: يقصدونه للصلاة والجلوس، فرفع إلى المقتدر بالله أن الرافضة يجتمعون في المسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة، فأكر بكسبه يوم الجمعة وقت الصلاة، فكبس وأخذ من وجد فيه فعوقبوا وحبسوا حبسا طويلا، وهدم المسجد حتى سوي بالأرض وعفي رسمه ووصل بالمقبرة التي تليه ومكث خرابا إلى سنة ثمان وعشرين وثلاث مئة[٥٣]».

ويروي المسبحي أن قاضي القضاة عبد العزيز بن النعمان منع المنشدين والنائحين في القاهرة التكسب في يوم عاشوراء سنة ٣٩٦ هـ من النوح والنشيد وإلزام الناس بإعطائهم... ثم اجتمع بعد ذلك طائفة منهم يوم الجمعة في الجامع العتيق بعد الصلاة وأنشدوا وخرجوا على الشارع بجمعهم وسبوا السلف، فقبضوا على رجل ونودي عليه: «هذا جزاء من سب عائشة وزوجها» وقدم الرجل بعد النداء وضربت عنقه[٥٤]».

---

[٥١] منهاج السنة ٢/١٩٥.

[٥٢] تاريخ الطبري ٧/٣٧٥.

[٥٣] المنتظم لابن الجوزي ٦/٣١٧.

[٥٤] العدد ٨٥٤ من مجلة الرسالة للزيات ص ١٥٩٤ العمود ٢. وللمسبحي هذا كتاب مفقود في تاريخ الدولة الفاطمية.

www.alkottob.com

* * *

وعرفت بعض الأمصار حينا من الزمن بشدة الغلو في التشيع حتى صار يختفي فيها أهل السنة، ومن ظهر منهم كتم مذهبه خشية على روحه، ويصور لنا هذه الشدة خير تصوير طرفة عن أحد الظراف: قالوا: إنه كان يمشي في أحد هذه الأمصار حين غلبة الشيعة وكان يكنى أبا بكر، فإنه ليمشي بين الناس إذ نادته امرأة تعرفه: «يا أبا بكر» فما كان أسرع الرجل إلى أن يقول: «لبيك يا عائشة!» ولم يكن هذا اسمها فاستغربت تقول: «سبحان الله كأن اسمي عائشة» قال الرجل: «أتريدين أن يقتلوني وحدي إذن؟!».

* * *

رأي أحد مجتهدي الشيعة اليوم:

وجدت من الأمانة للبحث أن أسأل أحد مجتهدي الشيعة اليوم عن رأيهم الرسمي في السيدة عائشة وعن المصادر المعتمدة عندهم، فبعثت إلى الشيخ الجليل السيد محمد محسن الأمين العاملي مفتي الشيعة الأكبر في الشام بأسئلة أحدها:

«ما رأي الشيعة في السيد عائشة خاصة وجميع ما كان منها؟ ثم؛ ما رأيكم الخاص بصفتكم أحد مجتهدي الشيعة الكبار اليوم؟[٥٥]».

فوردت أجوبته مفصلة في (الثالث من المحرم سنة ١٣٦٣ هـ) وهاك جوابه عن موضوعنا حذفت منه الحوادث التي مرت بك قبل ذلك تجنبا للتكرار، قال:

«وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن السيدة عائشة أم المؤمنين كانت راوية للحديث بصيرة بالفقه جريئة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ظهر منها ذلك في عدة مواضع حفظها التاريخ لا يتسع المقام لذكرها: منها قولها له في غزاة فتح مكة: «إنك تزعم أنك رسول الله فما لك لا تعدل (كما في السيرة الحلبية)، ولما أراها ولده إبراهيم لترى ما بينه وبين ولده من عظيم الشبه قالت: (إنها لا ترى بينهما شبها) ولتكاد تتهم مارية بما يعرف النبي براءتها منه.

---

[٥٥] وقبل هذا، سؤال عن عقيدتهم في أمهات المؤمنين عامة، نشرت جواب السيد عنه كاملا في كتابي (الإسلام والمرأة) في حاشية الصفحات ٨٥-٨٧ فارجع إليه لعلاقته ببحثنا هنا.

www.alkottob.com

ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل مظهرة الطلب بدم عثمان وهي كانت أعظم المحرضين عليه[٥٦]... وقد قال النبي لأزواجه: «ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب، تخرج تنبحها كلاب الحوءب، يقتل عن يمينها ويسارها قتلى كثيرة[٥٧]» وقد أمرت أن تقر في بيتها بقول تعالى: {وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} [الأحزاب: ٣٣/٣٣].

ويعتذر المعتذرون لها بأنها اجتهدت فأخطأت أو أذنبت فتابت ورحمة الله واسعة. ويصعب علينا الإذعان بأن هذا كان اجتهادا، وإذا جردنا أنفسنا عن التقليد ونظرنا نظرا لم يتأثر بشيء وجدناه بعيدا عن الاجتهاد غاية البعد.

ثم نقل السيد ما تمثلت به عائشة لما بلغها نعي علي بن أبي طالب وقد مر بك (ص٨٢، ٢٥٥ وزاد نقلا من مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني)-:

ثم تمثلت:

ما زال إهداء الصغائر بيننا شتم الصديق وكثرة الألقاب

حتى تركت كأن قولك فيهم في كل مجتمع طنين ذباب

وقال بعض علماء الأعصار الأخيرة من الشيعة:

(عائش) ما نقول في قتالك سلكت فيه سبل المهالك

ويا حميرا سبك محرم لأجل عين ألف عين تكرم[٥٨]»

ا هـــ جواب السيد

فأنت ترى أن هذا المجتهد الشيعي نفى أن تكون السيدة مجتهدة مخطئة كما هو رأي بعض أهل السنة، و لم ينص على أنها مذنبة تائبة كما يرى المعتزلة، أو كافرة كما يرى غلاة الشيعة

---

[٥٦] نقل السيد هنا حديث ابن أم كلاب عن الطبري وابن الأثير وقد ذكرناه مع ما يرد عليه ص ٦٧ و٨٤ فما بعد.

[٥٧] انظر في نقد هذا الحديث ص ١٠٦-١١٠ من هذا الكتاب.

[٥٨] انتهى ما نقلناه من كلام السيد، ومن المفيد أن نثبت هنا جوابه لنا عن المراجع المعتمدة عند الشيعة، قال:

«المراجع المعتمدة عند الشيعة كتب السيد المرتضى وأمثاله (؟) من أعيان الشيعة، وتجدون كثيرا من آرائه وأقواله منقولة في شرح النهج الحديدي المطبوع. ومن المراجع المعتمدة في التفسير مجمع البيان للطبرسي المطبوع ومروج الذهب للمسعودي في التاريخ، وإن كان الاعتماد عليها لا يعني أن جميع ما فيها صواب فلا يتره عن الخطأ غير كتاب الله العزيز» ا هـــ وأنصف السيد.

www.alkottob.com

والخوارج. ولعل كلمته (ويرون أنها أخطأت بخروجها على الإمام العادل) معبرة عن رأيه الاجتهادي الخاص هو ومن على شاكلته من معتدلي الشيعة المتقدمين والمتأخرين وكثير من أهل السنة يقول هذه الكلمة نفسها. وقد ذكر السيد اعتذارين عنها: (اجتهدت وأخطأت) و(أذنبت فتابت)، ثم نفى الاعتذار الأول وسكت عن الثاني؛ فهل سكوته أخذ بهذا الثاني كما يتبادر إلى الذهن؟ لست أدري. وأنا أردت منه حكما صريحا فجاء كما ترى!! على أن القول الثاني (أذنبت فتابت) هو رأي السيدة عائشة في نفسها كما عرفت.

أما ابن أبي الحديد — وكتابه شرح نهج البلاغة من المراجع المعتمدة عند الشيعة في رأي السيد محمد محسن الأمين العاملي — فينص على أن «الإمامية كفروا أصحاب الجمل كلهم الرؤساء والأتباع[٥٩]».

هذا ولا تناقض عندهم — ولا عند غيرهم — بين زوجية المرأة للنبي وكفرها كما كان كتب إلي السيد نفسه[٦٠].

والذي نخرج به مما تقدم كله أن الشيعة ذهبوا في السيدة عائشة من ناحية مغامراتها السياسية مذاهب سلبية مختلفة فيها المعتدل وفيها الغالي المتطرف، وأن للمرء أن يعتقد في أمرها — بعد إثبات الحق والصواب لعلي — ما يشاء دون أن يخرج عن شيعيته، فالأمر على الاتساع، ومتأخروهم صائرون إلى الاعتدال، وتحكيم العقل بعض التحكيم، ومجانبة التقليد بعض المجانبة. أما القذف فينكرونه أشد الإنكار لأن عقيدتهم صريحة في أن أزواج الأنبياء يجوز عليهن الكفر ولا يجوز عليهم الخطيئة[٦١].

* * *

وقبل أن أختم هذا الفصل، أرى من الضروري أن أنبه على أمرين مهمين:

الأول — قد اندس في الشيعة كثير من الذين تظاهروا بالإسلام غشا وكيدا فأفسدوا عقائد المسلمين، وحملوا إلى الإسلام كثيرا من عقائدهم القديمة ونحلهم الأجنبية: المجوسية أو اليهودية.

---

[٥٩] شرح نهج البلاغة ٣٩٦/٣.

[٦٠] انظر كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد.

[٦١] انظر جواب السيد في كتابنا (الإسلام والمرأة) ص ٨٥ فما بعد.

www.alkottob.com

وكان هدفهم الأول تهديم المجتمع الإسلامي سياسة وأخلاقا وعقيدة، وجعلوا غلوهم في التشيع أحبولة لخداع الطيبين من الشيعة وأهل السنة، فقبلوا عنهم كثيرا من آرائهم الهدامة، وسرت هذه الآراء، ودان بها جماعة كثيرون وتسربت إلى مصادر كثيرة بعضها محترم؛ واحتال هؤلاء الدساسون فجعلوا على آرائهم الصبغة التي تسهل إساغتها في الحلوق، حتى صعب على الناقد من مخلصي الشيعة تمييزها من غيرها واختلط الحابل بالنابل.

هذا أمر واقع لا شك فيه، وبعض العلماء يعني هؤلاء الدساسين حين يقول (الرافضة[٦٢]) فليس الرافضة عندهم هم الشيعة، ولكن ذلك الفريق الذي دخل الإسلام ليوهنه ويفسد على أهله دينهم، وعلى الأمة وحدتها وقتها. وأوضح مثل أورده لك هو عبد الله بن سبأ الذي رأيته في مكره وكيده وغشه وخطر الهدف الذي يهدف إليه، والبطل الأول الذي (طبخ) فاجعة عثمان وحرب الجمل. وأكثر هؤلاء يبتغون الثأر لقوميتهم التي أضاعها الإسلام أو نحلتهم التي أضعف أمرها.

وابن تيمية لم يبعد من الصواب حين قال:

«إن الرافضة من أول مقاصدها النيل من الإسلام وحربه، وإنهم الباب الذي وضعه أولو الزندقة من المجوس للدخول إلى عقائد المسلمين وتزييفها[٦٤]» ثم استشهد بعدة وقائع أعان فيها الرافضة الكفار على المسلمين في خراسان ومصر والشام والعراق والجزيرة.

ويرى المؤلف نفسه «أن الرافضة وحدها من بين سائر الأهواء بنوا بدعتهم على زندقة وإلحاد، وليس كذلك الخوارج ولا غيرهم[٦٥]».

---

[٦٢] أول من أطلق هذه الكلمة (الرافضة) على فريق من غلاة الشيعية: الإمام زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رأس (الزيدية) فقد سأله هذا الفريق من شيعة الكوفة فقالوا: «رحمك الله، ما قولك في أبي بكر وعمر؟» قال زيد: «رحمهما الله وغفر لهما، ما سمعت أحدا من أهل بيتي يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيرا»... ففارقوه ونكثوا بيعته إذ لم يتبأ من أبي بكر وعمر، فسماهم (الرافضة) – تاريخ الطبري ٤٩٨/٥- وكان زيد هذا أعلم آل علي، ورواياته وفتاويه عمدة (الزيدية) اليوم. قتل في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢هـ.

هذا وقد صار لكلمة الرافضة على الزمن مفهوم آخر كما سترى في كلام ابن تيمية.

[٦٤] منهاج السنة ٥/١.

[٦٥] المصدر نفسه ١٥/١.

www.alkottob.com

هذا نعت لا يصح بحال أن يلصق بالشيعة الذين خبرناهم بالعراق والشام، وعرفنا مقالاتهم ورأيت آنفا آراء مفتيهم، إن هذا الغلو منبعه الفرس واليهود، فإن كانت منه بقية اليوم ففي فارس والهند، ومن اطلع على تأليههم البشر وإغراقهم في المحال أيقن أن هذه الآراء بعيدة البعد كله عن جوهر الإسلام، وأنها صنع عقلية متأثرة بماضيها المجوسي أو اليهودي، وأنها على كل حال لم تنبت في منبت عربي قط. وصدق الشعبي حين وصف هؤلاء المتسترين بالتشيع:

«لم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة، ولكن مقتا لأهل الإسلام وبغيا عليهم، قد حرقهم علي بن أبي طالب ونفاهم إلى البلدان، منهم عبد الله بن سبأ: يهودي من يهود صنعاء، نفاه إلى ساباط...الخ[٦٦]».

هذا تمييز بين الشيعة المسلمين وهؤلاء، لا بد من التنبيه إليه لمعرفة الحق ووضع الأمور في نصابها. وقد خبط بينهما وخلط، كثير ممن تصدى للتأريخ قديما وحديثا.

الثاني – أما الأمر الثاني فهو نتيجة لما سبق: لقد امتلأت كتب الخلاف بالطم والرم من الأخبار والأحاديث الموضوعة التي تغذي الخلاف وتوسع شقته، لفقها الملفقون غشا وكيدا أو غفلة، ومن النادر أن تجد مصدرا خلا منها.

وقد تنبه إلى هذا الخطر أهل البصر من السنيين والشيعيين، ورأوا خطة سديدة في التغلب عليه أنا ذاكرها لك:

الفريقان الشيعة وأهل السنة مجمعون على الاحتجاج بالقرآن الكريم، ثم يختلفون في الاحتجاج بالروايات والأحاديث: فبعض أهل السنة يروون أحاديث وروايات في باب الفضائل وحروب الصحابة لا يأخذ بها الشيعة ولا يرونها صحيحة، وبعض الشيعة يحتجون كذلك بروايات وأحاديث يرى أهل السنة أنها مختلقة، وهناك أحاديث يجمع عليها الفريقان.

فإذا اتفقنا على الاحتجاج – في هذا الباب – بالقرآن الكريم وما أجمع الفريقان على صحته من الحديث وأغفلنا ما وراء ذلك: إذ كان لا يدخل في أصول العقائد ولا ثمرة عملية له، زال كل خلاف بين الطرفين، وقضينا على هذه الفرقة غير المجدية التي طال أمدها.

---

[٦٦] منهاج السنة ١/٦.

www.alkottob.com

هذا رأي منصف سديد حكيم لا غبار عليه.

والطريف حقا أن يقول به شيخ الإسلام المحدث الكبير ابن تيمية نفسه خصم الشيعة المشهور في المتقدمين، والسيد محمد محسن الأمين المجتهد الشيعي في المعاصرين:

قرر ابن تيمية: «إمكان تركنا الاحتجاج بالرواية إن ترك الشيعة ذلك[٦٧]»، وإليك رأي السيد محمد محسن الأمين من أجوبته التي أرسلها إلي في كراس لطيف أنقله بالحرف:

«... وأما قولكم (إن في نيتكم أن تكون الدراسة (عن السيدة عائشة) حيادية) فنعم ما تفعلون إذا أمكنكم ذلك فإن ما في الكتب الإسلامية مما يرجع إلى الآراء والديانات قد اختلط فيه الحابل بالنابل والحق بالباطل، واعتورته العصبيات والأهواء. ومضى على المسلمين أحقاب وقرون، دخلت فيها السياسة في الدين، واستغل الدين لتوطيد الملك، واختلقت الأحاديث والأقوال حسب رغبة الملوك والأمراء والسلاطين وبعض من يحملون لقب الخلافة، .... فعل ذلك خوفا وطمعا لإرغام فريق وتأييد فريق كما هو الشأن في كل عصر وزمان؛..... (وهنا ضرب السيد مثلا مظالم الشيعة في العهدين الأموي والعباسي) ثم قال:

ومهما بذل العلماء جهودهم في تنقية الأخبار لم يستطيعوا — وإن تخيلوا ذلك — لأن العصبيات المذهبية والعداوات الدينية تأصلت في النفوس، وتوارثها الخلف عن السلف، ومن أراد تجريد نفسه عنها لم يوفق لكثرة ما في الأمر من الاختلاط إلا ما شاء الله، **ولا يمكننا تتزيه ما عند فريق دون فريق عن ذلك**، فما علينا إلا أن ننعم النظر، **ونأخذ بما اتفق عليه الكل وتوافقت عليه الأخبار من الطرفين، وأيده الكتاب العزيز والسنة الثابتة عند الجميع» اهـ.**

ولعل من هذا المذهب ابن أبي الحديد المتشيع أيضا حين قال ما ذكرته لك سابقا: «اعلم أن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان... الخ[٦٨]».

---

(٦٧) المصدر السابق ١/٢٦.

(٦٨) مر بتمامه ص ٣٢٢ فارجع إله-. هذا، وأنا موقن أن تطبيق القواعد التي أقرها الأصوليون من علماء الحديث بصرف النظر عما ألقح المتأخرون بها من قيود وتقليد، كاف بإقصاء كل تلك الأحاديث من كتب الفريقين؛ إذ إنها قواعد محكمة سديدة، وهي مقاييس في النقد دقيقة هيهات أن يلحق بها أدق ما وضع نقده التاريخ لعصرنا. ولكن قومنا يدرسونها تبركا ولا يمارسونها البتة، وكان الحق أن يطبقوها بحرية واسعة في هذا الباب باب المناقب والملاحم على الأقل.

www.alkottob.com

وهذه الخطة التي توارد عليها ابن تيمية والسيد محمد محسن الأمين، خطة عملية ظاهرة الصواب. وما غمر عصرنا هذا من روح العلم وحرية التفكير والاعتداد بالكرامة الإنسانية واحترام الفردية... كفيل بالقضاء على روح التفرقة والتعبد لآراء الرؤساء والعصبية الجاهلية التي قضى عليها الإسلام و لم يعرفها السلف الصالح من أهل السنة والشيعة معا.

* * *

وبعد، فهذه جناية الحزبية السياسية على وحدة الأمة: أفسدت على الناس كل شيء حتى دينهم، ففرقتهم فرقا متنابذة فيه، وملأت تاريخهم الطويل بالفواجع والمآسي. ورحم الله السيدة عائشة فلم ينته انقسام الناس بسببها حتى اليوم.

* * *

www.alkottob.com

الخاتمة

عبرة الحوادث

الآن، وقد بلغت بك نهاية الحديث عن السيدة عائشة ومغامراتها السياسية وآثارها القريبة والبعيدة في حياة المسلمين، أودعك موصيا أن تجعل بالك أبدا — كلما قرأت التاريخ — إلى عبره وتجاربه، فتأخذ من كل شيء أحسنه، وتربأ بنفسك وبأمتك أن تغامر في تجربة ثبت ضررها وفسادها، وخاصة إذا كان الثمن الذي قدمناه فيها دماء عشرات الألوف. وأنا أرد أن أختم كلامي بالنص على عبرتين اثنتين من هذه العبر الكثيرة التي تعرض لقارئ هذا الكتاب: تنقذاننا مما نحن فيه اليوم من تخبط، وتنيران لنا طريقا طال تعسفنا في المتاهات دون أن نهتدي إليه.

أما الأولى: فهي أن المرأة لم تخلق قط لتدس أنفها في المنازعات السياسية. إن لها أن تنصح وتبصر القريبين منها بعواقب الأمور، وليس لها أن تشارك في القلاقل والاضطرابات والفتن. إن بيدها مفاتيح خطرة في التأثير في نفوس الجماهير وفي استغلال حميتهم ونخوتهم ومشاعرهم، وهذا السلاح غير حميد في العواقب ولا يصح استعماله بحال. وقد أبنت لك أنه لولا موقف السيدة عائشة في أمر عثمان ثم المطالبة بدمه من بعد لتغير مجرى الحوادث في تاريخنا التغير كله، ولسارت سيرا مأمونا مطرد الرقي مباركا، فيه الخير كل الخير للأقطار الإسلامية.

وكأن الله الذي جعل النساء لتنشئة الرجال وتربية الأجيال وإدارة البيوت، أراد أن يعظ المسلمين عظة عملية لا تنسى، كلفتهم كل تلك الدماء المهراقة، وفجعتهم بالألوف من الصحابة الأجلاء المهاجرين والأنصار ومن الفحول المذاويد من أبطال الفتح وأعاظم الفقهاء وأساطين القراء ورؤوس الناس... ليعلموا: أن لو كان أمر من أمور الرجال الخاصة بهم يقوم بامرأة، لقام بهذه السيدة الحصيفة التي أوتيت من المواهب والذكاء والعلم والبلاغة والصلاح... ما لم يؤته رجال كثيرون مجتمعين، والتي جمع الله فيها من المآثر العظام ما تفر في العدد العديد من الفحول.

www.alkottob.com

لقد خلدت حرب الجمل منارا في تاريخ المسلمين: كلما نزغ هم نزغ من تقليد أعمى لغيرهم من الأمم؛ أو مس من رجعية ذميمة، فهبطوا بالمرأة من الصيانة إلى الابتذال، أو هموا أن يخرجوا ها عما خلق لها وخلقت له... قالوا لأنفسهم: أخفقت هذه التجربة في صدر تاريخنا؛ فما بنا حاجة إلى أن نعيدها عبثا، أو أن نهرق في سبيلها ثانية دماء جديدة ونخرب بيوتا عامرة... ومن لنا مع هذا بمثل عائشة.

إن هناك مجالا واسعا لنشاط المرأة حين تجد وقتا فاضلا عن شؤون التربية وإدارة المترل، تستطيع به أن تملأ الأجواء خيرا ورحمة وإحسانا. هذه وجوه الخير مفتحة الأبواب، في وسع المرأة أن تلجها فتمارس أمورا عظاما وتبذل مجهودا مشكورا، يعود على أمتها بما لا يقل عما يأتيه الرجال المحسنون ثمرة وغناء وطيب أثر.

أمامها من ميادين الخير: التمريض وإسعاف الفقيرات من بنات جنسها بالعلاج والدواء والطعام والكساء. وفي مجتمعنا من المحتاجات ما يشغل عشرات الجمعيات الخيرية من النساء ولا يفي بحاجتهم عشرات المستشفيات.

وأمامها أيضا كفاح الجهل في بنات جنسها، فلننشئ لهن المعاهد ذوات المناهج الصالحة لتنشئة الأمهات على ألا تستعير لها برامج الذكور (ببعض التعديل) فقد ثبت مع الزمن أنا حتى الآن لم نقم التعليم الصالح للبنات[1].

وهناك أمام المرأة العناية بتربية اليتيمات وإنشاء (المياتم) وتعهد أمهاتهن بالرعاية والتوجيه ثم إشاعة الثقافة الصحية بين النساء عامة.

ويجب أن ينشأ فيهن المتخصصات في جميع الفروع التي يحتاج إليها النساء والأطفال، وأن يكون منهن العدد الوافي بالحاجة بحيث يسددن عوز النساء في علاج أمراض العين والأسنان والأمراض الداخلية والجلدية وفي حاجات التوليد.

---

[1] ينبغي أن تكون أكثر مواد هذا التعليم بحوثا واسعة تجريبية في كل ما تحتاج إليه الأم في الصحة والدين وشؤون المترل وتربية البنين وحسن العشرة... لا خليطا غير منسجم من نظريات الرياضيات ومعادلات الكيمياء وقوانين الطبيعة. ولنجعل التاريخ الذي يدرسنه مملوءا بسير الذين ضربوا المثل العليا للبشر في سمو النفس وابتغاء الخير وخدمة الناس، وفي الفضائل الحية ممن أشاعوا الرحمة والصلاح والعدل والخير، وكانوا للإنسانية حماها الأبطال المخلصين من رجالنا ونسائنا على السواء. ولنتجنب شحنه لهن بأخبار القلاقل والاضطرابات والفتن والحروب ومثل الفساد والطغيان.

www.alkottob.com

فإن كان ولا بد من زيادة، فإلى المساهمة في كفاح ما يتفشى في المجتمع من امتهان المرأة وإشقائها عن طريق البغاء والقمار والخمور وغيرها من المفاسد التي ضاق بشرورها المفكرون في الغرب والشرق.

لدى المرأة إذن كثير من أعمال الإحسان ينتظر من يقوم لها، وفي ذلك الخدمة المخلصة للأمة وإعمار البيوت وإفاضة الخير والسعادة في المجتمع....

ونحمد الله على أن في فضليات نسائنا من تحاول سد هذا الثلمة، إلا أن نسبتهن قليلة جدا بالقياس إلى اللائي تنكبن الجادة متخبطات على غير بصيرة، فهجرن بيوتهن واكلات أمورهن إلى الخوادم، وطفقن يمارسن ما لا يعود عليهن وعلى أسرهن وأمتهن إلا بالضر الخالص والإفساد الكبير: من إقامة حفلات ساهرة مخجلة، وغشيان مجتمعات وأندية، واقتحام أسفار، وعقد مؤتمرات لا يبلغن فيها أمرا نافعا، بل كثيرا ما يرجعن وقد سبقتهن أشأم الحوادث وأسوأ الأخبار... مما يدع السامع ينشد قول جرير يخاطب الفرزدق:

وكنت إذا حللت بدار قوم   رحلت بخزية وتركت عارا

يقلدن بذلك نساء ضج عقلاء أممهن من أحوالهن(٢)، وسقط مقامهن فيها من كثرة هذا التبذل والعبث، وعدن على بنات جنسهن من البريئات بأبلغ الضرر لما لوثن من سمعة المرأة عامة. ليتنا

---

(٢) وددت لو تفرغ طائفة من علماء النفس إلى دراسة نفسية عميقة للنسوة اللاتي يطالبن بالحقوق السياسية في أوروبة وأمريكة واللاتي استغرق (نشاطهن) الاجتماعي كل وقتهن، فلعل في أعماق نفوسهن هوى سحيقة ومرارات أليمة وعللا وشذوذا ... وشعورا صارخا بنقص ماثل لأعينهن كيفما توجهن، فآثرن تناسيه والهرب منه بذلك (النشاط الاجتماعي). والطريف أن هؤلاء لم يكثر عددهن إلا في هذه السنين الثلاثين الأواخر، حين فقدت أوروبة الشعور بدفء الأسرة ونعيمهما وروحها، وخلت البيوت من جوها الجميل الجذاب جو التآلف والاجتماع والتحاب والتعاطف، وأصبحت مائدة البيت قلما يجتمع عليها اثنان بعد أن تشرد أفراد الأسرة وتبعثروا في المطاعم والسهرات. فلو كان بناء الأسرة متماسكا متينا حبيبا كعهده أول، ما كان المطالبات بحقوق الانتخاب والنيابة والوزارة والتمثيل السياسي وما إلى ذلك. وإذا أساغ التصور السليم مثل هذا الشذوذ في روسية السوفييتية، حيث كان يراد إقامة مجتمع لا بناء للأسرة فيه، فإنه لا يتخيل بحال امرأة عضوا عاملا في أسرة ثم تكون مندفعة في تيارات السياسة وما إليها في وقت معا.

ووددت أيضا لو شرع الفنيون من رجال الإحصاء بدراسة تعرفنا نسبة ربات الأسر اللائي أنعم الله عليهن بالزوج والولد بين الطالبات بحق الانتخاب مثلا، ثم أحصوا نسبة الجميلات منهن، ثم.... ثم.... إني لأخشى أن تكون الكثرة الكاثرة منهن ممن حرمهن الله الجمال والزوج والولد، فنقمن على المجتمع نظامه وعلى الأخلاق قوانينها، وعلى السعادة وجودها على الأرض،

www.alkottob.com

إذا جننا بالتقليد احترنا من نقلد، ففي كل أمة من فضليات النساء النافعات ما يحسن الاقتداء به، ولكننا ننتفي أحط المبتذلات ثم نسبقهن في الابتذال أشواطا يخجلن هن أنفسهن من السعي إليها.

وأبعد من هذا، أننا إذا أمعنا في البيت وما يحتاج إليه تدبيره على خير نسق من علم واسع غزير في الصحة والأخلاق والتربية وعلم النفس، وسياسة الزوج والأطفال، وسياسة المورد والمصرف، ورعاية ذلك كله... وجدنا أن علم ذلك وإتقانه وحسن إمضائه لا يكاد يبقي للمرأة القديرة ذات المواهب الجمة من فراغ أو جهد، فكيف المتوسطات بله الضعيفات. إن ما يلزم لتصبح الأنثى امرأة (مثقفة) ليتضاءل أمامه — في اعتقادي — كل ثقافة ثانية مهما كانت رفيعة مفيدة.

وعلى المرأة الجادة بعد ذلك واجبات عديدة تستطيع أن تشارك في شرف الخدمة فيها، على شرط واحد: هو أن تنهي كل ما عليها من واجب نحو بيتها وأسرتها أولا، وإنما يكون التطوع والصدقة والإحسان فيما فضل عنك من مال أو وقت أو جهد.

* * *

هذا، ولست أقول إن المرأة لا نفع منها في باب السياسة، أستغفر الله، إن منها النفع كل النفع من طريق واحد فقط: هو أن تتحلى بكل فضيلة رسمها لها دينها ثم تنشئ عليها أولادها، فما من امرأة فرطت بفضائل دينها من خير قط. والناس على حق حين يهملون كل أدب واحترام إذا رأوا امرأة جامحة على الآداب النسوية التي شرعها الله. والدين للمرأة هو كل شيء في نظر زوجها وولدها وأسرتها والناس أجمعين، فإذا جاهرت بشيء من الخروج عليه فقدت كل احترام في النفوس، وانتقلت نظرة الناس لها دفعة واحدة من التقديس إلى الزراية.

إن من لم تكن أمينة على دينها لن ينتظر منها إلا الشر والخيانة لأسرتها ووطنها، مثلها في ذلك مثل الرجال رق دينهم: فلما مارسوا الشؤون العامة مالئين الدنيا صخبا بدعوى إخلاصهم ووطنيتهم، كان بلاء الأوطان منهم وحدهم إذ كانوا لا يخافون الله ولا يرعون لدين عهدا ولا لضمير حرمة، فانطلقوا يشحنون الأرض خسفا وكسفا ونهبا وسلبا واحتكارا وغلاء وإهدارا للكرامات والقيم وتضيعا للأمانات والحقوق. وبذلك ضربوا أسوأ الأمثال وأظهروا وطنهم بشر

وآلين على أنفسهن ألا يضعن الحرب حتى يعم العدل وجه الأرض، وما العدل عندهن إلا هدم الأسر وأنظمة الزواج، وسلطان الضمير، ومحو السعادة جملة.

www.alkottob.com

المظاهر... ومن مات وازعه الديني ونسي يوم الحساب فلن يرده عن طغيانه رادع من الناس ولا رقيب.

وأنا على يقين من أن أمهاتهم مسؤولات — إلى حد بعيد — عن هذا الخزي الذي ارتطموا فيه؛ إذ أهملن فيهم تربية الوازع وإحياء الضمير وإشعارهم خوف الله والحساب. لقد حرمتهم النشأة الدينية الفاضلة فلم يعرفوا لذتها، و لم يتعهدن ذمتهم وأخلاقهم ففقدوا في أنفسهم الكرامة الإنسانية، فلما تغلبوا وسيطروا كانوا فوق الوحوش ضراوة وشراسة وقسوة قلب، فعم البلاء البلاد والعباد....

إلى هذا الحد تبلغ جريمة المرأة الناشئة على غير دين، وتعظم المصيبة، وتستفحل آثار شرورها في مستقبل الأمة وسلامة المجتمع.

فلها إذن آثار بعيدة في السياسة، وهي تسدي لوطنها أعظم الفضل أو تبلغ منه أعظم النكاية، لا بنفسها مباشرة فقط، ولكن بنفسها وبما تنشئ عليه أبناءها سياسيي الغد من فضائل أو رذائل، وبما تنال ضمير الناشئ ووازعه الديني من عناية أو إهمال.

*   *   *

ذلك، وقد أعان على تردي المرأة في الخروج على أنوثتها وفطرتها، فريق من أشباه الكتاب حملوا أقلاما و لم يحملوا إخلاصا ولا أمانة ولا نصحا. دفعهم الرياء المغشوش على أن يغرقوا في مجاملة المرأة المشتطة الطائشة ابتغاء العبث بها وبكرامتها، فحملوها فوق ما تستطيع من السخط على الطبيعة التي فيها لكل كائن عمل خاص. وكان حق المرأة على هؤلاء أن يأخذوا بيدها إلى ما يسعدها من علم وخلق، وإلى ما يعزها في المجتمع سيدة بيت ومربية أجيال. وكان من حقها أيضا على من يزعم نصرتها أن يمسكها عن أن يهوي بها الطيش في مكان سحيق فتفقد مالها من حرمة هي ملاك أمرها كله في المجتمع.

ليتنا في غمراتنا اليوم نسترشد بتجارب الماضي ونسير غير متخبطين: نبصر مواطئ أقدامنا ونتقي المزالق، ونجند كلا في ميدانه الذي يصلح له. لقد تداعت علينا الأمم، وطمع فينا حتى

www.alkottob.com

(الصهاينة) من شذاذ الآفاق[٣]، وغزينا في أخلاقنا وبلادنا وأموالنا... وليس في جهودنا فضل ننفقه في رد العابثين عن عبثهم، فليتق الله حملة الأقلام وليصونوا الشاردات عن القطيع، وليرجعوا بهن عن طريق وضعن أقدامهن في أوله وما آخره إلا مستقبل أسود حالك للأنثى أولا، ثم خراب البيوت وهدم الأسر وارتكاس المجتمع وموت كل كرامة امتاز بها الإنسان من دون الحيوانات الدنيا.

وما الانيهار السريع الذي قضى على بعض دول الغرب العظمى في مثل لمح البصر بسبب فساد المرأة، ببعيد فينسى. ولنا فيه درس وموعظة وبلاغ.

* * *

وأما العبرة الثانية: ففيما يثمر الخلاف من الثمرات المرة الأليمة:

لقد كان أمر المسلمين الأولين عجبا من العجب: امتلأت نفوسهم بكل ما حباهم ربهم من خير في الإسلام، فأحسنوا فهمه وأحسنوا العمل به، وأحسنوا الاستجابة لرسوله نساء ورجالا، فوطدوا أركانه في الجزيرة العربية، ثم انتقل رسول الله إلى جوار ربه، واندفع هؤلاء الصحابة الأخيار يريدون إعلاء كلمة الحق وإنقاذ عباد الله من كل الأجناس والأديان: من شرور الظلم والجهل وامتهان الإنسان، فحرر الله على أيديهم أقطارا وشعوبا كثيرة، فأشركوا الناس كافة في سعادتهم وعدلهم وأمنهم. ومن عرف أنهم كانوا قبل عشرين عاما فقط يأكل بعضهم بعضا ويعدو قويهم على ضعيفهم: قبائل متعادية، وطوائف يغزو بعضها بعضا... عرف نعمة الله عليهم وعلى الإنسانية بهذا التوحيد الذي ألف بين قلوب ما كانت لتتألف، وأدرك سر المعجزة التي أتى بها الإسلام في توحيدهم وخلقهم خلقا جديدا جعل من سفكة الدماء أنبياء رحمة ورسل هداية للبشر.

لقد أتوا – وكلمتهم واحدة – بالعجائب في الحرب والفتح ثم في البناء والتنظيم، وكان منهم الخير كل الخير لأنفسهم ولغيرهم.

---

(٣) نشر هذا سنة ١٩٤٧ قبل ن ينكب العرب زعماؤهم ورؤساؤهم ومفرقو كلمتهم بكارثة فلسطين.

www.alkottob.com

فلما صبت الدنيا خيراتها وكنوزها بين أيدهم، وتقادم ما كان جديدا من روعة الدين وعهد الرسول وصاحبيه، وكان أمر الشورى المعلوم، وكثرت في هذه الإمبراطورية الواسعة المناصب والولايات... بدأت نوازع الطموح تتحرك في نفوس هؤلاء الأبرار فيكبتونها رهبة من الله. لكن عناصر الشر والغش والفساد من أهل النحل البائدة والأمم المغلوبة كانت أيقظ من أن تغفل عنهم وهي الخبيرة بمداخل الشر ومخارجه، فما زالوا يفتلون لأولئك الطيبين في الذروة والغارب حتى استجاب بعضهم لأهواء نفوسهم من حيث لا يشعرون، ودب دبيب الخلاف بينهم، واشتغل بعض ببعض، ووقفت الفتوح أيام علي حتى خيف على المسلمين من فلول الروم.

أرأيت ما يفعل الخلاف في الدولة القوية المتماسكة المتينة الآساس؟ إنه يطمع فيها حتى الضعيف المغلوب المشرف على الدمار، دع ما أريق في سبيله من دماء غالية بدأت بالخليفة الصابر الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم أردفت بدماء عشرات الألوف. وهذا يوم الجمل وهو يوم واحد أسفر عن خمسة عشر ألف قتيل على أقل تقدير في بضع ساعات، فلا تسل عما بعده من يوم النهروان ويوم صفين وغيرهما من تلك الأيام التي أعملنا فيها سلاحنا في أنفسنا فأوقعنا الوهي في دولتنا والتفرقة في صفوفنا والعداوة في قلوبنا.... وكان الله قد غسل هذه القلوب وجمع تلك الصفوف.

ولو أن هذه القوى المتطاحنة يوم الجمل ويوم صفين اجتمعت على الخير فسارت إلى عدوها في الشرق والغرب لأكلت الدنيا بقوتها ولأحالت العالم جنة يتحدث بنعيمها وسعادة أهلها الركبان. لكن الله الذي أيد هذه الأمة أول أمرها قضى أن يكون بأسها بينها، فامتلأ تاريخنا بالحروب الداخلية وتحول عن مجراه السعيد الذي جرى فيه أولا لخير الإنسانية عامة؛ قضاء من قضاء الله لا حيلة فيه.

ولست أدري: ما يكون حال دنيانا الآن، لو أن العرب لم يفسدها الخلاف والتطاحن و لم تترل بأسها بينها؟... ولو ذهب باحث يحصي هذه الدماء المهراقة في سبيل الخلاف منذ قتل عثمان حتى اليوم، في المشرق والمغرب والأندلس... لأفزعته هذه الملايين منها، ملايين لو بذلت في سبيل الحق لكان تاريخ العالم كله على غير ما نعرف، ولكنا أهل الحضارة حتى الآن وإلى الأبد لا يلم بشمسنا أفول.

www.alkottob.com

وقد خاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته آثار الخلاف، فسأل ربه فيما سأل أن يجنبها أضراره، إذ علم أن هذه القوى الهائلة المتراصة التي يعمرها إيمان لم تعرف الأرض له مثيلا... كفيلة بفتح الأرض كلها، لا تقف لها قوة إلا أن تنشق على نفسها، فرووا عنه أنه قال:

«سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة:

سألت ربي ألا يهلك أمتي بالسنة (بالقحط) فأعطانيها،

وسألت ربي ألا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها،

وسألته ألا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها[٤]».

ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

وأصرح من ذلك ما روى عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا فتحت عليكم خزائن فارس والروم فأي قوم أنتم؟» فقال عبد الرحمن بن عوف: «كما أمرنا الله تعالى».

فقال رسول الله: «كلا بل تنافسون ثم تنطلقون إلى مساكن المهاجرين فتحملون بعضهم على رقاب بعض»[٥]؛ وهذا ما كان.

* * *

انقضت الخلافة والخلاف بخيرهما وشرهما، و لم يبق منهما إلا هذا التاريخ بين أيدينا مملوءا بالعبر، فلنتعظ به، ولنتجنب أي تفرقة بيننا بكل ما نستطيع، ولتكن تلك الدماء الذاهبة ضياعا: حافزة لنا على الوحدة وجمع الكلمة، فلا نعيدن فاجعتها جذعة، ولنهرب من كل خلاف وتفرقة هرب السليم من الأجرب، فإنهما يبدآن صغيرين تافهين لا يؤبه لهما ثم يعظمان حتى يلتهما الأخضر واليابس.

وإن أعجب لشيء فلأولئك الذين ما زالوا يجتمعون ويتفرقون متجادلين في هؤلاء الصحابة

---

[٤] صحيح مسلم ١٧١/٨ (الآستانة سنة ١٣٣٣ هـ) وانظر مسند أحمد ١٧٥/١.

[٥] صحيح مسلم.

www.alkottob.com

الأخيار: أيهم المؤمن وأيهم الكافر؟ أيهم يحمد وأيهم يذم! ويتقربون إلى الله بلعن رجال: ما منعهم أحد إلا وله السوابق الحسان في نصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله والدفاع عن رسول الله، وما فيهم إلا من كان في جهاده وتفانيه في النصرة قرة عين الأمة والدين والرسول، وليس فيهم إلا من بذل ماله ودمه ودم أهله للخير العام، فخلفوا لنا بفضل إخلاصهم هذه البلاد الواحدة على ترامي أطرافها، إنها وحدة جامعة عجزت ضربات الدهر وسطوات الدول ثلاثة عشر قرنا عن أن تنال منها ما يقضي عليها ويمحوها؛ فما زال العراقي إذا هبط أقصى المغرب في مراكش، لا يحس بغربة عن أهل ولا وطن: أستغفر الله، بل ما زال المسلم الصيني من أقصى الشرق إذا هبط ساحل بحر الظلمات تلقته القلوب بالبشر والترحاب... لقد جمعهم الله بمحمد وصحبه على كلمة حق واحدة فلن يفرق أحد ما جمع الله بمحمد وصحبه.

لست بسبيل تعداد المآثر المشهورة لأولئك الأخيار الذين هم موضوع الخلاف كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعائشة... فأصغر أعمالهم عند الله يمحو كل ما يذكر خصومهم من أخطاء، وقد ذهبوا إلى خالقهم الذي أرضوه بأعمالهم ورضي عنهم، وسجل رضاه هذا في قرآنه الكريم يتلى ما بقى على الأرض إنسان.

فلنمحضهم جميعا محبة واحدة، ولنستغفر لهم ولأنفسنا، ولنذكرهم بكل خير جزاء ما خلفوا لنا من وحدة قوية، ودولة مثالية بنوها بجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، جهادا أرخصوا فيه مهجهم وضحوا بأعز ما يملكون؛ ولنطرح عن عواتقنا مخلفات عصور الانحطاط والشعوبيات، ولنقتد بهؤلاء الأخيار أنفسهم حين يعرض بعضهم لذكر بعض، فقد عاينت حسن رأي كل فريق بإخوانه، وعلمت أن الله نزع ما في صدورهم من غل، وأنهم عادوا إخوانا متحابين كما أمرهم الله أن يكونوا.

وإن الله عز وجل لم يتعبد أحدا بشتم أحد من الصحابة ولا لعنه، بل عظم من شأنهم وغفر لهم ما أخطؤوا قبل أن يخطئوا، ولولاهم لكان العرب اليوم في وثنية أو مجوسية، فما هذا جزاء من أنقذنا به من الضلال والفرقة، ومن خلف لنا ملكا سعيدا وماضيا مجيدا وتاريخا حافلا بكل ما يرفع الرأس ويخلد أحسن الثناء والذكر.

* * *

www.alkottob.com

فرقت السياسات قديما أمر المسلمين وشتت شملهم، ثم عززها أهل الكيد والدس بغشهم حتى جعلوها تتغلغل في الأديان والعقائد، وصار الدين الواحد أديانا والأمة الواحدة أمما. وما الأمر كله بالذي يستوجب بعض ذلك، فلنأخذه بالتوسعة والتسامح، ولكل رأيه في السياسة وفهمه للتاريخ فلا يضيقن أحد ذرعا بفهم أخيه، ولا نجعلن خلاف الرأي في السياسات والحزبيات ماضيها وحاضرها مفرقا وحدتنا وصادعا شملنا ومخمدا نارنا، ولا نجعلن هذه الأحقاد والعداوات تتوارث إلى يوم الدين.

إن الأمم من حولنا اليوم كالجياع على القصاع كما أخبر بذلك الرسول الأعظم[٦] صلى الله عليه وسلم، فلن يجدينا في موقفنا اليوم ذلك الجدل ولا تلك الفرقة، بخويصة أنفسنا ما يشغلنا عن هذا الباطل، وفي مطالب الحياة الجادة ما يلفتنا عن التفرق... فلنقابلها صفا واحدا وأمة واحدة كما بدأنا الله، ولننبذ عصور الظلام بآثارها جميعا. إن ربنا واحد ورسولنا واحد، وكتابنا واحد، فلنعد أمة واحدة كما أراد الله لنا، ولنبرأ من كل فتنة وخلاف وتفرقة. إنا محاطون بالأعداء داخلا وخارجا، وهم دائبون على توسيع الشقة بيننا فلا نعيننهم على أنفسنا، ولا نضعن في أيديهم السلاح الذي يقتلنا ويجعلنا لهم طعمة سائغة.

* * *

ليت الله إذ جمع على الهدى أمرنا لم يجعل للفرقة إلينا سبيلا، ولا جعل بأسنا بيننا، وليت هذه السابقة التي هونت على المسلمين أن يقاتل بعضهم بعضا لم تكن قط:

فليت الظعينة في بيتها ... وليتك (عسكر) لم ترتحل

ثم ليتنا بعد ذلك كله نعتبر بما في الخلاف من ضرر بالغ في كبير أمرنا وصغيره، فنجنب أنفسنا وبلادنا وذرارينا شروره.

[والحمد لله رب العالمين]

* * *

(٦) في الحديث المشهور: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم إلى قصعتهم...» انظره في مسند أبي داوود ١٣٣/٤ رقم ٩٩٢ من جوامع الكلم وآيات البلاغة النبوية.

www.alkottob.com